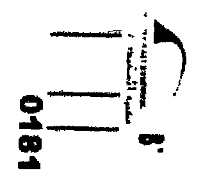


جـاك المؤمن بالقدر

ـوايـة





سوحة





نجاك المؤمن بالقدر

- جاك المؤمن بالقدر
- تأليف: ديدرو
- ترجمة: عبود كاسوحة
- الطبعة الأولى 2000

- الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
- سوريا – اللاذقية – ص.ب 1018 تلفاكس 422339

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية
وقسم الخدمات الثقافية بالسفارة الفرنسية في سورية
Liver publié en collaboration avec
lc Ministére francais des Affaires Etrangéres
et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

ديد

جاك لمؤمن بالقدر

ترجمة: عبود كاسوحة





مقدمة

ألا يزال ممكناً أن نأتي بجديد من بعد كل ما كُتب في هذا العمـــل؟ ألا تبدو حدوده المبهمة وهي تتحدى كلّ تعليق ؟ سوف أبوح رغم كـــل شيء بانطباعاتي الخاصة من بعد أن وقع "*جاك المؤمن بالقدر*" تحـــت يدي للمرة الأولى. أما وأنا حديث العهد بالصنعة، فقد أحسست بالصدمة تأخذ مداها الأقصى. كنت خارجاً لتوّي من مؤلّفات مورياك واســـتونييه وروايات أندريه جيد القديمة وبدايات مونترلان، وأولئك كلهم خبراء في فن قيادة الرواية نحو خاتمة أكيدة. فوقعت على واحـــد يقيمنـــي، مـــن السطر الأول، شاهداً على جهله: "وهل يدري المرء إلى أين هو ذاهب؟"

ورأيت في ذلك الشك الأساسي، بدلاً من أن يثير حفيظتي، إجـــازة خارقة لأن أتخيّل نعميات مستحيلة. فصار المؤلـــف متواطئـــاً معـــي. ووقعت في نزاع أكيد مع تلك القصة من غراميات جاك، المؤجلّة إلـــى الغد على نحو دائم. ووضعت نفسي ضمن ظرف قـــاهر وأنـــا أخطـــر المؤلف بارواء فضولي، فيما هو يصرّ على عـــدم التنفيـــذ. لا بـــأس. فالسحر أُلقي به. وبدأت أشعر، صفحة فصفحة أن حقيقة المتعة كافيـــة في فم الراوي وفي أذن من يصغي إليه بنفاد صبر. وجرت الاستعدادات لتسجية الليلة. فتوالت الزجاجات الفاخرة. والمضيفة تسرد فتطرِب. وما الضير في ذلك؟ فالنهر في فيضان والعبور مقطوع. ولا يلزم أكثر مـــن ذلك لكي تُفتح أبواب المغامرة على مصاريعها. وإذا كان مـــن برهـــان ملموس على الحرية، ومن فرصة على الأقل في أن تكون المرفوضة قد لجأت إلى مكان ما في العالم. فذلك يتجلّى في صراحة القـــراءة تلـــك، والتي لا نظير لها سوى صراحة الكتابة.

لكن تأتي سويعات تبدو فيها كثافة ظل القدر وقد استعادت حقوقـــها كاملة. فصورة "الملف الكبير" تأتي إلينا من العصور البعيـــدة. وهـــي

تكمن في أعماق العقليات الجماعية. فلم يكن الكتاب، أو الفولومن *volumen*، فيما مضى ذلك الشيء المنبسط والذي نقلّب صفحاته. ولا يمكن للملفّ أن يقرأ ما لم يُبسَط: فحتى ذلك الحين كانت حروفه غامضة. لقد كتبت كلها دفعة واحدة وفي آن معاً. ولا يسع قراءتنا إلاّ أن تكون مجزّأة ومتتابعة. فمعرفة سبقيّة من جهة، وجهل من الجهة الأخرى. ويضحي هذا التقلقل، ونحن نطبّقه على القدَر، مثقلاً بكافة التهديدات. فكان بوسع المرء أن يأمل في الحصول من العناية الإلهية القديمة، على تعديل لمراسيمها، إما بالمداورة أو بالتضرّع. وفي متناول أحد ما أن يعرف، وعند الاقتضاء، أن يفهم. لكن ذلك "الشيء الما الذي يعرف" هو بالتحديد أعمى وأصم. "لست أسمع صراخكم ولا زفراتكم. ولا أكاد أحس بأكثر من عبور الملهاة الإنسانية فوقي." ذلك ما قالته الطبيعة في قصيدة فينيي *بيت الراعي*. وهي تجهل الشفقة مثلما يجهلها ملفّ جاك. أما الذين ينسون ذلك الفعل الكمّي للقدر أو يتناسونه، فمن شأن الهزات الأرضية (مثل زلزال ليشبونة)، أو الحرب إذا لزم الأمر، أن تعيدهم إلى جادة الصواب. ألم نلاحظ أن *رواية جاك المؤمن بالقدر* تقع ضمن إطار حقل معركة (فونتنوا) من جهة وجدران سجن (حيث اعتقل جاك بدلاً من معلمه) من جهة أخرى؟ وإذا كان لدى مقاتلي *هيرناني* "الراقدين فوق الأرض على وجه الله" عزاء السماء على الأقل، التي تعلوهم وهم يموتون، فإن ذلك الانفتاح على العلاء محظور على تلاميذ رئيس جاك: "نحن نسري في الليل تحت ما هو مكتوب فوق، ونتصرّف على نحو أخرق في أمانينا وفي فرحنا وفي ترحنا على حد سواء."

قد يكون في هذا الكلام صدمة لكثيرين. فهم سيرون فيه تحدياً لكرامة الإنسان، بل حتى للحسّ السليم. فهل أقف مكتوف اليدين وبيتي يحترق؟ وإذا لم يكن تعديل الخطوط العظمى للقدر بمستطاع، ألا يسعنا أن نحاول تبديل الوجهة لبعض تأثيراته؟ ألم يبق من مكان للمبادرة

الشجاعة أو لرفض العبودية أو الجرأة ودلالتها؟ يجيب ديدرو على ذلك ولا يجيب. فليس من شك في أن جاك لا يساوره من خوف وهو ينطلق حاملاً مسدسين ليجابه عصبة من الأشقياء وينجح في مسعاه. لقد سئم من واقعه كمعلول فتحول إلى علّة، ولم يجد من حاجة لأن يستشير قريته. غير أن الحجة يمكن أن تنقلب بسهولة كبرى. ذلك أنه بتصرّفه على نحو ما فعل، لم يكلف نفسه عناء الاختيار: فصمّم تبعاً لما هو عليه وفي استطاعته. فلم يكن في مكنته التصميم على نحو مغاير. والبرهان على ذلك أنه لم يتفكّر في الأمر. وإذا تكلمنا عن طريقة ديدرو نقول: "ما ردّك على الذي يقول لك: أياً كانت كمية العناصر التي تدخل في تركيبي فأنا واحد. والحال أن علّة واحدة ليس لها سوى معلول واحد...؟" فليس التعرّج البسيط في جدران السجن والانفتاح الصغير على هواء الحرية سوى شيء من الأوهام. ولم يكن الملف الكبير سوى صورة تقريبية. فقدرنا الحقيقي كامن في نفوسنا. فنحن السجين ونحن السجن في آن معاً.

فهل أقول إن تلك هي الأسباب الكبرى التي تجعلني أحب *جاك المؤمن بالقدر*؟ إن هذه اللغة، وقد اقتصرت على قضاياها الأساسية، للغة قاسية. فكيف لأثر أدبي، ثبت تشاؤمه، أن يتحوّل بسحر الكلمة إلى تشجيع وإلى إنعاش؟ الجواب في منتهى البساطة، لكن من الملائم تجريده من كل زهو بلا طائل وكل فصاحة طنانة: ذلك أن ديدرو يحب الإنسانية. وليس ذلك بشكل عام وبطريقة نظرية. وإنما بالتفصيل وفي مظهره الملموس أكثر. فالناس على ما هم عليه ضمن واقعية ظرفهم. "ما كان جاك يعرف اسم الرذيلة ولا اسم الفضيلة، بل كان يدّعي أن المرء يولد سعداً أو نحساً." وهكذا يكون العائق الأساسي سقط: إنه الرفض، وانطلاقاً من ذلك يغدو ذكاء الكائنات ممكناً. حسبنا أن نرى وأن نسمع، و ذلك ما لا يحرم ديدرو نفسه منه. فهل من مؤلّف، لا منه فقط بل من عصره، يشكل شاهداً على انفتاح مماثل على الظاهرة

الإنسانية؟ فالفئات الاجتماعية كلها وكافة التحريفات، وكافة أشكال الرّقعة تتواصل فيها: فالمحتالون والمهووسون بالأمجاد العسكرية، لكنْ ذوو الطبيعة الاستثنائية أيضاً، من أبطال الخير وأبطال الجريمة وذوي العاهات، وذوي الضحالة وذوي السمو... وليس هنالك من حدود، فهؤلاء الأولاد جميعاً أبناء لأب واحد ويحملون سمة تشابه شديدة الظهور: الطاقة. ويمكن أن يساء استخدامها فتتعرض للانحراف أو الاضطهاد أو الحطّ من قدرها، لكنها الينبوع لكافة مصائرنا التي يتميّز طابعها الحتمي بألا تكون عمومية. فالطاقة المكبوتة أعطت *الراهبة*، والطاقة المتحررة أعطت *جاك*. ويتمثّل كل واحد فيها عبر الهوى المسيطر لديه. فهوى المضيفة أن تتكلم. وهوى مدام دولابومريه الإباء. أما هوى رئيس الدير هدسون فالمجون، وهكذا دواليك. أما الفارق الوحيد بين فرد وآخر فدرجةِ الوحدة في الطبع. ولم يُطْرح من سؤال قط لنعرف إن كان ذلك التشتّت يتوصّل إلى التنظيم في المجتمع. فالعلاقات الاجتماعية الوحيدة التي تجعلنا الرواية نراها هي علاقات تبعية ترتكز على قانون الحاجة. أما في مؤلّفات أخرى معاصرة لها، فقد أظهر ديدرو ما هو قادر عليه كمفكر سياسي. فهو يعرضٍ علينا في *جاك* المادة الأولية لكل مراهنة على الإنسان. ويعرف بفنه وبقوة حقيقية، كيف يجعلنا نحبها.

جاك شوييه.

كلمة المترجم:

في الفرنسية مثل يقول: "النبيذ الفاخر، ليس بحاجة لشـعار". وأرى هذا المثل ينطبق على رواية ديدرو: جاك المؤمن بالقدر. وإذا كنا نعتبر عذوبة نثر الجاحظ وابن المقفع أو روعة شعر المتنبي وأبي العلاء مـن المسلّمات، فمثل ذلك يصح في كل ما كتبه علَمٌ من عصر الأنوار اسـمه ديدرو، عرفه العالم قبلنا بقرنين ونيف. فبالامس القريـب فقـط ظـهر العمل الأول: ابن شقيق رامو (صدر عن وزارة الثقافة). واليوم يظـهر "جاك". وغداً، على ما آمل، (رسالة حول العميان) و(حلـم دالامبـير)، وعزيمة المواصلة لا تفتر.

وإذا ما زهوت كما زها غوته الذي ترجم (ابن شقيق رامـو) إلـى الألمانية، فصديقه شيلر الذي ترجم (جاك)، فإن هذه الرواية تحقق لـي حلماً يراودني من أيام دراستها مقرراً جامعياً قبل أربعين عاماً ويزيـد، حلماً في أن يتمكن الذين أحبهم، ولا يجيدون الفرنسية، من قراءتها. أمـا وأنا أردد: "أنا أحب، إذن أنا موجود"، فمن دواعي سـعادتي أن يكـون هؤلاء على اتساع وطن وامتداد أرض.

عبود كاسوحة

2000/2/8



كيف تلاقيا؟ مصادفة، مثلما يتلاقى كافة الناس. كيف يدعيـان؟ بـمَ يُهمّك ذلك؟ من أين جاءا؟ من المكان الأقرب. إلى أين همـا ذاهبـان؟ وهل يعرف المرء إلى أين هو ذاهب؟ ماذا كانا يقولان؟ ما كان المعلـم يقول شيئاً. أما جاك فكان يقول إنّ رئيسه[1] كان يقـول: إن كـلّ مـا يصيبنا من خير وشرّ هنا، مكتوبٌ فوق.

المعلّم- ألا إنه لقولٌ عظيم.

جاك- وكان رئيسي يضيف قائلاً إنّ كل رصاصة تنطلق من بندقية إنما تحمل العنوان المُرسل إليه.

المعلّم- وإنّه لعلى حق...

بعد صمت قصير هتف جاك قائلاً: ألا فليذهب الشيطان بالخمّار وحانته!

المعلّم- وهل من يُولّي الشيطان أمر قريبه؟ ليـس هـذا مـن الـروح المسيحيّة في شيء.

جاك- ذلك أني، وأنا أرتشف خمرته الرديئة، نسيت أن أقود جيادنا إلـى المشرب. ولاحظ والدي ذلك فاستشاط غضباً. وتجاهلت توبيخه، فتنـاول عصا وانهال بها عليّ يضربني ضربات قاسيةً إلى حدٍّ ما على كتفـي. وصادف مرور فيلق متوجّه إلى المعسكر بمواجهة فونتنو[2]. فتطوّعـت نكاية به. ووصلنا فبدأت المعركة...

المعلم-فتلقّيت الرصاصة التي تحمل عنوانك.

---

[1] حتى أواخر الخمسينيات ورتبة "رئيس" معتمدة في الجيش السوري. وسـتخدمها هنـا مقابل رتبة "كابتين" بدلاً من نقيب أو رائد-المترجم.

[2] قرية بلجيكية. انتصر فيها الماريشال الفرنسي دوساكس، بحضور الملك لويس الخـامس عشـر، على الجيش الإنكليزي والهولندي عام 1745 م.

جاك– لقد حزرت. أصابتني الطلقة في ركبتي. ويعلم الله ما جلبت علي تلك الإصابة من مصادفات حسنة وما جرّتني إليه من مجازفات خطرة. وهي متماسكة مثل حلقات اللجام دون زيادة أو نقصان. فأظن أني، من غير تلك الطلقة، ما صرت عاشقاً أو أعرج في حياتي، وهذا على سبيل المثال.

المعلم– وقعت في العشق إذن؟

جاك– أجل، وقعت.

المعلم– وكان ذلك بسبب تلك الطلقة؟

جاك– بسبب تلك الطلقة.

المعلم– لم يسبق أن ذكرت لي ذلك بكلمة.

جاك– هذا ما اعتقده.

المعلم– ولم ذاك؟

جاك– لأنه ما كان له أن يحصل أبكر ولا متأخراً أكثر.

المعلم– وهل آن الأوان لذكر قصة تلك الغراميات؟

جاك– من يدري؟

المعلم– إبدأ على كل حال، مهما حدث...

بدأ جاك قصة مغامرات عشقه. كان ذلك بعد الغداء والطقس ثقيل. فأغفى معلمه. وباغتهما الليل وهما في العراء فضلاً الطريق. وهاهو المعلم يستشيط غضباً فينهال بسوطه عل خادمه يضربه ضرباً موجعاً، فيما المسكين يقول مع وقع كل سوط: "يبدو أنّ هذا أيضاً كان مكتوباً فوق..."

أنت تلاحظ، أيها القارئ، أنّي على الطريق السليم، وأن الأمر متوقف عليّ أنا في أن أجعلك تنتظر حكاية غراميات جاك عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام، وذلك بفصله عن معلّمه وجعل كل منهما يسير بلا قصد معيّن وفق ما يروقني. فما يمنعني من تزويج المعلم وجعله زوجاً مخدوعاً؟ وجعل جاك يبحر إلى الجزر الواقعة فيما وراء البحار؟ واقتياد المعلم إلى هناك؟ ثم إعادة الاثنين معاً إلى فرنسا على ظهر

المركب نفسه؟ ألا ما أسهل تأليف الحكايات! لكنّهما لن يعانيا سوى متاعب تلك الليلة، وأنت عانيت متاعب هذه المهلة.

طلع الفجر فركبا مطيّتيهما وتابعا دربهما-إلى أين هما ذاهبان؟ ها أنت تطرح عليّ هذا السؤال للمرة الثانية، وللمرة الثانية أجيبك: بم يهمّك ذلك؟ إذا باشرتُ موضوع سفرهما فالسلام على غراميات جاك...كانا يمضيان لبعض الوقت في صمت. وحين عاد إلى نفس كل منها شيء من الصفاء، بعد العناء، قال المعلم لجاك: "طيب، ياجاك، أين كنا من حكاية غراميّاتك؟

جاك- كنا، على ما أعتقد، عند هزيمة جيش الأعداء. الكل يولّي هارباً والكل ملاحق، وكل امرئ معنيّ بنفسه. فبقيت فوق أرض المعركة، مدفوناً تحت عدد من القتلى والجرحى، فقد كان هائلاً. وفي اليوم التالي رموا بي، مع حوالي اثني عشر آخرين، في عربة لتنقلنا إلى أحد مشافينا. وبَلي، ياسيدي، لا أظن أن هنالك جرحاً أكثر بشاعة من الجرح في الركبة.

المعلم- ويحك، ياجاك، أنت تمزح.

جاك- لا والله يا سيدي، أنا لا أمزح. فلست أدري كم هنالك من العظام والأوتار وأشياء أخرى كثيرة لا أعرف كيف يدعوبها..."

تدخّل في الحديث شخص كأنه فلاح كان يتبعهما، وقد أردف فتاة على مطيته، فقال وقد أصغى لكلامها: "إنّ السيّد لعلى حق..."

لم يكن معروفاً من المقصود بتلك "السيد"، ولكن وقع الكلام كان سيّئاً على جاك ومعلمه. فقال جاك لذلك المتحدث المزعج: "وفيمَ تتدخّل أنت؟

- أنا أتدخّل في مهنتي. فأنا جراح وعلى استعداد لخدمتكم عند اللزوم، وسوف أبرهن لكم . "

فقالت له المرأة التي يُرْدفها: "سيدي الدكتور، فلنتابعْ طريقنا وندعْ هذين السيدين اللذين لا يودّان أن يبرهن أحدٌ لهما...

فأجابها الجراح: "كلا، بل أريد أن أبرهن لهما، وسوف أبرهن لهما..."

وفيما كان يستدير ليبرهن، دفع بمرافقته فجعل توازنها يختلّ فألقى بها أرضاً، وقد علقت قدمها في ذيل ثوبها وانشمرت تنورتها وقميصها إلى ما فوق رأسها. فنزل جاك وحرّر قدم تلك المخلوقة المسكينة وأرخى ملابسها. لست أدري هل بدأ بإرخاء الملابس أم بتحرير القدم. ولكن إذا حكمنا على حالة تلك المرأة من صراخها فقد أصيبت بجرح بليغ. وقال معلم جاك للجراح: "تلك هي نتيجة الرغبة في البرهان! .."

فقال الجراح: "تلك هي نتيجة عدم الرغبة في البرهان!..."

وقال جاك للمرأة التي سقطت أو أُنجدت :"خفّفي عنك، يا صديقتي، فليس ما وقع بفعل خطأ منك ولا من السيد الدكتور ولا مني أنا ولا من معلمي: لقد كان مكتوباً فوق أنه في هذا النهار وعلى هذه الدرب وفي هذه الساعة، سيكون الدكتور مهذاراً بعض الشيء، وأن نكون أنا ومعلمي مشاكسين، وأن تصابي أنت بكدمة في رأسك وأن يشاهد الناس عجيزتك. "

إلامَ يمكن لهذه المغامرة أن تتحوّل لو ساورتني الرغبة في نفاد صبرك؟ قد أولي اهتمامي لتلك المرأة فأجعل منها بنت أختٍ لكاهن القرية المجاورة، ثم أهيج الفلاحين في تلك القرية فأقوم بإعداد منازعات ومغامرات عشق. ذلك أن تلك الفلاحة كانت جميلة تحت ملابسها. وقد لاحظ ذلك كل من جاك ومعلمه. ولم يكن العشق يحتاج يوماً لمناسبة أكثر إغراء. فماذا يحول دون وقوع جاك في الحب مرة ثانية؟ ولم لا يكون للمرة الثانية غرماً غريماً لمعلمه، بل غريمه المفضّل؟ وهل جرت مثل هذه الواقعة من قبل؟

- إنها الأسئلة دوماً! ألست راغباً إذن في أن يواصل جاك حكاية غرامياته؟ عبِّرْ لي مرة واحدة عن رأيك وبكل وضوح، أليس ذلك ممتعاً بالنسبة لك؟ إن كان ذلك ممتعاً لك، فلنردف الفلاحة بالراكب

ولندعهما يمضيان في سبيلهما ولنعد إلى مسافرينا الاثنين. إذ أن جاك هو الذي بادر معلمه بالكلام قائلاً:

"هكذا يجري نسق الحياة. فأنت الذي لم تجرح في حياتك ولا تعرف ما هي الإصابة بطلق ناري في الركبة، تتصدّى لي أنا الذي تهشّمت ركبتي وصرت أعرج منذ عشرين سنة...

المعلم- قد تكون على صواب. لكن هذا الجراح الوقح هو الذي تسبّب في إبقائك على عربة مع زملائك بعيداً عن المشفى وبعيداً عن الشفاء وبعيداً عن الوقوع في الحب.

جاك- لك أن تفكر حسبما يروقك، لكنّ وجع ركبتي كان وجعاً مفرطاً، وتأتي لتزيد طينه بلّة قساوة العربة ووعورة الدروب. فكنت مع كل عثرة أطلق صرخة حادة.

المعلم- لأنه كان مكتوباً فوق أنك ستصرخ.

جاك- بالتأكيد. نزف دمي كله، وكنت في عداد الأموات لو لم تتوقف عربتنا، وكانت في آخر الرتل، أمام أحد الأكواخ. هنالك طلبت أن أنزل فوضعوني على الأرض. كانت امرأة شابة تقف على باب الكوخ فدخلت إلى بيتها لتخرج على الفور تقريباً وبيدها كأس وزجاجة من النبيذ.فشربت كأساً أو كأسين على عجل. وتحركت العربات التي تسبق عربتنا. وتأهّبوا لإلقائي بين رفاقي لولا أني تشبثت، بكل قوة، بثياب تلك المرأة وبكل ما كان يحيط بي، وأنا أرفض أن أصعد، وإذا لم يكن من الموت بدّ، فأنا أفضّل أن يكون في ذلك المكان على أن يكون على فرسخين من بعد. وما إن تفوّهت بتلك الكلمات حتى سقطت مغشياً عليّ. وحين أفقت من تلك الحال وجدتني راقداً في سرير يحتل إحدى زوايا الكوخ، وملابسي نزعت عني، وقد أحاط بي كل من الفلاح، وهو رب البيت، وزوجته، وهي المرأة التي أسعفتني نفسها، وبعض الأولاد الصغار. كانت المرأة قد غمست طرف مريلتها في الخل وأخذت تفرك بها أنفي وصدغيّ.

المعلم- آه منك أيّها الشقي! آه منك أيّها الخبيث... أيّها السافل، فأنا أراك قرب الهدف.

جاك- أعتقد، يا معلمي، أنك لا ترى شيئاً.

المعلم- أليست تلك هي المرأة التي ستقع في غرامها؟

جاك- وحين سأقع في غرامها فماذا سيقال في ذلك؟ وهل المرء سيّد نفسه في أن يقع في الغرام أو لا يقع فيه؟ وإذا كان المرء عاشقاً فهل يظل سيّد نفسه حتى يسلك كأنه ليس كذلك؟ ولو أن ذلك كان مكتوباً فوق، لقلت لنفسي كل ما أنت مستعد لأن تقوله لي-كنت سألطم نفسي وأضرب رأسي بالجدار وأشدّ شعري فأنزعه: لكن ذلك لن يقدّم أو يؤخّر. وكان المحسن إليّ سيغدو مخدوعاً.

المعلم- لكن إذا حاكمنا الأمور على طريقتك فليس من جريمة ترتكب دون ندامة.

جاك- إن ما تأخذه عليّ هنا كدّر تفكيري أكثر من مرة. لكن مع ذلك، ورغم ما أنا عليه، فإني أعود دوماً إلى كلمة رئيسي:كل ما يقع لنا من خير أو شر في هذا العالم مكتوب فوق... فهل تعرف، يا سيدي، من وسيلة لمحو تلك الكتابة؟ هل أستطيع ألاّ أكون أنا؟ أما وأنّي أنا، فهل يسعني أن أتصرف بطريقة مغايرة لي أنا؟ وهل مرّت لحظة واحدة، منذ ساعة وجودي في العالم، لم يكن ذلك فيها حقيقياً؟ ألق ما طاب لك من المواعظ فبراهينك قد تكون صالحة. أما إذا كان مكتوباً في نفسي أو مكتوباً فوق أن أجدها رديئة، فماذا تريدني أن أفعل؟

المعلم- هنالك شيء يستغرق تفكيري وهو: هل وليّ نعمتك سيكون مخدوعاً لأن ذلك مكتوباً فوق، أم أنّ ذلك مكتوب فوق لأنك ستجعل ولي نعمتك مخدوعاً؟

جاك- الاثنان مكتوبان أحدهما بجانب الآخر. فكل شيء قد كتب مرة واحدة. والحال هي مثل ملف كبير يَفردِونه شيئاً فشيئاً."

أنت تدرك أيها القارئ، أيّ مدى يمكن أن أبلغه بالاستزادة من هـذا الحديث في موضوع قيل فيه الكثير وكتب فيه الكثير منذ أكثر من ألفـي عام، من غير التقدّم فيه خطوة واحدة. فإذا كنتَ على شيء من الامتنـان لما قلتُه لك، عليك أن تكون في غاية الامتنان لما لم أقلْه لك.

وبينما كان صاحبانا اللاهوتيان يتجادلان دونما تفاهم، على نحو مـا يمكن أن يحصل في ميدان اللاهوت، أقبل الليل. وكانا يجتازان منطقـة ليست مأمونة كثيراً في العادة، فصارت أقل أمناً، بسـبب سـوء الإدارة وانتشار الفقر مما جعل عدد الأشقياء يتضاعف دون حدّ. فتوقّفـا فـي النزل الأكثر بؤساً. ووضعوا لهما فراشَيْ ميدان في غرفة أعدّت مـن حواجز غير محكمة من كافة جوانبها. وطلبا عشاء فأتوهما بحساء مـن ماء البركة وخبزٍ أسود ونبيذ حال مذاقه. وكان على صـاحب الـنزل وامرأته والأولاد والخدم، مع كل ما يحيط بهم، مظهر عبوس وكآبـة. وسمعا إلى جوارهما قهقهات مفرطة وابتهاجاً وصخباً تصدر عن قرابـة اثني عشر من قطاع الطرق سبقوهما فأتوا على المؤن كلها. كان جـاك على رباطة جأش لا بأس بها أما معلمه فكان بعيداً عن ذلك كل البعـد. واستبدّ به قلق أقضّ مضجعه، فيما انهمك خادمه بالتهام بضع قطع مـن الخبز الأسود، وكان يشرب وهو يغضن وجهه عدة كؤوس من النبيـذ الحائل. بينا هما بتلك الحال، إذ سمعا دقاً على بابهما. كان ذلك خادمـاً، أرغمه أولئك الجيران الأنذال والخطرون على أن يأتي مسافرَيْنا بـأحد أطباقهم وعليه عظام الدواجن التي التهموها كلها. فاستبدّ الغيظ بجـاك فتناول مسدسَيْ معلّمه.

"إلى أين أنت ذاهب؟

-دعني أتصرّف.

-قلت لك إلى أين أنت ذاهب؟

-لأعيد هؤلاء السفلة إلى جادة الصواب.
-أتعرف أنهم قرابة اثني عشر؟
-ليكونوا مئة، فعددهم لا يُقدّم ولا يؤخّر إذا كان مكتوباً فوق أنهم ليسوا كفاية.
-ألا فليأخذْك الشيطان أنت وقولك المأثور الوقح! .."

وأفلت جاك من بين يدي معلمه فدخل إلى غرفة أولئك القتلة حاملاً مسدساً ملقّماً بكل يد، فقال لهم: "انبطحوا، بسرعة، فأول من يأتي بحركة، سألهب دماغه برصاصة..." وكان جاك على درجة من الجدّ في هيئته ولهجته، جعلت أولئك الأنذال، الذين يقدّرون قيمة الحياة مثل القوم الشرفاء، ينهضون عن المائدة دون التفوّه بكلمة فيخلعون ملابسهم وينبطحون. كان المعلم، وهو لا يدري كيف ستنتهي تلك المغامرة، ينتظره مرتعداً. وعاد جال يحمل أسلاب أولئك الناس. فقد استولى على ثيابهم حتى لا يحاولون النهوض. وأطفأ النور عندهم، وأغلق عليهم الباب، وأقفله إقفالاً مزدوجاً بالمفتاح وحمله مع المسدسين. وقال لمعلمه: "أما الآن يا سيدي فليس علينا إلا أن نتمترس بدفع سريرينا إلى ما وراء الباب، وننام بكل طمأنينة..." وتولّى أمر دفع السريرين وهو يسرد على معلمه بكل برود وإيجاز تفاصيل تلك الحملة.

المعلم- ياجاك، أي شيطان أنسيّ أنت؟ أنت تعتقد إذن. .
جاك- أنا لا أعتقد ولا أنكر.
المعلم- وماذا لو رفضوا أن ينبطحوا؟
جاك- هذا مستحيل.
المعلم- لماذا؟
جاك- لأنّهم لم يفعلوا.
المعلم- وماذا لو نهضوا؟
جاك- ستكون النتيجة إما حسنة أو سيئة.
المعلم- وماذا لَوْ .. ولَوْ... ولَوْ...الخ.

جاك– لو كان البحر يغلي، لكان هناك الكثير من السمك المطبوخ كما يقولون. فيا لكَ يا سيدي. لقد ظننت قبل قليل أنّي أخاطر مخاطرة كبرى وكان ظنّك خاطئاً. وتظنّ الآن أنك في خطر عظيم وربما كان ظنك خاطئاً أكثر. فكلنا في هذه الدار، يخاف بعضنا من البعض الآخر. وهذا دليل على أننا كلنا أغبياء.

وبينما هو يتحدث على ذلك النحو إذ به يخلع ملابسه فيرقد فينام. أما معلمه الذي جلس يأكل بدوره قطعة من الخبز الأسود ويشرب شيئاً من النبيذ الرديء، فكان يرهف السمع لما حوله، وينظر إلى جاك وهو نائم يشخر فيقول: "أي شيطان أنسيّ هو هذا الرجل!..." وتمدّد المعلم فوق سريره، على مثال خادمه غير أنه لم ينم مثله. وأحس جاك منذ بزوغ الفجر بيد تهزّه. إنها يد معلمه الذي كان يناديه بصوت خافت.

المعلم– يا جاك، يا جاك!

جاك– ماذا؟

المعلم– طلع النهار.

جاك– هذا ممكن.

المعلم– إذن انهض.

جاك– لماذا؟

المعلم– لنخرج من هنا بأقصى سرعة.

جاك– لماذا؟

المعلم– لأننا في وضع سيء.

جاك– وما أدراك أننا سنكون في وضع أحسن خارجه؟

المعلم– ياجاك؟

جاك– طيّب، يا جاك، يا جاك، أي شيطان أنسيّ أنت؟

المعلم– أيّ شيطان أنسيّ أنت؟ جاك، يا صاحبي، أرجوك.

عرك جاك عينيه وتثاءب مرات عدة وتمطى، ثم نهض فلبس ثيابه من غير استعجال، وأزاح السرير وخرج من الغرفة، فنزل ومضى إلى الإصطبل فأسرج الحصانين وألجمهما، ثم أيقظ صاحب النزل وكان ما يزال نائماً، فسدّد الحساب واحتفظ بمفتاحي الغرفتين. ومضى صاحبانا على الطريق.

كان المعلم راغباً في أن يخب به الجواد مسرعاً، أما جاك فيريد السير العادي وفق نظامه المألوف دائماً. وحين أصبحا على مسافة لا بأس بها من مكان مبيتهما، سمع المعلم صلصلة في جيب جاك فسأله عن فحواها فقال جاك إنهما مفتاحا الغرفتين.

المعلم- ولِمَ لم تردّهما؟

جاك- لأنّه ينبغي خلع بابين اثنين: باب غرفة جيراننا لإخراجهم من سجنهم، وباب غرفتنا لإعطائهم ثيابهم. وسيعطينا ذلك كله مزيداً من الوقت.

المعلم- ذلك حسن جداً، يا جاك. ولكن لماذا نكسب الوقت؟

جاك- لماذا؟ أقسم أني لا أدري.

المعلم- وإذا كنت تريد كسب الوقت فلماذا تسير متمهّلاً على هذا النحو؟

جاك- لأن المرء، في جهله ما هو مكتوب فوق، لا يعود يعرف ما يريد ولا ما يفعل. فيسير وفق رغبته العابرة فيدعوها عقلاً، أو وفق عقله الذي ليس في الغالب سوى رغبة عابرة خطرة تنقلب خيراً حيناً وشراً حيناً آخر. كان رئيسي يعتقد أنّ الحذر فرضية، تجيز لنا الخبرة فيها أن ننظر إلى الظروف التي نجد أنفسنا فيها على أنّها علّة لبعض النتائج التي نأملها أو نخشاها مستقبلاً.

المعلم- وهل كنت تفقه شيئاً من كل ذلك؟

جاك- بالتأكيد، فقد ألفت كلامه بالتدريج. وكان يقول: ولكن من يستطيع أن يتباهى بامتلاك ما يكفي من الخبرة؟ والذي يزهو لأنه مزوّد بها أفضل من

غيره، ألم يقع يوماً ضحية للخديعة؟ أمّا بعد، فهل من إنسان خليق بأن يقدّر الظروف التي تحيط به تقديراً صحيحاً؟ فالحساب الذي يدور داخل أدمغتنا وذاك المقرّر في السجلات فوق، إنما هما حسابان مختلفان جداً. فهل نحن الذين نقود القدر أم أنّ القدر هو الذي يقودنا؟ فكم من المشاريع التي جرى تدبيرها بعناية قد خابت وسوف تخيب! وكم من المشاريع الحمقاء نجحت أو سوف تنجح! ذلك ما كان يردّده رئيسي عليّ من بعد الاستيلاء على كل من بيرغ-أب-زوم[1] وبور-ماهون[2]. ثم يضيف إن الحذر لا يضمن لنا حسن النجاح مطلقاً، لكنه يعزينا ويبرّئنا من الفشل: وعليه فقد كان ينام عشيّة عمل عسكري في خيمته، كما في حاميته، ويتوجّه إلى القتال كأنه ذاهب إلى حفل راقص. وإنك لو رأيته لهتفت :"أي شيطان أنسيّ هو ذلك الرجل!..."

المعلم- هل يسعك أن تقول لي ما المجنون وما العاقل؟

جاك- ولِمَ لا؟... إنّ المجنون...انتظر... إنّه إنسان شقي. وعليه فالإنسان السعيد عاقل.

المعلم- وما الإنسان السعيد أو الشقي؟

جاك- الأمر هنا يسير. الإنسان السعيد هو الذي سعادته مكتوبة فوق. وعليه فالذي شقاؤه مكتوب فوق هو إنسان شقي.

المعلم- ومن الذي كتب فوق كلاً من السعادة والشقاء؟

جاك- ومن الذي صنع الملفّ الكبير وفيه كُتِبَ كل شيء؟ هنالك رئيس، هو صديق لرئيسي، كفيل بدفع دينار ذهبي ليعرف ذلك. أما رئيسي فلن يدفع درهما، وأنا أيضاً. فأي نفع سوف أجنيه من ذلك؟ وهل سأغدو قادراً على تفادي الحفرة التي عليّ أن أقع فيها لتدقّ عنقي؟

---

[1] مدينة هولندية أحتلها الفرنسيون عام 1747. Berg-op-zoom

[2] احتل الفرنسيون بور- ماهون في جزيرة ميوركا (غربي البحر المتوسط) عام 1756، أثناء حرب السبع سنوات بين فرنسا والنمسا وحلفائهما من جهة وإنكلترا وبروسيا من جهة أخرى 1756-1763-م- Port-mahon.

المعلم- أعتقد أن نعم.

جاك- وأنا أعتقد أن لا، فذلك يفرض وجود سطرٍ مغلوط في الملفّ الكبير الذي يحوي الحقيقة، ولا يحوي سوى الحقيقة بل يحوي الحقيقة كلها. قد يكون مكتوباً في الملف الكبير: "جاك سوف تدقّ عنقه في اليوم الفلاني"، وجاك، ألن تُدَقّ عنقه؟ هل ذلك ممكن في تصوّرك، أيّاً كان كاتب الملف الكبير؟

المعلم- يمكن أن تقال أشياء كثيرة في هذا الشأن...

عندما كانا عند هذا الحد من حديثهما، سمعا ضجة وصراخاً من ورائهما. فاستدارا برأسيهما ليريا حشداً من الناس المسلّحين بالعصي والمذاري وهم يجدّون السير في أثرهما. سوف تعتقد أنهم اصحاب النزل والخدم والأشقياء الذين أتينا على ذكرهم. وسوف تظن أنهم خلعوا الباب عليهم في الصباح لفقدان المفتاح وأنّ أولئك اللصوص تخيلوا أن مسافرَيْنا قد وليّا مُدْبرَيْن، حاملَيْن الأسلاب معهما. وقد ظن جاك ذلك فقال مجمجماً: "اللعنة على المفاتيح وعلى الرعبة العابرة أو العقل الذي جعلني آخذها! اللعنة على الحذر! الخ. الخ." سوف تعتقد أن هذا الجيش الصغير سيهجم على جاك ومعلمه. فيكون هناك عمل دام وضرب عصي وإطلاق نار. ليس منوطاً إلاّ بي أنا وقوعُ ذلك كله. ونقول عندها وداعاً للقصة وداعاً لحكاية غراميات جاك. فمسافرانا الاثنان لم يكونا ملاحقين: وأنا أجهل ماذا حصل في النزل أثر رحيلهما. لقد واصلا دربهما وهما يمضيان دوماً من غير أن يعرفا إلى أين هما ذاهبان، ورغم أنهما كانا يعرفان تقريباً إلى أين ينويان الذهاب. دافعين عن نفسيهما الملل والتعب بالصمت أو الكلام مثلما هي حال الذين يمشون، وحال القاعدين أحياناً.

من المسلّم به أني لا أكتب رواية، ما دمت أُهمل ما لا يتوانى الروائي عن استخدامه. أما الذي سيأخذ ما أكتبه على محمل الحقيقة فقد يكون أقل وقوعاً في الخطأ من الذي يأخذه على محمل الخرافة.

كان المعلم هذه المرة هو المبادر إلى الكلام فبدأ بالسؤال المعهود: "طيب، يا جاك، أين قصة غرامياتك؟

جاك- لم أعد أدري أين كنت منها. فقد قوطعت مراراً حتى أني أحسن صنعاً بالعودة إلى البداية.

المعلم- كلا، كلا. ثُبْتَ إلى رشدك من الإغماء لدى باب الكوخ، فلقيت نفسك في سرير، محاطاً بساكني البيت.

جاك- لا بأس. تمثّل الأمر الملحّ في العثور على جرّاح. ولم يكن هنالك من جراح ضمن دائرة تزيد على فرسخ. فأوعز الرجل إلى أحد أولاده فركب فرساً ومضى إلى أقلّ الأمكنة بعداً. في تلك الأثناء قامت المرأة المحسنة بتسخين شيء من النبيذ الكثيف، ومزّقت قميصاً عتيقاً من قمصان زوجها. ووجدت ركبتي تغطّى بالكلمات الحارة ثم تجفّف وتلفّ بالقماش. ووضعوا بضع قطع من السكر، المنتزعة من أفواه النحل، في قليل من النبيذ الذي استخدم لضمادي، فشربته. ونصحوني من بعد أن أتحلّى بالصبر. كانت الساعة متأخرة فجلس أولئك الناس إلى المائدة وتناولوا العشاء. وهاهو العشاء ينتهي من غير أن يعود الصبي ومن غير أن يظهر جراح. واكفهرّ وجه الأب. كان الرجل بطبيعته متعكر المزاج. فاستاء من زوجته ولم يعد من شيء يرضيه. فانتهر ابناءه الباقين وأرسلهم ليناموا. وجلست امرأته على مقعد خشبي ومغزلها بيدها. أما هو فكان يذرع المكان جيئة وذهابا. وكان يسعى في جيئته وذهابه لأن يخاصمها في كل كبيرة وصغيرة. "لو أنك توجّهتِ إلى الطاحون مثلما طلبت إليك..." ثم يختم كلامه بإيماءة من رأسه نحو سريري.

-بوسعنا الذهاب غداً.

-إنما كان عليك أن تذهبي اليوم على نحو ما طلبت إليك...أما بقايا القش التي ما زالت في المستودع، فماذا تنتظرين لرفعها؟

جاك المؤمن بالقدر

-غداً نرفعها.

-ما لدينا من القش يوشك أن ينتهي وكان من الأفضل لو قمت برفعها اليوم، مثلما قلت لك... أما تلك الكومة من الشعير التي بدأتن تتعفن فوق أرض السقيفة فأنا أراهن على أنّك لم تفكري بتحريكها.

-لقد قام الأولاد بتحريكها.

-إنما كان عليك أن تفعلي ذلك بنفسك. لأنك لو كنت تعملين في السقيفة، ما وقفتِ على بابـــ...

ووصل في تلك الأثناء جراح أول ثم ثان، فثالث بصحبة الصبي الصغير، ابن أصحاب الكوخ.

المعلم- هاأنت والجرّاحين مثل سان روك[1] والقبّعات.

جاك- حين وصل الصبي كان الأول غائباً. فسعت زوجته لإحاطة الثاني علماً. أمّا الثالث فقد جاء بصحبة الصبي الصغير. فقال الأول للاثنين الآخرين: "إيه، ستكون العناية ممتازة ، يا شركاء، فهيا بنا"...لقد أظهروا كل همّة ممكنة وكانوا يشعرون بالدفء، وكان بهم ظمأ. فجلسوا حول المائدة التي لم يرفع عنها الغطاء بعد. ودلفت المرأة إلى القبو ثم صعدت ومعها زجاجة. وجمجم الزوج قائلاً بين أسنانه: "ليأخذها الشيطان، فماذا كانت تفعل على بابها؟" وشربوا وتكلموا عن أمراض المقاطعة وتداولوا في تعداد طرق علاجها. وأطلقت شكوى فقالوا: "بعد قليل نفرغ لعلاجك." بعد تلك الزجاجة طلبوا ثانية على أن تحسب ضمن علاجي. ثم ثالثة فرابعة، وأيضاً على حساب علاجي، وكان الزوج يعود لدى كل زجاجة إلى إطلاق تعجّبه الأول هاتفاً: "ألا فليأخذها الشيطان، فماذا كانت تفعل على بابها؟"

يا للنفع الذي يستطيع شخص آخر أن يجنيه من هؤلاء الجراحين الثلاثة، ومن حديثهم بعد الزجاجة الرابعة، ومن تعدّد وصفاتهم المدهشة

(1) ولد في موسليه (1295-1327) كرّس نفسه لمعالجة المصابين بالطاعون. وهو شفيع المصابين بالأمراض السارية. ويظهر في الصور وله ثلاث قبعات. ويضرب به المثل لكل ما يزيد عن الحاجة.

ومن نفاد صبر جاك والمزاج السيئ لصاحب البيت، ومن أقوال نطاسيّي ريفنا البارعين الملتمّين حول ركبة جاك بآرائهم المتنوّعة، فأحدهم كان يرى جاك في عداد الهالكين مالم يقطعوا له ساقه، والآخر يرى ضرورة استخراج الرصاصة ونتفة القماش التي لحقت بها، مع الإبقاء على سلق ذلك المسكين. وكان بوسعنا أن نرى جاك جالساً في سريره، ينظر إلى ساقه مشفقاً، يودّعها الوداع الأخير، على نحو ما رأينا أحد جنرالاتنا بين دوفوار[1] ولويس. أما الجراح الثالث فلبث متردداً إلى أن نشب النزاع فيما بينهما فانتقلا من السّباب إلى العراك بالأيدي.

سوف أوفّر عليك كل هذه الأشياء التي تقع عليها في الروايات وفي الكوميديا القديمة وفي المجتمع. فحين سمعت صاحب البيت يهتف بشأن امرأته: "ألا فليأخذها الشيطان، فماذا كانت تفعل على بابها؟"[1] تذكرت هارباغون موليير، حين يقول على ابنه: "ماذا ذهب يفعل في تلك السفينة؟" وأدركت أن قول الحقيقة وحده لا يكفي، بل ينبغي أيضاً أن يكون طريفاً. وإن ذلك هو السبب الداعي إلى القول أبداً: "ماذا ذهب يفعل في تلك السفينة؟" وإن قول صاحبنا الفلاح: "ماذا كنت تفعل على بابها؟" لن يذهب مثلاً.

لم يتحدث جاك إلى معلّمه بنفس الدرجة من الحيطة التي ألتزم أنا بها في حديثي معك. فهو لم يغفل أيّ تفصيل مخافة أن يحمله على الإغفاء مرة ثانية. وإذا لم يكن الجراح الأكثر مهارة هو الذي ظل مسؤولاً عن المريض، فقد كان الأكثر قوة من بين الثلاثة.

ألن تقول لي سوف تتمادى فتخرج المشارط أمام عينيّ فتُعمل في الجد تقطيعاً، وتجعل الدم يسيل فتريني عملية جراحية؟ أنت ترى أن

[1] وردت في "المراسلات الأدبية" عام 1766 الطرفة التالية: أصيب المركيز دوكاستري بطلق ناري في دراعه فقرر الجراح لويس بتر الدراع. وإن المصاب سيموت قبل 24 ساعة ما لم تجر العملية فوراً. لكن الجراح دوفوار أجرى عملية في الجرح بمهارة نادرة ورفض البتر. وشفي المركيز دوكاستري. وأصيب الجراح لويس بالخيبه.

[1] من مسرحية موليير "مكر سكاپان".

ذلك لا يتوافق والذوق السليم؟... لا بأس، فلنتجاوز العملية الجراحية. لكنك ستسمح لجاك، على الأقل بأن يقول لمعلمه على نحو ما فعل:"ويلي يا سيدي، إنه لأمر رهيب أن يعيد المرء تسوية ركبة مكسّرة!" فيرد عليه معلمه كما في السابق:" ويحك، يا جاك، إنّك لتهزأ..." أما الذي لن أدعك تجهله ولو منحوني ذهب العالم كله، فهو أن المعلم ما كاد يرد على جاك بذلك الجواب الوقح حتى تعثّر جواده فكبا، فمضت ركبته لتقع على حصاة مدبّبة، وهاهو يصرخ بملء فيه: "لقد مُتّ، فركبتي كُسرت!..."

ورغم أن جاك من أطيب طينة إنسانية يمكن تصوّرها، وأن تعلقه بمعلمه في غاية الرقة، فبودي أن أعرف ماذا أحسّ في أعماق قلبه، إن لم يكن في الوهلة الأولى، فعلى الأقل حين اطمأن تماماً إلى أن السقطة لم تخلّف آثاراً مزعجة، وهل استطاع أن يقاوم ومضة خفيفة لفرح خفي بسبب حادث سيعلّم معلمه حقيقة الجرح في الركبة. يبقى شيء أخر بودّي لو تقوله لي، أيها القارئ.أما كان المعلم يفضّل لو أصيب بجرح بليغ أكثر على أن لا يكون في الركبة، أو كان تأثره خجلاً أشدّ منه ألماً؟

حين عاد المعلم من سقطته وغمّه واستقر فوق السرج، وجه خمس أو ست همزات متوالية لجواده الذي انطلق مثل البرق. ومثله فعل حصان جاك فقد كان ما بين المطيتين من الودّ يماثل ما بين الفارسين. لقد كانوا زوجين من الأصدقاء.

عندما استعاد الجوادان المنهكان سيرهما المألوف قال جاك لمعلمه:

"طيب، يا سيدي، ماذا تقول في ذلك؟

المعلم- في ماذا؟

جاك- في الجرح في الركبة.

المعلم-أنا أوافقك الرأي. إنّه من أشدها إيلاماً.

جاك-بالنسبة لركبتك؟

المعلم-كلا، كلا، بل بالنسبة لركبتك أنت وركبتي أنا وكافة الرّكب في العالم.

جاك–يا معلمي، يا معلمي. أنت لم تولِ الأمر اهتماماً كافياً. صدقني أننا لا نرثي البتة إلا لأنفسنا.

المعلم–ياله من جنون!

جاك–إيه لو كنت أجيد الكلام مثلما أجيد التفكير! لكنه كان مكتوباً فوق أن تكون الأشياء في رأسي وأن لا تأتيني الكلمات."

تورّط جاك هنا في بحث غيبي حساس جداً وربما صحيح جداً. فقد سعى لأن يجعل معلمه يدرك أن كلمة الألم بدون تصوّر ذهني، وإنها لا تبدأ بالدلالة على شيء إلا ساعة تستدعي إلى ذاكرتنا إحساساً قد خبرناه. فسأله معلمه إن كان قد خبر الولادة. فأجابه جاك:

- كلا.

- وهل تعتقد أنّ الولادة ألم كبير؟

- بكل تأكيد.

- وهل تشفق على النساء من ألم الولادة؟

- كثيراً.

- إذن أنت تشفق أحياناً على شخص آخر خارج عنك؟

- أشفق على الذين أو اللواتي يتلوّون من الألم والذين يشدّون شعورهم، والذين يطلقون الصراخ، لأنّي أعرف بالتجربة أن المرء لا يفعل ذلك دون معاناة. أما عن الألم الخاص بالمرأة وهي تلد، فلا أرثي لحالها:فأنا لا أعرف حقيقة ذلك، ولله الحمد! لكن إذا عدنا إلى معاناة نعرفها نحن الاثنين، فإن حكاية ركبتي التي أضحت حكاية ركبتك بسبب سقوطك...

المعلم–كلا، يا جاك، بل حكاية غرامياتك التي أضحت غرامياتي بسبب أحزاني الماضية.

جاك-ها قد جرى تضميدي فشعرت بشيء من الراحة، وانصرف الجراح وانسحب مضيفاي فرقدوا. لم يكن يفصل غرفتهما عن غرفتي سوى حاجز من الألواح الخشبية ذات فتحات.

وقد ألصقوا عليها ورقاً رمادي اللون وألصقوا فوق الورق بعض الصور الملونة. ولم أنم، فسمعت المرأة تقول لزوجها: "دعني، فليست بي رغبة في الضحك. رجل تعيس مسكين يلفظ أنفاسه أمام بابنا...

- يا امرأة، سوف تقولين لي ذلك فيما بعد.

- كلا، فذلك لن يكون. إن لم ترتدعْ، أنهض. ألا تعلم أن ذلك لا يروقلي حين أكون مغتمّة؟

- إذا تمنّعت كل هذا التمنّع، كنتِ مغفّلة.

-ليست المسألة مسألة تمنع، وإنما لأنك في بعض الأحيان على قسوة!...ذلك أن... ذلك أن..."

بعد هدأة قصيرة بعض الشيء، استأنف الرجل الكلام فقال: "اسمعيني يا امرأة، سوف تسلّمين الآن بأنك أوقعتِنا بسبب رأفة في غير مقامها، في مأزق يكاد يستحيل علينا الخروج منه. فالسنة قاسية علينا. ولا نكاد نلبي حاجاتنا وحاجات أولادنا إلا بشقّ النفس. فالقمح باهظ الثمن. والنبيذ ينفد. وليت بوسع المرء أن يعثر على عمل. فالأغنياء يقتصدون. والفقراء لا يفعلون شيئاً. وكل يوم عمل تقابله أربعة أيام بطالة. وليس من يسدّد ما عليه من دين. والدائنون على درجة من الفظاظة بسبب القنوط: وهذا هو الوقت الذي اخترته لتؤوي عندنا رجلاً غريباً مجهول الهوية، سوف يمكث بيننا إلى ما شاء الله وشاء الجراح، الذي ليس في عجلة من أمره. فهؤلاء الجراحون يديمون الأمراض على قدر ما يستطيعون. وإذا كان لا يملك فلساً تضاعفت نفقاتنا مرتين بل ثلاث مرات. فهاتي يا امرأة، أخبريني كيف ستتخلّصين من هذا الرجل؟ هيا، يا امرأة، تكلمي، قولي لي أسبابك.

–وهل يسع المرء أن يتوجّه إليك بقول؟

-تقولين إني حاد المزاج وإني أتذمّر. فهل هناك من لا يغضب بسبب ذلك؟ ومن لا يتذمّر؟ كان في القبو عندنا شيء من النبيذ: ويعلم الله ما سيحلّ به! فالجراحون استهلكوا هذا المساء أكثر مما نستهلك نحن وأولادنا طول أسبوع. أما الجراح الذي لا يحضر مجاناً، كما قد تظنين، فمن سيدفع له؟

-أجل، ما تقوله على أحسن ما يرام. وبما أننا نعاني من العوز فأنت تستولدني طفلاً، كأن ليس لدينا ما فيه الكفاية.

-آه، كلا!

-آه، بلى، وأنا واثقة من أني سأحبل!

-ذاك ما تقولينه في كل مرة.

-وذاك ما لم أخطئ به قط حين تبدأ أذني تحكني من بعد، فأنا أحس بحكّة فيها لم يحدث البتة..

-أذنك لا تعرف ما تقوله لك.

-لا تمسّني! دَعْكَ من أذني! قلتُ دعني، يا رجل. هل جننت؟ سوف تمرض.

-كلا، كلا، فلم يقع لي ذلك منذ ليلة عيد سان جان.

-تقوم بذلك على خير وجه حتى... وتعود بعد شهر إلى الحَـرَن مني كأنّ الغلطة غلطتي.

-كلا، كلا.

-وبعد تسعة شهور يصير الوضع أسوأ.

-كلا، كلا.

-إنما أنت أردت ذلك.

-بلى، بلى.

-وسوف تتذكّر؟ ولن تقول مثلما قلت في المرات الأخرى كلها؟

-بلى، بلى..."

وهكذا انتقل الحال، من بعد كلا، كلا، إلى بلى، بلى، بذلك الرجـل الساخط على امرأته لأنها استجابت لإحساس إنساني...

المعلم-تلك هي الفكرة التي مرت بخاطري.

جاك-من المؤكد أن ذلك الزوج لم يكن ثابتاً في مواقفه. لكنـه كـان فتيـاً وامرأته جميلة. والناس لا ينتجون أطفالاً بقدر ما يفعلون في أزمنة البؤس.

المعلم-ليس من يتناسل كالصعاليك.

جاك-إن زيادة طفل لا تشكل عبئاً عليهم، فالصَّدقة هي التي تطعمـهم. كما أنها المتعة الوحيدة التي لا تكلف شيئاً. فيجدون في الليل عزاءهـم، من دون نفقات، بعيداً عن نكبات النهار... غـير أن ملاحظـات ذلـك الرجل كانت على الأقل في مكانها. وفيما كنت أقـول ذلـك لنفسـي، أحسست بوجع عنيف في ركبتي فصرخت: "آخ، يا ركبتـي." وصـاح الرجل: "آه، يا امرأتي" وصاحت المرأة: "آه، يا زوجي! ولكن، ولكـن ماذا عن ذلك الرجل!

-طيّب!ما شأنك بذلك الرجل؟

-قد يكون سمعنا!

-فليسمع.

-لن أجرؤ غداً على النظر إليه.

-ولم؟ ألستِ أنت زوجتي؟ ألستَ أنا زوجك؟ وهل الزوج لديه زوجـة، وهل الزوجة لديها زوج، للاشيء؟

-إيهِ! إيهِ!

-طيّب، ما بها إذنك؟

-الوضع أسوأ من كل مرة.

-نامي، فالمسألة عابرة.

-لا أستطيع. آه، يا أذني!آه، يا أذني.

-يا أذني، يا أذني، ذلك ما يسهل قوله.

ولن أقول لك مطلقاً ما قد جرى بينهما، لكن المرأة، من بعد أن كرّرت القول يا أذني، يا أذني، مرات عديدة متلاحقة بصوت خافت وسريع، انتهت بأن تهمس بمقاطع منفصلة يا...أذ...ني.. وعلى أثر هذه الـ يا ..أذ ..ني...جعلني شيء أجهل كنهه، مع ما تلاه من صمت، أتخيّل أن حكّة أذنها قد هدأت بطريقة أو بأخرى، لا يهم: فذلك جعلني أستمتع. فكيف الحال معها إذن!

المعلم- أطلب إليك يا جاك، أن تقسم بكل صدق وصراحة على أنها ليست تلك المرأة التي وقعتَ في حبها.

جاك-أقسم على ذلك.

المعلم-بئس الحال معك.

جاك-بئس الحال أو نِعْمَ الحال. فأنت تظن على ما يظهر أن النساء اللواتي لديهن أُذُنٌ مثل أذنها يصغين بطيب خاطر؟

المعلم-أعتقد أن ذلك مكتوب فوق.

جاك-أعتقد أنه مكتوب بعده أن يصغين طويلاً للشخص نفسه وأنهن عرضة إلى حد قليل جداً لأن يُصيخْنَ السمع لشخص آخر.

المعلم-ذلك ممكن.

وهاهما يدخلان في نزاع لا أول له ولا آخر حول النساء، فواحد يدّعي أنهن صالحات والآخر أنهنّ طالحات وكان الاثنان على حق. واحد يقول إنهن حمقاوات والآخر يقول إنهن ممتلئات ذكاء، وكان الاثنان على حق. واحد كاذبات وواحد صادقات وكان الاثنان على حق. واحد بخيلات وواحد سخيات وكان الاثنان على حق. واحد جميلات وواحد دميمات الاثنان على حق. واحد مهذارات وواحد كتومات. واحد صريحات وواحد منكمشات. واحد جاهلات وواحد متنوّرات. واحد عاقلات وواحد مارقات واحد مجنونات وواحد رشيدات. واحد طويلات وواحد قصيرات وكان الاثنان على حق.

فيما هما يواصلان هذا النزاع الكفيل بجعلهما يقومان بالدوران حول الكرة الأرضية من غير أن يسكتا لحظة واحدة من غير أن يتفقا، استقبلا بعاصفة أرغمتهما على أن يتوجها...-إلى أين؟- إلى أين؟ أيها القارئ إنك ذو فضول مزعج!فيم يمكن أن يفيدك ذلك؟ إن قلت لك إنهما توجّها إلى بونتواز أوسان جيرمان، إلى نوترادام دولوريت أو سان جاك دوكومبوستيل، فهل توجها نحو... أجل، ولِمَ لا؟... نحو قصر مترامي الأطراف، يقرأ المرء في أعلى واجهته: "لستُ ملكاً لأحد وأنا ملك للجميع. أنت كنتَ هنا من قبل أن تدخل، وسوف تظلّ هنا من بعد أن تخرج[1]."- هل دخلا إلى القصر؟- كلا، فإما أن تكون الكتابة خاطئة أو أنهما كانا فيه من قبل الدخول إليه- لكنهما خرجا منه على أقل تقدير؟- كلا، فإمّا أن تكون الكتابة خاطئة أو أنهما ما زالا فيه من بعد أن خرجا منه.- وماذا فعلا هناك؟- جاك كان يقول ما هو مكتوب فوق، ومعلمه ما كانا يرغبان فيه:وكان الاثنان على حق-وأية رفقة وجدا هناك؟- خليطاً- ماذا كانوا يقولون؟- شيئاً من الحقائق وكثيراً من الأكاذيب- هل كان بينهم رجال فكر؟- وهل يخلو منهم مكان؟ بالإضافة إلى عدد من السؤولين المقيتين الذين يتحاشاهم الناس كما الطاعون. وذلك ما تسبّب في أكبر صدمة لجاك ومعلمه طول فترة تجوالهما هنا...- كانا إذن يتجولان؟- ما كانا يفعلان سوى ذلك حين لا يكونان قاعدَيْن أو راقدَيْن. إن ما تسبب في الصدمة الكبرى لجاك ومعلمه، عثورهما على قرابة عشرين من الناس الخسيسين الذين استولوا على أكثر الشقق الفاخرة، فكان المكان يضيق بهم على نحو شبه دائم. وكانوا يدّعون ضد كل حسٍّ مشترك وضد المعنى الحقيقي للكتابة، إن القصر قد آل إليهم بملكيته الكاملة. والذين وهم يستعينون بعدد من أعوانهم الأجراء، اقنعوا بذلك عدداً كبيراً من أعوانهم الأجراء، المستعدين لقاء قطعة صغيرة من

(1) يرد النص على شكل لغز يقبل شروحاً عدة. ومنهم من رأى فيه رمزاً للارض.

النقود على احتجاز أول من يجرؤ على معارضتهم أو قتله: أما في زمن جاك ومعلمه فكان هنالك من يجرؤ على ذلك أحياناً- وبلا عواقب؟- ذلك يتوقف على الظروف.

سوف تقول إنني ألهو، وإني وقد بتّ لا أدري ماذا أفعل بمسافريّ الاثنين، لجأت إلى المجاز، الذي يلوذ به ذوو الأفكار المجدبة كملجأ أخير. سأضحي في سبيلك بالمجاز وبكل الفوائد التي يمكن أن أجنيها منه. وسوف أوافق على كل ما يروقك شريطة ألا تربكني أبداً بشأن المأوى الأخير الذي قصده جاك ومعلمه. سواء بلغا مدينة كبيرة وناما عند الغانيات. أو ناما عند صديق قديم أحسن وفادتهما. أو التجأا إلى دير رهبان متسولين، حيث لقيا سوء الإقامة وسوء الطعام حباً بالله. أو أنهما استقبلا في دار أحد الوجهاء حيث افتقرا لكل ما هو ضروري، ضمن وسط كل ما فيه بلا طائل. أو أنهما خرجا عند الصباح من نزل كبير، حيث جعلوهما يدفعان غالياً جداً ثمن حساء هزيل قدم إليهما في أطباق من فضّة. وأمضيا ليلتهما في غرفة ستائرها من الدمقس و الدثائر نديّة ومطويّة. أو حظيا بضيافة كاهن قرية يتلاءم لديه الدخل مع الإنفاق، فيستعين بمساهمات حظائر الدواجن لدى أبناء رعيته، لإعداد طبق من العجّة أو الفراريج المقلية. أو أنهما تذوّقا أفخر الخمور وتناولا أطايب الطعام، حتى استوفت التخمة كافة الشروط في دير غني من أديرة البرنارديين. لأنه حتى لو بدا لك ذلك ممكناً أيضاً، فلم يكن جاك من هذا الرأي: ليس في واقع الأمر من شيء ممكن إلا الشيء الذي كان مكتوباً فوق. وأما الشيء الحقيقي، ومن أي مكان راقك أن تخرجهما فتضعهما على الطريق، فهو إنهما ما كادا يقطعان عشرين خطوة حتى قال المعلم، ولكن بعد أن قام كعادته بتناول قبصة من النشوق: "طيب، يا جاك، وماذا عن حكاية غرامياتك؟"

وبدلاً من الرّد، هتف جاك صائحاً: "ألا فليأخذ الشيطان حكاية غراماتي! ألست ترى أني قد تركت...

المعلم–وماذا تركت؟"

وبدلاً من أن يردّ عليه أخذ جاك يقلّب جيوبه كلها ويفتش نفسه دونما طائل. لقد نسي كيس نقود الرحلة تحت مخدته. وما كاد يصرّح بذلك لمعلمه حتى هتف هذا الأخير صائحاً: "ألا فليأخذ الشيطان حكاية غرامياتك! ألست ترى أنّ ساعتي ظلّت معلقة على المدخنة!"

ولم ينتظر جاك الطلب، بل استدار على عقبيه وقفل عائداً بمشيته البطيئة، لأنه لم يكن قط في عجلة من أمره، إلى...–القصر المترامي الأطراف؟– كلا، كلا. فعليك أن تختار من بين كافة الأماكن الممكنة التي قمتُ بتعدادها لك، المكان الذي يتلاءم والظرف الراهن.

غير أن معلمه واصل السير قدماً: لكن ها إن المعلم والخادم افترقا ولست أدري مع من أُفضّل البقاء. إذا شئتَ ملاحقة جاك، فكن على احتراز. فالبحث عن كيس النقود والساعة يمكن أن يغدو طويلاً جداً وشديد التعقيد،حتى ليمرّ وقت طويل قل أن يلتحق مجدداً بمعلمه وهو المؤتمن الوحيد على أسرار عشقه، وعندها نقول الوداع لغراميات جاك. إما إذا تركتَ جاك يجدّ وحده بحثاً عن كيس النقود والساعة وفضّلتَ رفقة معلمه، صرت مهذباً، لكن سينتابك ضيق شديد, فهو ضحل في تفكيره، وإذا ما تفوّه مصادفة بقول معقول كان ذلك بتأثير تذكّر غامض أو نوع من الإلهام. وإذا كان له عينان مثلك ومثلي فإن المرء لا يدري طول الوقت إن كان ينظر بهما. وهو لا يسهر ولا ينام بل يستسلم للعيش: فتلك هي خاصيته الطبيعية. كان الرجل الآلي يواصل السير إلى أمام فيلتفت بين فينة وأخرى ليرى إن كان جاك قد عاد. ويترجّل فيمشي ثم يركب مطيته فيقطع ربع فرسخ ليترجّل ثانية فيجلس على الأرض وزمام جواده في ذراعه فيسند رأسه إلى كفّيه. وحين يتعب من تلك الجلسة ينهض وينظر إلى بعيد عساه يلمح جاك. ليس من جاك. عندئذٍ نفد صبره فقال من غير أن يدري إن كان يتكلم أم لا: "ذلك الجلاد! الكلب! النذل! أين هو؟ ماذا يفعل؟ أيلزم هذا الوقت كله لاسترداد كيس

نقود وساعة؟ سوف أوسعك ضرباً. أجل، هذا أكيد، سوف أوسعك ضرباً. ثم يمد يده ليتناول ساعته من جيب حزامه، حيث لم يعد لها من وجود، فيستولي عليه القنوط، لأنه لا يدري إلام تؤول إليه حاله من غير ساعته ومن غير علبة نشوقه ومن غير جاك:فأولئك هم الأركان الثلاثة لحياته التي يمضيها في تناول النشوق والنظر إلى ساعته وإلقاء الأسئلة على جاك، وذلك ضمن الترتيبات كلها. أما وقد حرم من ساعته فقد تحول إلى علبة نشوقه فصار يفتحها ويغلقها بين دقيقة و أخرى على نحو ما أفعله أنا حين يستبدّ بي الضيق. فما يتبقى من النشوق في علبتي مساء يتناسب طرداً أو عكساً مع ما عرفت في نهاري من تسلية أو عانيت من سأم. أتوسّل إليك أيها القارئ أن تتكيّف مع طريقة الكلام هذه، المقتبسة من الهندسة، لأنّي أجدها معبّرة وإني سأستخدمها غالباً.

طيّب، هل مللت صحبة المعلم. أما وخادمه لمّا يعد إليك فماذا لو مضينا نحن للقائه؟ يا للمسكين جاك! فبينما نحن نتكلم عنه. كان يصيح متألماً: "إذن كان مكتوباً فوق أن يلقي القبض عليَّ كلصٍّ وقاطع طريق حتى أوشكوا أن يودعوني السجن، وأن أتّهم في نفس النهار بأني غرّرت بفتاة!"

بينما كان يقترب متمهلاً... من القصر؟ كلا. من المكان الذي ناما فيه آخر مرة، مرّ به واحد من باعة الخردوات الجوّالين الذين يدعونهم"أبو صرّة" وقال له صائحاً: "سيدي الفارس، معنا ربّاطات ساق، وأحزمة، وشرائط ساعات، وعلب نشوق لذوي الذوق الرفيع، من علامة جاباك الأصلية، مع خواتم، وعلب للساعات. ومعنا ساعة يا سيدي، ساعة، ساعة ذهبية جميلة، منقوشة وذات غطاء مزدوج كأنها جديدة..." فرد عليه جاك قائلاً: "الحق أني أبحث عن ساعة، لكنها ليست ساعتك..." وواصل طريقه متمهّلاً على الدوام. وفيما هو ماض تراءى له أنه شاهد مكتوباً فوق أنّ الساعة التي عرضها عليه هي ساعة معلمه. فرجع أدراجه وقال للبائع: "هات يا صاحبي، أرني ساعتك ذات العلبة الذهبية، فقد مرّ بخاطري أنها قد تلائمني."

فقال أبو صرّة:

- الواقع أن ذلك لن يدهشني، فهي جميلة، بل جميلة جداً، وعلامتها جوليان لوروا. لم أقتنها إلا منذ لحظة. فقد حصلت عليها مقابل قطعة من الخبز الأسود وسوف أرخص ثمنها. فأنا أحبّ الأرباح الصغيرة المتكرّرة. لكننا نمر بمرحلة عصيبة في الوقت الراهن. فمنذ ثلاثة أشهر لم يحالفني مثل هذا الحظ. أما وأنا أراك رجلاً ظريفاً فأفضّل أن تفيد أنت منها دون سواك..."

وفيما كان البائع يتحدث، وضع حقيبته على الأرض ففتحها فأخرج منها الساعة التي تعرّف عليها جاك من فوره، دون أن يندهش. فما كان قط في عجلة من أمره ولا كان يندهش إلا فيما ندر. ونظر إلى الساعة بإمعان وقال في نفسه: "أجل، إنها هي..." وقال للبائع: "أنت على حق، فهي جميلة، بل جميلة جداً، وأنا أعرف أنها ممتازة..." ثم وضعها في جيب حزامه وقال للبائع: "شكراً جزيلاً، يا صاحبي!

-كيف، شكراً جزيلاً!

-أجل، فهذه ساعة معلمي.

-لا أعرف معلّمك مطلقاً، هذه الساعة لي. فقد اشتريتها ودفعت ثمنها..."

وأمسك بجاك من تلابيبه استعداداً لاسترداد الساعة منه. فاقترب جاك من حصانه، فأخذ أحد مسدساته فوضعه مصوّباً في صدر البائع وقال له: "انصرف، أو أنت مقتول." فأرخى البائع سبيله مرتعباً.فركب جاك حصانه وواصل سيره متمهّلاً صوب المدينة وهو يقول في نفسه:"ها قد استردينا الساعة وعلينا الآن أن ننظر في أمر كيس النقود..." وأسرع أبو صرّة إلى إغلاق صندوقه فوضعه على كتفيه وسار وراء جاك وهو يصرخ : "هلموا إلى السارق! إلى السارق! هلمّوا إلى القاتل! النجدة! أنجدوني! أنجدوني!..." كان ذلك في موسم الحصاد،

والحقول ملأى بالعاملين. فوضع الجميع مناجلهم وتجمهروا حول الرجل يسألونه أين السارق وأين القاتل.

"ذلكم هو! ذلكم هو، هناك.

-ماذا؟ ذلك الرجل الذي يسير متمهّلاً نحو باب المدينة؟

-هو عينه.

-انصرف، أنت مجنون. فما تلك المشية بمشية سارق.

-إنه كذلك، إنه كذلك. أؤكد لكم. فقد أخذ مني ساعة ذهبية عنوة..."

ولم يعد أولئك الناس يدرون ماذا يصدّقون، ما بين صراخ البائع ومشية جاك المطمئنة. ثم أضاف البائع: "ولكن يا أولادي، سأصاب بالإفلاس ما لم تعينوني. إنها تساوي ثلاثين ألف ليرة ذهبية عداً ونقداً. ساعدوني فقد أخذ ساعتي، و! هلمّوا إلى القاتل! النجدة! أنجدوني! أنجدوني!..."كان ذلك في موسم الحصاد، والحقول ملأى بالعاملين. فوضع الجميع مناجلهم وتجمهروا حول الرجل يسألونه أين السارق وأين القاتل.

"ذلكم هو! ذلكم هو،هناك.

-ماذا؟ ذلك الرجل الذي يسير متمهّلاً نحو باب المدينة؟

-هو عينه.

-انصرف، أنت مجنون. فما تلك المشية بمشية سارق.

-إنه كذلك، إنه كذلك. أؤكد لكم. فقد أخذ مني ساعة ذهبية عنوة.. "

ولم يعد أولئك الناس يدرون ماذا يصدّقون، ما بين صراخ البائع ومشية جاك المطمئنة. ثم أضاف البائع:" ولكن يا أولادي، سأصاب بالإفلاس ما لم تعينوني. إنها تساوي ثلاثين ليرة ذهبية عداً ونقداً. ساعدوني فقد أخذ ساعتي، وإذا ما همز حصانه ضاعت ساعتي..."

إذا كان جاك على مسافة أبعد من أن يسمع ذلك الصراخ فقد كان يرى تجمهر الناس بكل وضوح من غير أن يدفع به ذلك إلى الإسراع في سيره. واستطاع أبو صرّة أن يعقد عزم الفلاحين على اللحاق بجاك

واعداً إياهم بالمكافأة. وهكذا تجمهر عدد من الرجال والنساء والأطفال ومضوا صائحين: "إلى السارق، إلى السارق، إلى القاتل!" وأبو صرة يتبعهم عن بعد بمقدار ما يسمح به الحمل الذي ينوء تحته، وهو يصيح: "إلى السارق، إلى السارق، إلى القاتل!..."

ودخلوا المدينة، ذلك أن جاك ومعلمه أمضيا الليلة السابقة في مدينة. وهذا ما تذكرته لتوّي. وخرج الناس من بيوتهم فانضموا للفلاحين والبائع ومضوا جميعاً صائحين: "إلى السارق، إلى السارق، إلى القاتل!..." وقد لحق الجميع بجاك في آن واحد. وارتمى أبو صرة عليه، فوجه جاك إليه رفسة رمته أرضاً، لكنها لم تمنعه من أن يصيح به: "أيها النذل، أيها اللص، أيها المجرم، ردّ لي ساعتي، سوف تردّها لي، لكنّك لن تنجو من حبل المشنقة..." وظل جاك رابط الجأش فتوجّه إلى الحشد الذي كان يكبر في كل لحظة وقال: "هنا قائد للشرطة، فخذوني إليه: وهناك سوف أريكم أني لست بسافلٍ قطعاً، بل إن هذا الرجل يمكن أن يكون كذلك. أنا أخذت منه ساعة، ذلكً صحيح. لكن تلك الساعة هي ساعة معلمي. وما أنا بمجهول قط في هذه المدينة: فقد وصلنا إليها أنا ومعلمي مساء الأول من أمس، ونزلنا في دار الفريق، صديقه القديم." إذا كنت لم أذكر لكم من قبل أن جاك ومعلّمه مرا في كونش، وباتا في دار الفريق آمر تلك المنطقة، فلأن ذلك لم يخطر مني على بال."هيا خذوني إلى عند الفريق آمر تلك المنطقة."وما إن قال جاك ذلك حتى ترجل. ثم أضحى في وسط موكب هو وحصانه وأبو صرة. وساروا فوصلوا أمام باب الفريق. فدخل جاك وحصانه وأبو صرة. وكان كل من جاك والبائع ممسكاً بتلابيب صاحبه. وظل الحشد خارجاً.

ماذا كان يفعل معلم جاك في تلك الأثناء؟ لقد انتابه النعاس على حافة الطريق، فرقد وزمام جواده حول ذراعه، وكان الحيوان يرعى العشب حول النائم بقدر ما يسمح به طول الزمام.

ما إن وقعت عين الفريق على جاك حتى هتف صائحاً: "آه، هذا أنت يا صديقي جاك! فما الذي أعادك وحيداً إلى هنا؟

-ساعة معلمي: فقد تركها معلقة عند زاوية المدخنة ووجدتها في صرّة هذا الرجل. وكيس نقودنا وقد نسيته تحت مخدتي، وسوف نعثر عليه إذا أوعزتم بذلك. فأضاف الآمر: "وأن يكون ذلك مكتوباً فوق..."

ثم استدعى خدمه على الفور:وعلى الفور أشار أبو صرة إلى خادم طويل القامة زريّ السحنة، ومن الذين استخدموا حديثاً في الدار، فقال: "ذلكم هو من باعني الساعة."

فاتخذ الآمر هيئة قاسية، وقال للبائع وخادمه: "أنتما الاثنين تستحقان سجن الأشغال الشاقة. أنت لأنك بعت الساعة وأنت لأنك اشتريتها..." وقال لخادمه:"اردد للرجل ماله واخلع ثيابك من فورك..." وقال للبائع: "غادر البلد على الفور، ما لم تكن راغباً في البقاء معلقاً هنا إلى الأبد. فأنتما الاثنين تقومان بعمل مشؤوم... يا جاك، حان الآن أمر كيس نقودك." وتقدمت الخادمة التي أخذت كيس النقود من تلقاء نفسها. إنها فتاة ممشوقة القدر ملفوفة القوام. فقالت لسيدها: "كيس النقود معي أنا، يا سيدي، لكني لم أسرقه مطلقاً: فهو الذي أعطاني إياه.

-أنا أعطيتك كيس نقودي؟

-نعم.

-إن ذلك لممكن. لكن فليأخذني الشيطان إن كنت أذكر ذلك...

فقال الآمر لجاك:

-هيا، يا جاك، فلا حاجة بنا لإيضاح ذلك أكثر.

- يا سيدي...

- إنها جميلة وممتعة على ما أرى.

-سيدي، أقسم لك...

-كم كان في كيس النقود؟

-ما يقرب من تسع مئة وسبع عشرة ليرة.

- إيه، يا جافوت! تسع مئة وسبع عشرة ليرة لقاء ليلة واحدة. ذلك باهظ جداً سواء بالنسبة لك أم له. أعطني كيس النقود..."

أعطت الفتاة الطويلة الكيس لسيدها فأخرج منه قطعة بقيمة ستة فرنكات، وقال لها وهو يرمي بالقطعة إليها: "هاك، فهذه قيمة خدماتك، وأنت تستحقين أكثر، لكن من شخص آخر غير جاك. أتمنى لك أن تحصلي على ضعف هذه القيمة كل يوم، لكن خارج بيتي، أتسمعين؟ أما أنت يا جاك، فهيا إلى حصانك وأسرع بالعودة إلى معلمك."

فحيّا جاك الآمر ومضى من غير أن يجيب، لكنه كان يقول في نفسه: "يا للوقحة، يا للسافلة! كان إذن مكتوباً فوق أن ينام شخص آخر معها، وأن يدفع جاك الأجر!... هيّا، يا جاك، تعزَّ، ألست مغتبطاً جداً باسترجاع نقودك وساعة معلمك، مقابل تلك الكلفة الزهيدة؟"

امتطى جاك حصانه وشق طريقه وسط الحشد الذي تجمع أمام باب الآمر. أما وقد تألم لأن عدداً كبيراً من الناس اعتبروه لصاً، فقد تكلّف إخراج الساعة من جيبه لينظر كم الساعة. ثم همز حصانه الذي لم يكن متعوداً، لكنه انطلق بسرعة أكبر. كانت عادته أن يدعه يمضي على هواه. إذ كان يجد من الضير في إيقافه وهو يخبّ على قدر ما في حثّه على الإسراع وهو يمشي الهوينا. نحن نعتقد أننا نقود القدر. لكنه هو الذي يقودنا دائماً: والقدر بالنسبة لجاك يتمثل في كل ما يمسّه أو يقاربه، حصانه، معلمه، أحد الرهبان، كلب ماء، امرأة، بغل، زاغة. قاده حصانه إذن بأقصى سرعة نحو معلمه الذي أغفى على حافة الطريق، وزمام جواده ملتف حول ذراعه مثلما قلت لكم. آنذاك، كان الجواد مربوطاً بالزمام، لكن حين وصل جاك، كان الزمام في مكانه لكن الجواد لم يكن في طرفه. لقد اقترب أحد اللصوص من النائم على ما يبدو، فقطع الزمام بهدوء ومضى بالحيوان. واستيقظ المعلم على وقع حوافر حصان جاك، فكان أول ما تفوه به: "تعال، تعال، يا سافل! فسوف أُنزل بك..." وشرع يتثاءب بملء فيه. فقال له جاك:

"تثاءب، تثاءب، كما يروقك، يا سيدي، ولكن أين جوادك؟
-جوادي؟
-أجل، جوادك..."
ما إن أدرك المعلم أن جواده قد سرق حتى أخذ يتهيأ لينهال على جاك ضرباً بالزمام، فقال له جاك: "على رسلك ، يا سيدي، فمزاجي اليوم لا يسمح لي بأن استسلم للضرب. سوف أتلقى الضربة الأولى لكني أقسم لك على أني مع الثانية سأهمز حصاني فأنطلق وأدعك هنا..."
وأدى ذلك التهديد إلى هبوط سخط المعلم بشكل مباغت، فقال له بلهجة مُلَطَّفة:
-وساعتي؟
-هاهي.
-وكيس نقودك؟
-ها هو.
-لقد لبثت وقتاً طويلاً.
-ليس طويلاً على ما فعلته. اصغِ جيداً: ذهبت فخضت صراعاً فألّبت كافة الفلاحين وألّبت كافة السكان في المدينة، واعتبروني لصاً وقاطع طريق فاقتادوني إلى القاضي فاستجوبوني مرتين، وكدت أتسبّب بشنق رجلين وجعلت خادماً يطرد من عمله وجعلت خادمة تطرد من عملها، وأقنعوني بأني نمت مع مخلوقة لم أرها قط من قبل. لكني مع ذلك دفعت لها أجرها، ورجعت.
- أما أنا، وفيما كنت أنتظرك...
- فيما كنت تنتظرني كان مكتوباً فوق أن ترقد فتنام وأن يسرقوا لك جوادك. طيب، يا سيدي. فلنكف عن التفكير في ذلك. إنه جواد ضائع وقد يكون مكتوباً فوق أمر العثور عليه.
- يا جوادي! يا جوادي المسكين!
- قد تواصل انتحابك حتى يوم غد من غير أن يقدّم ذلك شيئاً أو يؤخّر.

-ماذا سنفعل؟

-سأردفك إلا إذا كنت تفضل فنخلع أحذيتنا فنربطها على سرج حصاني ونواصل تقدمنا سيراً على الأقدام.

-يا جوادي، يا جوادي المسكين"

وقررا السير على الأقدام، فكان المعلم يهتف بين فينة وأخرى: "يا جوادي، يا جوادي المسكين!" فيم يتولى جاك تفصيل موجز مغامراته بإسهاب. وحين وصل إلى الاتهام الذي وجهته الفتاة إليه، قال له معلمه: "قل الحقيقة، يا جاك، ألم تنم مع تلك الفتاة؟

جاك- كلا، يا سيدي.

المعلم- ودفعت لها أجراً؟

جاك- بالتأكيد!

المعلم- كنتُ مرة في حياتي أكثر تعاسة منك.

جاك- دفعتَ من بعد أن نمت؟

المعلم- أنت قلت.

جاك- ألن تقصّ علي ذلك؟

المعلم- قبل الدخول إلى حكاية غرامياتي، ينبغي الخروج من حكاية غرامياتك أنت. طيب، يا جاك، وغرامياتك التي سأعتبرها الأولى والوحيدة في حياتك، على الرغم من المغامرة مع خادمة الفريق في كونش. لأنك إذا نمت معها فلن تكون عشيقاً لها بسبب ذلك. ففي كل يوم ينامون مع نساء لا يحبّونهن ولا ينامون مع نساء يحبونهن. لكن...

جاك- طيب، لكن!. .ماذا؟

المعلم- جوادي!... جاك، يا صديقي، لا تغضب، ضع نفسك مكان جوادي، وهب أنّي ضيّعتك، وقل لي إن كنت ستودّني أكثر لو سمعتني أهتف: "يا صديقي جاك، يا صديقي المسكين جاك!"

وتبسّم جاك وقال: "كنت على ما أعتقد، عند حديث مضيفي مع زوجته في الليلة التي تلت تضميدي الأول. لقد أخلدتُ إلى شيء من الراحة. أما مضيفي وامرأته فنهضا متأخرين أكثر من المعتاد.

المعلم- أصدق ذلك.

جاك- حين استيقظت أزحتُ الستائر قليلاً فلمحت مضيفي وامرأته والجراح منهمكين في حديث سري قرب النافذة. ولم يصعب علي أن أخمّن ما كان يدور بينهم من بعد ما سمعته أثناء الليل. وسعلت. فقال الجراح للزوج: "إنه مستيقظ. يا اشبيني، انزل إلى القبو، سنشرب كأساً، فمن شأن ذلك جعل اليد أكثر ثباتاً. أقوم بعدئذٍ بنزع الضماد، ثم نتبادل الرأي بشأن ما يتبقى."

وصلت الزجاجة فأُفْرِغت، لأن شرب كأس في لغة الطب يعني على الأقل إفراغ زجاجة، واقترب الجراح من سريري وقال لي: "كيف كانت ليلتك؟

-لا بأس.

-ناولني ذراعك...طيب، طيب... نبضك لا بأس به، والحمى لا وجود لها تقريباً. علينا أن ننظر في أمر هذه الركبة..."وقال لصاحبة البيت التي كانت تقف عند طرف سريري، وراء الستارة: "تعالي، يا اشبينتي فساعدينا..." فنادت المرأة أحد أولادها. "ليس طفلاً ما نحن بحاجة إليه هنا، وإنما أنتِ، فحركة خاطئة قد تكلفنا عمل شهر. اقتربي. "واقتربت المضيفة وهي تغض الطرف." امسكي بهذه الساق, إنها السليمة، وأنا أتكفّل بالأخرى. بهدوء، بهدوء... اقتربي مني، اقتربي أيضاً بعض الشيء... يا صديقي، استدر بجسمك قليلاً صوب اليمين... إلى اليمين، قلت لك، وها قد وصلنا..."

كنت أقبض على الفراش بيديّ الاثنين، وأصرّ بأسناني، والعرق يسيل على وجهي. "يا صديقي، ليس الأمر سهلاً.

-أشعر بذلك.

-أحسنت. يا اشبينتي، دعي الساق وخذي المخدة. قرّبي الكرسي وضعي المخدة فوقه. . هذا كثير... أبعديه قليلاً.. يا صديقي، أعطني يدك وشدّ بقوة. يا اشبيني، اقطعي المعبر وامسكي به من تحت الذراعين...رائع... يا اشبيني ألم يبق من شيء في الزجاجة؟

-كلا.

-تعال خذ مكان زوجتك ولتذهب هي فتحضر زجاجة أخرى... طيب، طيب، املأي الكأس... يا امرأة، دعي زوجك في مكانه وتعالي إلى جانبي..." فدعت المرأة مرة أخرى أحد أولادها." اللعنة على إبليس، قلت لك ذلك من قبل، ليس طفلاً ما نحن بحاجة إليه. اركعي وضعي كفك تحت ربلة الساق... يا إشبينتي، أنتِ ترتجفين كأنك ارتكبتِ معصية . هيا بنا، تشجّعي... ضعي يسراك هناك، تحت أسفل الفخذ، فوق الضماد... حسن جداً!..." جرى قطع الخياطة وحل الأربطة ورفع الضماد وكشف جرحي. كان الجراح يجس من فوق ومن تحت ومن الجانبين، وكلما جسّ مرّة قال: "يا له من جاهل! يا له من حمار! الأحمق! ويتدخل في الجراحة! هل هذه الساق، ساق تستوجب البتر؟ سوف تدوم دوام الأخرى: فأنا أضمن لك ذلك.

-وسوف أشفى؟

-الواقع أني شفيت حالات كثيرة مماثلة.

-وسوف أمشي؟

-سوف تمشي.

-دون أن أعرج؟

-هذه مسألة أخرى. ويحك، يا صديقي، كيف تنظر إلى الأمور! ألم أنقذ لك ساقك؟ أمّا إذا بقيت تعرج فالأمر يسير. هل تحب الرقص؟

-كثيراً.

-إن كنت سنمشي أقل بعض الشيء فسوف ترقص على نحو أفضل .. يا اشبيني، هاتي النبيذ الساخن.. كلا، الآخر أولاً: كأس صغيرة أيضاً وضمادنا سوف يكون في أحسن حال."

وشرب: ثم جيء إليه بالنبيذ الساخن فوضعوا لي كمادات ساخنة ثم أعادوا الضماد ومدّدوني على السرير وحثّوني على النوم، إن كنت أستطيع، وأسدلوا الستائر، وأتوا على الزجاجة، فجيء من القبو بأخرى واستؤنف المؤتمر بين الجراح والمضيف والمضيفة.

المضيف- يا اشبيني، هل سيطول هذا؟

الجراح- سيطول كثيراً.. نخب صحتك يا إشبيني.

المضيف- ولكن كم؟ شهراً؟

الجراح- شهراً! بل قل اثنين وثلاثة وأربعة، فمن يدري؟ فالرّضفة مصابة، وعظم الفخذ و الظنبوب... نخب صحتكِ يا اشبينتي.

المضيف- أربعة أشهر! رحمتك ربي! ولِمَ نستقبله هنا؟ ألا فليأخذها الشيطان، فماذا كانت تفعل على بابها؟

المضيفة-نخب صحتي، لأني أحسنت صنعاً.

المضيفة- يا صديقي، ها قد عدت مجدداً. وليس هذا ما وعدتني به هذه الليلة، لكن صبراً، فسوف تعاود الكرة.

المضيف- ولكن قولي لي، ما نفعل بهذا الرجل؟ ليت مواسم السنة أيضاً لم تكن سيئة!...

المضيفة- إذا شئتَ، أذهبُ إلى عند الكاهن.

المضيف- إذا وطئتِ عتبة داره أوسعتك ضرباً.

الجراح- ولمَ يا إشبيني؟ فزوجتي تذهب إلى هناك بكل راحة.

المضيف- هذا شأنكم.

الجراح- نخب فليونتي، فكيف حالتها؟

المضيفة- في أحسن حال.

الجراح- هيّا، يا اشبيني، نخب زوجتك وزوجتي: فهما امرأتان صالحتان.

المضيف– زوجتك أكثر حصافة، فما كان لها أن ترتكب مثل هذه الحماقة...

المضيفة– لكن، يا اشبيني، هناك الراهبات الرماديات.

الجراح– ويلي، يا اشبينتي، رجل، رجل عند الراهبات الرماديات! أضيفي أن هناك صعوبة صغيرة هي أكبر بقليل من حجم الاصبع... فلنشرب نخب الراهبات، إنهن فتيات صالحات.

المضيفة– وأية صعوبة؟

الجراح– زوجك لا يريد أن تذهبي إلى عند الكاهن وزوجتي لا تريد أن أذهب إلى عند الراهبات...ولكن، يا اشبيني، لنشرب كأساً أيضاً،فقد يكون من شأنه إصلاح رأينا. هل استجوبتم هذا الرجل؟ قد لا يكون بلا موارد.

المضيف– إنه جندي!

الجراح– الجندي له أب وأم وأخوة وأخوات وأقرباء وأصدقاء، له شخص ما تحت السماء... فلنشرب كأساً أيضاً ثم ابتعدوا ودعوني وعملي.

كان ذلك هو الحديث الذي دار بين الجراح والمضيف والمضيفة بحذافيره: ولكن أي لون مغاير كنت سأسبغه عليه، فيما لو شئت، عن طريق إدخال شخص أثيم بين هؤلاء الناس الطيبين؟ كان جاك سيرى نفسه، بل أنتم كنتم سترونه يُقتلع من سريره ليُرْمى به على قارعة الطريق أو في بركة موحلة.

–ولِمَ لا نراه مقتولاً؟–مقتولاً. كلا. كنت سأستدعي أحداً لنجدته. وسوف يكون ذلك الواحد جندياً من سريّته: لكن ذلك ستفوح منه رائحة كليفلاند[1] تزكم الأنوف. الحقيقة، الحقيقة! ستقولون لي إن الحقيقة باردة في الغالب وعاميّة وباهتة! فحكايتك الأخيرة مثلاً عن ضماد جاك حقيقية، لكن أيّ تشويق فيها؟– لاشيء– اتفقنا– إذا كان على المرء أن

[1] رواية للأب بريفو، عنوانها الكامل:"قصة السيد كليفلاند، ابن كرومويل الطبيعي."

يكتب الحقيقة فعليه أن يفعل مثل موليير ورينيار وريكاردسون وسودين[1]. والحقيقة ذات جوانب شائكة يمسك بها المرء حين يمتلك العبقرية.- أجل، حين يمتلك المرء العبقرية، ولكن ماذا حين يفتقر إليها؟

-حين يفتقر إليها لا ينبغي أن يكتب.

-وإذا شاء سوء طالعه أن يكون شبيهاً بشاعر ما أرسلته إلى بونديشيري[2].

-ما حقيقة ذلك الشاعر؟ -ذلك شاعر...

ولكن إذا ما قطعتَ عليَّ كلامي، أيها القارئ، أو قمت أنا بقطع الكلام على نفسي لدى كل شاردة وواردة فما سيحل بغراميات جاك؟ اسمع قولي ولندع الشاعر هنا... ابتعد المضيف والمضيفة...-كلا، كلا، بل حكاية شاعر بونديشيري- فاقترب الجراح من سرير جاك...-بل حكاية شاعر بونديشيري، حكاية شاعر بونديشيري-ذات يوم جاءني شاعر شاب، على نحو ما يأتيني كل يوم... ولكن، أيها القارئ، ما علاقة ذلك برحلة جاك المؤمن بالقدر ومعلمه؟... -حكاية شاعر بونديشيري- بعد المدائح المعهودة لفطنتي وعبقريتي وذوقي وحسن صنيعي، وأقوال أخرى لم أصدّق منها كلمة واحدة، رغم أنهم يردّدونها على مسامعي منذ نيف وعشرين عاماً، وربما بحسن نيّة، أخرج الشاعر الشاب ورقة من جيبه وقال لي: هذه أشعار- أشعار ! -أجل يا سيدي، وآمل أن تتفضّل بإبداء رأيك فيها - تحب الحقيقة؟ -أجل يا سيدي، وأنا أطلبها إليك- سوف تعرفها- ماذا ! وهل أنت على درجة من الغباء تجعلك تصدق أن شاعراً جاء إليك بحثاً عن الحقيقة؟ -أجل- ولكي تقولها له؟ - بكل تأكيد!

-ودون مواربة؟- لا ريب في ذلك: فالمواربة المتكلّفة ليست سوى إهانة سمجة. وإذا ما فُسّرت بأمانة عَنَتْ: أنت شاعر سيّئ، أما وأني لا أعتقد

---

[1] مسرحيون أو راوئيون.

[1] تاجر وشاعر اسمه فيبيه ورد ذكره في المراسلات الأدبية عام 1763.

أنك على قوة تؤهلك لسماع الحقيقة، فلست أيضاً سوى رجل عادم الأهمية – وهل لاعمتك الصراحة على نحو دائم؟ –على نحو دائم تقريباً... قرأت شعر صديقي الشاعر الشاب وقلت له: شعرك ليس رديئاً فقط، بل ثبت لدي أنك لن تنظم شعراً جيداً أبداً.

–عليّ إذن أن أنظم الشعر الرديء لأنني لا أقوى على التوقّف عن ذلك– ألا أنّها لأدهى مصيبة. فهل تتصوّر يا سيد، إلى أيّ درك سوف تنحدر؟ فلا الآلهة تهاونت، ولا الناس ولا الأعمدة مع رداءة الشعراء: وإن هوراس قد قال ذلك[1]– هذا ما أعرفه.

–هل أنت غني؟ –كلا– هل أنت فقير؟ فقير جداً – وسوف تقرن إلى الفقر الهزء بك كشاعر رديء. سوف تبدّد حياتك كلها فتصير عجوزاً. عجوز وفقير وشاعر رديء! ويلك أيها السيد على هذا الدور– إنني مدرك ذلك، لكنني مدفوع رغماً عني...(كان جاك سيقول هنا: لكن ذلك كان مكتوباً فوق.)– هل لك أقارب؟ –لي أقارب–كيف هي أحوالهم؟– إنهم صاغة.–هل يسعهم أن يقدموا لك شيئاً؟– ربما– طيّب، اقصد أقرباءك واعرض عليهم أن يقرضوك شيئاً من المجوهرات الرخيصة. ثم أبحر إلى بونديشيري. سوف تنظم ما شئت من رديء الشعر أثناء الطريق.وحين تصل تحقّق ثروة. أما وثروتك مضمونة فسوف ترجع إلى هنا لتنظم ما طاب لك من رديء الشعر،لكن حذار أن تعمل على طباعته حتى لا تتسبّب في إفلاس أحد... مضى ما يقرب من اثني عشر عاماً على تقديمي النصح لذلك الشاب، حين رأيته يظهر أمامي، فأنكرته. فقال لي: أنا من أرسلته يا سيدي إلى بونديشيري. ذهبت إلى هنالك فجنيت ثروة تقارب مئة ألف فرنك. ورجعت فاستأنفت نظم الشعر وها أنا آتيك ببعض منه... فهل هو رديء على الدوام؟– على الدوام، لكن حياتك استقرت، فأنا موافق على أن تواصل نظم شعرك الرديء– ذلك ما أنوي القيام به...

أما وقد اقترب الجراح من سرير جاك، فلم يدع له هذا الأخير

[1]يذكّر هذا بأعمدة الإعلانات القائمة في روما منذ القرن الأول ب.م

الوقت للكلام. فبادره قائلاً: سمعت كل شيء...ثم التفت صوب معلمه فأضاف... كان سيضيف حين أسكته معلمه. لقد تعب من المشي فجلس على حافة الطريق والتفت صوب مسافر مقبل صوبهما يمشي على قدميه ويجر حصانه وراءه، وقد لفّ الرسن على ذراعه.

سوف تظن أيها القارئ أن ذلك الحصان هو المسروق من معلم جاك غير أنك على خطأ. لأن مثل ذلك يقع في إحدى الروايات، متقدماً أو متأخراً بعض الشيء على هذا النحو أو ذاك، لكن هذه ليست رواية. سبق أن قلت لك ذلك على ما أعتقد وها أنا أكرر عليك القول أيضاً. قال المعلم لجاك:

-هل ترى ذلك الرجل المقبل علينا؟

جاك -أراه.

المعلم-حصانه يبدو لي حسناً.

جاك- خدمت في سلاح المشاة فلا أفقه من شيء هنا.

المعلم- أنا خدمت في سلاح الخيالة. فهذا شأني.

جاك- وبعد؟

المعلم- وبعد؟ أودّ أن تذهب فتعرض على هذا الرجل أن يتخلى لنا عن حصانه فننقده الثمن فوراً.

جاك-ذلك تصرف أحمق، غير أني ذاهب. فكم تريد أن تدفع فيه؟

المعلم- حتى مئة إيكو...

توجه جاك لملاقاة المسافر بعد أن أوصى معلّمه بألا يستسلم للرقاد. فعرض عليه شراء الحصان فأنقده ثمنه وجرّه. قال له معلمه:"طيب، يا جاك، إذا كنت تهجس بتوقّعاتك فأنا أيضاً أهجس بتوقّعاتي. هذا الحصان جميل. وصاحبه أقسم لك على أن لا عيب فيه. أما بشأن الخيول فكل الناس في الواقع يدلّسون.

جاك- لكن أينْ مجالٍ لا يستخدمون فيه التدليس والغش؟

المعلم- سوف تركبه أنت وتتخلّى لي عن حصانك.

جاك- لا بأس.

وها هما معاً راكبان فيما جاك يضيف قائلاً:

"حين غادرت المنزل، قام أبي وأمي وعرّابي فمنحوني جميعاً شيئاً مما لديهم، وكل واحد على قدر طاقته البسيطة. وكنت قد وضعت جانباً خمس لويسات ذهبية، منحني إياها أخي البكر جان حين سافر في رحلته المشؤومة إلى ليشبونة."

وهنا أجهش جاك بالبكاء فيما معلمه يكرّر على مسامعه إن ذلك كان مكتوباً فوق.

جاك- صحيح يا سيدي. وقد قلت ذلك في نفسي مئات المرات. ورغم كل هذا فلا يسعني أن أمنع نفسي من البكاء..."

وها هو جاك ينوح ويبكي أكثر فأكثر. ومعلّمه يتناول قبصة من النشوق، وينظر في ساعته ليرى كم الوقت. وبعد أن قبض جاك على رسن الحصان بأسنانه ليمسح عينيه بكفّيه، تابع قائلاً؟

صنعت من لويسات جان الخمس ومن جعالة تطويعي ومن هبات والدي والأصدقاء، كيس نقود،ما استخرجت منه دانقاً واحداً بعد. فوجدت أنّ هذا المال المخبوء جاء في محلّه. فما رأيك بذلك، يا معلمي؟

المعلم- يستحيل عليك البقاء فترة أطول في ذلك الكوخ.

جاك- حتى وأنا أدفع أجراً.

المعلم- ولكن إلامَ سعى أخوك جان من وراء ذهابه إلى ليشبونة؟

جاك- يتراءى لي أنك أخذت على عاتقك أن تضلّلني. فمع أسئلتك سوف ندور حول العالم قبل أن نبلغ نهاية غرامياتي.

المعلم- ما الهمّ ما دمت أنت تتكلم وأنا أصغي؟ أليست هاتان هما النقطتين الهامتين؟ فأنت تلومني في حين أن عليك أن تشكرني.

جاك- توجّه أخي إلى ليشونة بحثاً عن الراحة. كان أخي جان فتى نبيهاً: وذلك ما تسبّب في شقائه. فكان من الأفضل له لو كان أحمق مثلي. لكن ذلك مكتوب فوق. كان مكتوباً أن الراهب المولج بجمع

التبرعات للرهبان الكرمليين، والذي قدم إلى قريتنا ليطلب شيئاً من البيض والصوف والكتان والفواكه والنبيذ من كل بيت، سيأوي إلى بيت أبي فيُغوي جان، أخي. وأن أخي جان سيرتدي ثوب الرهينة.

المعلم- أخوك حان، كان كرملياً؟

جاك- أجل، يا سيدي، كرملياً حافي القدمين[1]. كان نشيطاً فطناً ماحكاً، كان المحامي الذي تستشيره القرية كلها. إذ كان يجيد القراءة والكتابة ويعكف منذ صغره على مخطوطات قديمة يفكّ رموزها وينسخها. وتدرّج في كافة مراتب سلك الرهبنة فعمل على التوالي بواباً وخازناً للخمور وبستانياً، ثم قندلفت فمساعد وكيل فخازناً. وكان مؤهلاً، وفق نمط حياته أن يؤمّن الثروة لنا جميعاً. ولقد زوّج[2]، بل زوّج زواجاً ناجحاً جداً، اثنتين من شقيقاتنا وبضع فتيات أخر من القرية. وما كان يمضي في الشوارع من غير أن يهرع إليه الآباء والأمهات والأولاد هاتفين: "نهارك سعيد، أيها الأخ جان. كيف حالك أيها الأخ جان؟" وكان من الثابت أنه حين يدخل أحد البيوت، تدخل بركة السماء إليه بصحبته. وإذا كانت هنالك فتاة فسوف تتزوج بعد زيارته بشهرين. يا للأخ جان من مسكين! لقد قضى عليه الطموح. فوكيل الدير الذي عين مساعداً له، كان عجوزاً. فقال الرهبان إنه خطط لمشروع خلافته بعد موته، وإنه في سبيل ذلك، أحدث انقلاباً في مستودع الوثائق والقوانين، فأحرق كافة السجلات القديمة وجاء بسجلات جديدة، على نحوٍ يستحيل معه على الشيطان نفسه أن يرى شيئاً في مستندات الجماعة بعد وفاة الوكيل العجوز. هل يحتاج أحد لوثيقة ما؟ ينبغي هدر شهر كامل للبحث عنها، وكانوا غالباً لا يعثرون عليها. وكان أن كشف الآباء مكيدة الأخ جان والقصد منها : فقدّروا خطورة المسألة حقّ قدرها، وبدل أن يغدو

[1] كان قسم أعضاء الرهبانية يمضون حفاة

[2] يجدب انتباه القارئ إلى أن مفهوم الزواج الناجح في فرنسا، ومعظم أوربا آنذاك، يعني أن يدفع الأهل لابنتهم بائنة كبيرة عند رواجها. المترجم.

الأخ جان وكيلاً كما أمّل نفسه، أُنْزِلَت رتبته ليقتصر طعامه علـــى الخــبز والماء وعوقب بتسليم مفتاح السجلات لشخص آخر. إن الرهبان لا يعرفون الرحمة. فبعد أن حصلوا من الأخ جان على كافة الإيضاحات التي كـــانوا بحاجة إليها، جعلوه حمّال فحم في المختبر حيث يقطرون الكحول الكرملـي. إن الأخ جان الذي كان خازن الرهبانية ومعاون الوكيل قد أضحى فحّامــاً! كان الأخ جان أبيّ النفس، فلم يقوَ على تحمّل تلك السقطة التي نـــالت مــن شأنه وعزّه، فلبث يتحيّن الفرصة للإفلات من تلك المهانة.

وكان أن وصل آنذاك إلى الدير نفسه كاهن شـــاب أعتُـبر معجــزة الرهبنة في نظر المحكمة وفي المنبر، ويدعى الأب أنـــج. كـــان مليـــح الوجه، ذا عينين جميلتين وأطراف متناسقة تغري المثّالين. وها قد شـــرع يلقي المواعظ ثم يعظ أيضاً، ويجلس في كرسي الاعتراف مصغيـــاً ثـم يصغي أيضاً. وكان أن وجد المدراء القدامى أنفسهم وقد انفضّت مريداتهم الورعات من حولهم،ثم ها هنّ الورعات يتعلّقن بالأب أنج. وها هي دكان الأب أنج محاطة، عشية أيام الآحاد والأعياد الكبرى، بالتائبين والتائبـــات من كل جانب، فيما قعد الكهنة المسنّون في دكاكينهم المقفرة ينتظرون من غير طائل، مما تسبّب لهم بكثير من الغمّ... لكن، يا معلمـــي، مـــاذا لـــو تركت هنا حكاية الأخ جان لأستأنف حكاية غرامياتي، فقد يغدو الوضـــع أكثر بهجة.

المعلم– كلا، كلا، فلنأخذ قبصة من النشوق، ولننظـــر كـــم الســـاعة ثـــم تواصل...

جاك– رضيت، ما دامت مشيئتك..."

غير أن حصان جاك كان له رأي آخر، فقد عضّ بغتة على لجامـــه واندفع يخبّ في أرض موحلة. وعبثاً حاول جاك أن يكبح من جماحـــه بشدّ ساقيه عليه أو شدّ رسنه، لكن الحيوان واصل انطلاقته بعنـــاد فـــي

وسط الأرض الموحلة فشرع يرتقي بأقصى السرعة تلة هنـــاك،حيــث توقّف على نحو مباغت، فأدار جاك نظره فيما حوله ليجد نفســـه بيــن منصات مشانق منصوبة هنالك.

لو كان غيري، أيها القارئ، لما تواني عن تزويـــد تلـــك المشـــانق بضحاياها وهيّأ أمام جاك استكشافاً محزناً. ولو قلت لك ذلـــك، لكـــان محتملاً أن تصدقني، لأن من المصادفات ما هو أكـــثر غرابـــة، لكـــن الواقعة لن تكون حقيقية أكثر. فتلك المشانق كانت خالية.

وترك جاك حصانه يلتقط أنفاسه، فسلك بنفسه الطريق فـــهبط التلـــة وسار في الأرض الموحلة حتى أعاد جاك إلى جوار معلمه الذي قال لـــه: "آه، يا صاح، كم أخفتني! لقد حسبتك في عداد الهالكين... غير أنك تحلـم. فيمَ تحلم؟

جاك- بما لقيته وأنا فوق.

المعلم- وماذا لقيت؟

جاك- منصّات إعدام، أعواد مشانق.

المعلم- يا للشيطان! إن ذلك لطالع شؤم. لكن تذكّر نظريتك. إن كـــان ذلك مكتوباً فوق، فعبثاً تسعى، يا صديقي العزيز، سوف تُشنَق! وإذا لـــم يكن ذلك مكتوباً فوق، فالحصان قد كذب. وإذا لم يكـــن هـــذا الحيـــوان ملهماً، فهو عرضة للنزوات. وعليك أن تحترس منه..."

بعد فترة من الصمت فرك جاك جبينه وهزّ أذنيه، مثلما يفعل المـــرء وهو يسعى لاستبعاد فكرة تقضّ مضجعه، واستأنف على نحـــو مبـــاغت يقول:

"اجتمع أولئك الرهبان المسنّون للتشاور فيمـــا بينـــهم، فقـــرروا أن يتخلصوا من لحية صغيرة قلّلت من شأنهم، مهما كلفهم ذلك مـــن ثمـــن

ومهما تكن الوسيلة. فهل تدري ما الذي فعلوه؟... أنت، يا معلمي، لا تصغي إليّ.

المعلم- أنا أصغي إليك، أنا أصغي إليك: تابع.

جاك- كسبوا البوّاب إلى جانبهم، وهو عجوز لئيم مثلهم. فاتّهم ذلك العجوز اللئيم الكاهن الشاب، بأنه سلك سلوكاً خلاعياً مع واحدة ورعة من بنات رعيته داخل ردهة الكنيسة، وأكد وهو يقسم اليمين، على أنه رآه بعينه. قد يكون ذلك صحيحاً وقد يكون افتراء:فما يدرينا؟ أما الطريف في الأمر، فكان في اليوم التالي لتلك التهمة، حين استدعت المحكمة رئيس الدير باسم أحد الأطباء، ليسدّد ثمن الأدوية التي وصفت، وأصناف العلاج التي قُدّمت لذلك البوّاب الفاسق نفسه أثناء إصابته بمرض ناجم عن علاقة غرامية... يا معلمي، أنت لا تصغي إليّ، وأنا أعرف ما يشتّت ذهنك، فأراهن على أنها أعواد تلك المشانق.

المعلم- لا يسعني أن أناقضك.

جاك- وأنا أباغت نظراتك المسلطة على وجهي. فهل ترى فيّ سحنة شؤم؟

المعلم- كلا، كلا.

جاك- ذلك يعني أجل، أجل.لا بأس! إن كنتُ أتسبّب لك بالخوف، فليس لنا إلا أن نفترق.

المعلم- لكن ويحك، يا جاك، فأنت تفقد صوابك. ألست واثقاً من نفسك؟

جاك- كلا، يا سيدي. ومن هو الواثق من نفسه؟

المعلم- كل رجل صالح. ألا يحسّ جاك، جاك الرجل النزيه، ألا يحسّ في داخله بالهول من الجريمة؟... هلمّ، يا جاك، دعنا من هذا الخلاف واستأنف حكايتك.

جاك- كان من شأن ذلك الافتراء أو النميمة من جانب البواب، أن حسبوا أنفسهم مخوّلين بحبك أخطر المؤامرات وتوجيه كافة أشكال الأذيّة نحو ذلك الأب المسكين أنج، الذي بدا على وشك أن يصاب بخلل في عقله. فاستدعوا حينئذٍ أحد الأطباء ورشوْه فشهد أن ذلك الكاهن

معتوه، وأنه بحاجة لأن يعود إلى مسقط رأسه. لو كان الأمر مقتصراً على إبعاد الأب أنج أو حبسه لكان أمراً مفعولاً. لكن كان من بين الورعات اللواتي شغفن به، سيدات جليلات، ولا بد من مداراتهنّ. فشرعوا يحدّثونهنّ عن مرشدهنّ بشفقة ماكرة:"واأسفاه؟" يا للأب المسكين، يا للخسارة! كان نسر طائفتنا- ولكن ما الذي أصابه؟" فلا يكون الجواب على هذا التساؤل سوى إطلاق زفرة عميقة ورفع الناظريْن نحو السماء. وإذا جرى إلحاح فبتنكيس الرأس والتزام الصمت. وفي بعض الأحيان كانوا يُتبعون هذه التمثيلية الخرقاء بقولهم: "يا الله! الطف بنا!... تأتيه سويعات مدهشة... ومضات عبقرية... قد يعود، غير أن الأمل ضئيل.. يا لها من خسارة للدين!..."وتضاعفت في تلك الأثناء الطرائق الشريرة. ولم يوفروا شيئاً في سبيل الوصول بالأب أنج إلى المرحلة التي وصف فيها.وكادوا يبلغونها لولا أن أخذت الأخ جان به الرأفة. فماذا أقول لك أكثر من ذلك؟ كنا ذات ليلة جميعاً نياماً، حين سمعنا طرقاً على بابنا فنهضنا. وفتحنا للأب أنج وأخي متنكّرين. فأمضيا النهار التالي في المنزل. وانطلقا مع فجر اليوم الذي تلاه. لقد سافرا وهما في أفضل تجهيز، لأن جان قال لي وهو يعانقني: "لقد زوجت شقيقاتك. ولو أني مكثت في الدير عامين آخرين، كما كنت أنوي، لصرتَ واحداً من أعظم مزارعي المقاطعة، لكن، كل شيء تغيّر، وهاك ما أستطيع تقديمه لك. فوداعاً يا جاك، وإذا ما ابتسم لنا الحظ، أنا والأب، فسوف يبلغك ذلك..." ثم أسقط في يدي اللويسات الخمس التي كلمتك عنها، مع خمس غيرها لآخر فتيات القرية، التي زوّجها فأنجبت لتوّها صبياً سميناً يشبه الأخ جان مثلما تتشابه قطرتان من الماء.

المعلم *(وعلبة النشوق مفتوحة بعد أن أعيدت الساعة إلى مكانها)*. - وماذا ذهبا ليفعلا في ليشبونة؟

جاك - سعياً وراء هزّة أرضية[1]، ما كان لها أن تحدث من دونهما،

(1)- وقع زلزال ليشبونة في مطلع تشرين الثاني 1755 فدمّر القسم الأكبر من المدينة.

لينتهيا مسحوقَيْن مطمورَيْن محروقَيْن، مثلما كان مكتوباً فوق.
المعلم- آه من الرهبان! آه من الرهبان!
جاك- الأفضل من بينهم لا يساوي شروى نقير.
المعلم- أعرف ذلك خيراً منك.
جاك- وهل عانيت شيئاً على أيديهم؟
المعلم- سأقول لك ذلك في مرة قادمة.
جاك- ولكن لم هم على تلك الدرجة من السوء؟
المعلم- ذلك، على ما أعتقد، لأنّهم رهبان... أما بعد فلنعد إلى غرامياتك.
جاك- كلا، يا سيدي، ليس لنا أن نعود إليها.
المعلم- ألستَ راغباً في أن أعرفها؟
جاك- أريد ذلك على الدوام. لكن القدر، من جانبه، لا يريد ذلك. ألا ترى أني ما أكاد أفتح فمي، حتى يتدخل الشيطان في الأمر، ويطرأ على الدوام طارئ ما فيقطع عليّ كلامي؟ أقول لك إني لن أنهيها، فذلك مكتوب فوق.
المعلم- حاول، يا صاحبي.
جاك- أما لو بدأتَ أنتَ قصة غرامياتك، فقد يؤدي ذلك إلى تحطيم السحر، لتسير من بعدها قصة غراميّاتي على نحو أفضل. ففي رأسي ما يقول إن هذه متوقفة على تلك. ثم هاك، يا سيدي، فأحياناً يتراءى لي أن القدر يكلمني.
المعلم- وتجد نفسك على الدوام مستعداً للإصغاء إليه؟
جاك- بكل تأكيد، ودليلي يوم قال لي إن ساعتك كانت على ظهر البائع الجوّال. "

شرع المعلم يتثاءب. وكان وهو تثاءب يضرب بيده على علبة نشوقه، وكان وهو يضرب بيده على علبة نشوقه ينظر إلى بعيد، وفيما هو ينظر إلى بعيد قال لجاك: "ألست ترى من شيء إلى يسارك؟

جاك- بلى، وأراهن على أن هذا الشيء لا يريد أن أواصل قصتي ولا أن تبدأ أنت قصتك. ."

كان جاك على صواب. أما والشيء الذي يريانه كان مقبلاً عليهما وإنهما ماضيان إليه، فإن المسيرين في اتجاهين مختلفين قصّرا المسافة. فلاحظا بعد قليل عربة مجلّلة بالسواد، تجرّها أربعة جياد سوداء، تلفّها أغطية سوداء تغلّف رؤوسها وتنسدل حتى حوافرها. ويقف في الخلف خادمان بثياب سوداء، ويأتي من بعدهما آخران يتّشحان بالسواد وكل منهما على جواد أسود مجلّل بالسواد. وجلس على مقعد العربة حوذي أسود، يعتمر قبعة متهدّلة، محاطة بسجف طويل ينسدل على كتفه اليسرى. وكان ذلك الحوذي يميل برأسه مرخياً الأعنة، فلا يقود خيوله على قدر ما كانت هي تقوده. وها قد وصل صديقانا المسافران لمحاذاة تلك العربة الجنائزية. وعلى الفور أطلق جاك صرخة وهوى عن جواده بدلاً من الترجّل عنه، وشرع يشد شعره ويتقلب على الأرض صارخاً: "رئيسي! رئيسي المسكين! إنه هو، ما في ذلك ريب، فتلك هي أسلحته..." كان في واقع الأمر، داخل العربة، تابوت طويل تحت وشاح جنائزي، وفوق الوشاح الجنائزي سيف وشريطة. وجلس بجوار التابوت كاهن، يمسك بسواعيته ويرتل الصلوات برتابة. واصلت العربة سيرها وجاك يتبعها نائحاً، والمعلم يتبع جاك شاتماً، والخدم يؤكّدون لجاك أن الجنازة لرئيسه، الذي توفي في المدينة المجاورة وأنهم ينقلونه إلى مقبرة أجداده. فمنذ أن حُرِم ذلك العسكري، بسبب موت عسكري آخر، هو صديقه ورئيس في الفوج نفسه، من متعة المبارزة مرة واحدة في الأسبوع على أقل تقدير، أصيب بحالة من الاكتئاب، انتهت بموته بعد بضعة شهور. وبعد أن سدد جاك ما عليه حيال رئيسه من إطراء وأسف ودموع، قدم اعتذاره لمعلمه وركب حصانه ومضيا بصمت.

ولكن، ستقول لي أيها القارئ، حباً بالله، إلى أين هما ذاهبان؟ .. ولكن، سأجيبك أيها القارئ، حباً بالله، هل يعرف المرء إلى أين هو ذاهب؟ فأنت، إلى أين أنت ذاهب؟ وهل ينبغي أن أذكّرك بمغامرة إيسوب[1]؟ فقد قال له سيّده كزانتيبوس في إحدى أماسي الصيف أو الشتاء، لأن الإغريق كانوا يستحمّون في كافة الفصول: "اذهب يا إيسوب إلى الحمّام، فإذا كان هنالك جمع قليل من الناس، مضينا لنستحم. " وذهب إيسوب. فصادف في طريقه دوريّة من جند أثينا. "إلى أين أنت ذاهب؟ فأجاب إيسوب: إلى أين أنا ذاهب؟ لست أدري–لست تدري؟ هيّا إلى السجن. فأضاف إيسوب يقول: ألم أقل لكم إني لست أدري إلى أين أنا ذاهب؟ كنت أريد الذهاب إلى الحمام، وها أنا ذاهب إلى السجن.. " كان جاك يتبع معلمه مثلما جاك يتبعه– ولكن من هو معلّم جاك؟ –طيب، هل ينقص المرء من معلم في هذا العالم؟ فقد كان لدى معلم جاك مئة مقابل واحد، مثلك أنت، لكن كان ينبغي ألا يكون بين العديد من معلمي معلم جاك، واحد طيّب، لأنه سيبدّله بين يوم وآخر– كان إنساناً– كان إنساناً مشبوب العاطفة، مثلك أيها القارئ، إنساناً فضولياً، مثلك أيها القارئ، إنساناً سؤولاً مثلك أيها القارئ، إنساناً لحوحاً، مثلك أيها القارئ –ولم كان يسأل؟ يا له من سؤال! كان يسأل ليتعلّم فيعيد القول، مثلك أيها القارئ.

قال المعلم لجاك: "لا تبدو مستعداً لاستئناف قصة غرامياتك.

جاك– يا لرئيسي المسكين! لقد ذهب إلى حيث نحن ذاهبون جميعاً، وحيث من الأمور الخارقة حقاً ألا يكون ذهب مبكراً أكثر. يا حسرتي! .. يا حسرتي! ..

---

[1] مؤلف أساطير إغريقي. عاش بين القرنين السابع والسادس ق م وكان عبداً ثم أعتق.

المعلم- لكن، يا جاك، أنت تبكي، على ما أعتقد!..."إبكِ[1] بـلا قـهر، فبوسعك البكاء بلا خجل، فموته يُعتقك من لياقات الوساوس التي كانت تضيّق عليك في حياته. وليست لديك، لتمويه عنائك، نفسُ الأسباب التي كانت لديك لتمويه هنائك.وليس من يفكّر في أن يجني من دموعك التبعات التي كان سيجنيها من فرحك. فالشقاء معذور. كما ينبغي على المرء في هذا الوقت أن يكون حسّاساً أو جاحداً، ومن الأفضل بعد أخذ كل شيء بعين الاعتبار، التدليل على ضعف بدلاً من إثارة الظنِ بوجود عيب. أريد لأنينك أن يكون حراً ليكون أقل ألماً، أريده عنيفاً ليكون أقصر. تذكّر بل بالغ في حقيقة أمره. في نفوذه لسبر أغوار المواد الأكثر عمقاً، ولطافته في مناقشة الأكثر رهافة. وذوقه المتين الذي كان يشدّه إلى أكثرها أهمية، والخصوبة التي كان يلقي بها في أكثرها قحطاً. وبأيِّ مهارة كان يدافع عن المتّهمين: كان تسامحه يهبه من الفطنة إضعافاً مضاعفة أكثر مما تهب المصلحة أو الكرامة منها للمذنب. لم يكن قاسياً إلا على نفسه.

وبدلاً من أن يسعى وراء أعذارٍ للأخطاء الصغيرة التي تفلت منه، كان يحرص بكل ما لدى العدوّ من بغضاء على تضخيمها، وعلى الانتقاص من فضائله بكل ما لدى الحسود من حرص، فيخضعها لامتحان قاس يتناول البواعث التي قد تكون حرّكته في غفلة منه. لا تحدّد لأحزانك من أجَلٍ سوى الذي يحدده لها الزمن. فلنرضخ لسُنّة الكون حين نفقد أصدقاءنا، مثّلما نرضخ حين يروقها أن تتصرّف بنا. ولنقبل بحكم القدر الذي أدانهم، دون أن ينتابنا القنوط، مثلما سنقبل به حين يَصْدر بحقنا. وليست الواجبات الجنائزية آخر واجبات الأصدقاء. فالتراب الذي يتحرك في هذه اللحظة سوف يتماسك فوق قبر حبيبك، غير أن روحك ستظلّ محتفظة بحساسيتها كلها."

[1] نلفت نظر قارئنا إلى أن القارئ الفرنسي لا يدري، طيلة هذا الخطاب، إن كان الكلام موجّهاً إلى مذكر أو مؤنث، لتماثل الضمائر، في المخاطب والغائب، وخلوّه عمداً من صفة صريحة. المترجم

جاك– يا معلمي، كل ذلك جميل. لكني استحلفك بالشيطان، ما حقيقته وفحواه؟ أنا فقدت رئيسي، وهذا ما يحزنني. غير أنك تصنعني مثل ببغاء، بشذرات فصاحة من مواساة رجل أو امرأة لامرأة أخرى فقدت عشيقها.

المعلم– أعتقد أنها موجهة من امرأة.

جاك– أما أنا، فأعتقد أنها من رجل. لكني أسألك مرة أخرى، سواء كانت من رجل أم امرأة، ما فحواها بحق الشيطان؟ وهل تعتبر أني كنت عشيقة لرئيسي؟ كان رئيسي، يا سيدي، رجلاً شهماً. وكنت أنا على الدوام ولداً مستقيماً.

المعلم– ومن يجادلك في ذلك، يا جاك؟

جاك– إذن ما فحوى مواساتك الموجهة من رجل أو امرأة لامرأة أخرى، بحق الشيطان؟ ربما ستجيبني لكثرة استفساري.

المعلم– كلا، يا جاك، بل ينبغي أن تجد ذلك بمفردك.

جاك قد أفكر بذلك طوال حياتي من غير أن أخمّن. وقد يطول بي الأمر حتى يوم الدينونة.

المعلم- تراءى لي، يا جاك، أنك كنت تصغي إلي بانتباه، وأنا أتكلم.

جاك- ألا نولي الشخص المضحك انتباهنا؟

المعلم– لا بأس، يا جاك.

جاك– كدت أنفجر ضاحكاً لدى ذكر اللياقات المتزمتة التي كانت تضيّق علي الخناق في حياة رئيسي، والتي تحررت من نيرها بموته.

المعلم لا بأس، يا جاك، لقد أنجزت إذن ما وضعته نصب عيني. قل لي: هل كان يمكن التصرف على نحو أفضل لمواساتك؟ كنت تبكي: ولو أني كلمتك عن موضوع حزنك، فما سيحصل؟ كنت ستبكي أكثر فأكثر وينتهي بي المطاف إلى زيادة حزنك. فقدمت لك البديل، بسخف مرثاني وبالخلاف الصغير الذي نجم عنها. أما الآن فعليك أن توافق على أن ذكرى رئيسك أمست بعيدة عنك بعد العربة الجنائزية التي

حملته إلى مثواه الأخير. وعليه أرى أن بوسعك أن تستأنف قصة غرامياتك.

جاك– وأنا أرى ذلك أيضاً.

فقلتُ للجراح: هل تقيم بعيداً من هنا، يا دكتور؟

–على ربع فرسخ على الأقل.

–وهل تقيم في منزل مريح؟

–مريح إلى حد لا بأس به.

–هل يتوفر لديكم سرير؟

–كلا.

–ماذا !حتى مع دفع الأجر، بل مع دفع أجر جيد؟

–آه ! مع دفع الأجر، بل دفع أجر جيد، معذرة. لكن لا يبدو لي أبداً، يا صاحبي، أنك في وضع يؤهّلك للدفع، ناهيك بدفع أجر جيد.

–ذلك شأني أنا. فهل أكون موضع عناية عندكم؟

–بشكل جيد جداً. فزوجتي اعتنت بالمرضى طوال حياتها. وهناك ابنتي البكر التي تحلق ذقن كل مريض، وتضع لك ضماداً بنفس الجودة التي أفعلها أنا.

–وكم تطلبون مني لقاء إقامتي وطعامي وعنايتكم؟

فقال الجراح وهو يحك أذنه:

–الإقامة .. والطعام... والمعالجة... ولكن من سيكفل لي أمر الدفع؟

-أدفع الأجر يومياً.

–هذا ما يسمّى بالكلام.ذلك...

-لكن، يا سيدي، أعتقد أنك لا تصغي إليّ.

المعلم– كلا، يا جاك، كان مكتوباً فوق أن تتكلم هذه المرة، التي يمكن أن لا تكون الأخيرة، من غير أن يصغي أحد لكلامك.

جاك - حين لا يصغي المرء إلى من يتكلم، فذلك يعني أنه لا يفكّر بشيء، أو أنه يفكر بشيء آخر غير ما يقال: فأيّ الشيئين كنت تفعل؟

المعلم- الآخر. كنت أفكر فيما قاله لك أحد الخدم الذين تبعوا الموكب الجنائزي، من أن رئيسك قد حُرِم بموت صديقه، من متعة المبارزة مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. فهل فهمت شيئاً من ذلك؟

جاك- بكل تأكيد.

المعلم- إنه لغز بالنسبة لي وسوف تمنّ عليّ بإيضاحه.

جاك- وبما سيعود عليك بحق الشيطان؟

المعلم- بشيء ضئيل، غير أنك حين تتكلم، ترغب على ما يظهر في أنت تكون مسموعاً؟

جاك- هذا شيء مسلم به.

المعلم- طيب، أقول لك بصراحة إني لا أقوى على الإصغاء إليك ما دام هذا الكلام الغامض يرهق دماغي. فأخرجني من هذا المأزق، أرجوك.

جاك- على الرحب والسعة! لكن أقسم لي، على الأقل، على أن لا تقاطعني أبداً.

المعلم- أقسم لك، مهما يكن من أمر.

جاك- ذلك أن رئيسي، وهو رجل طيب ورفيق الحاشية، رجل شهم وواحد من أفضل ضباط الأركان، لكنه رجل غريب الأطوار قليلاً، قد التقى بضابط آخر من نفس الوحدة فارتبط بصداقة معه وهو أيضاً رجل طيب ورفيق الحاشية ورجل شهم أيضاً وضابط ممتاز مثله، لكنه رجل غريب الأطوار مثله أيضاً...

كان جاك على وشك البدء بقصة رئيسه، حين سمعا حشداً كبيراً من الرجال والخيول قادمين ورائهم. إنها العربة الجنائزية نفسها تعود على أعقابها وهي محاطة... برجال الحرس الريفي؟-كلا- بخيالة الدرك؟ – ربما. مهما يكن من أمر، فقد تقدم الكاهنُ ذلك الموكب بجبته ودرع

صلواته، ويداه مربوطتان وراء ظهره، والحوذي الأسود ويداه مربوطتان وراء ظهره، والخادمان المجللان بالسواد، وأيديهما مقيّدة وراء ظهريهما. فمن كان الأكثر اندهاشاً؟ إنه جاك الذي هتف قائلاً: "رئيسي، رئيسي المسكين لم يمت! الحمد لله!..." إنه جاك. واستدار جاك بجواده فهمزه وانطلق لملاقاة الموكب المزعوم. ولم يكن على أكثر من ثلاثين خطوة حتى وجه إليه رجال الحرس الريفي أو خيالة الدرك أسلحتهم وصاحوا به: "قف، عد من حيث أتيت وإلاّ قُتِلْت..." فتوقف جاك من فوره واستشار القدر هنيهة في ذهنه، فتراءى له أن القدر يقول له: "عد من حيث أتيت" وهذا ما فعله. فقال له معلمه: "طيب، يا جاك، ما حقيقة الأمر؟

جاك- قسماً إني لا أدري شيئاً.

المعلم- ولماذا؟

جاك- لست أدري أيضاً.

المعلم- سوف ترى أنهم مهرِّبون، ملؤوا ذلك التابوت ببضائع ممنوعة، وأنهم بيعوا إلى الحرس الريفي من قبل الأنذال أنفسهم، الذين باعوهم البضاعة.

جاك- ولكن لِمَ تلك العربة وأسلحة رئيسي؟

المعلم- ربما كانت عملية اختطاف. ليس من يدري إن كانوا أخفوا في ذلك التابوت امرأة أو فتاة أو راهبة. فليس التابوت هو الذي يصنع الميت[1].

جاك- ولكن لِمَ تلك العربة وأسلحة رئيسي؟

المعلم- قد يكون كل ما يروقك. لكن أكمل لي قصة رئيسك.

جاك- أما زلت متمسكاً بتلك القصة؟ لكن قد يكون رئيسي ما زال على قيد الحياة.

[1]هذا على ورد المثل الفرنسي: الثوب لا يصنع الراهب. ومعناه: لا تؤخذوا بالظاهر -م-

المعلم- وما تأثير ذلك على المسألة؟

جاك- لا أحب الكلام على الأحياء مطلقاً، لأن المرء معرض لأن يحمرّ خجلاً بين وقت وآخر، جرّاء ما قال في حقهم من خير أو شر. من الخير الذي يفسدونه ومن الشرّ الذي يصلحونه.

المعلم- لا تكن مادحاً مبتذلاً ولا ناقداً مريراً. قل الواقع مثلما هو.

جاك- ليس ذلك بالأمر الميسور. أليس للمرء طبعه ومصلحته وذوقه وأهواؤه التي تجعله يغالي أو يقارب؟ قل الواقع مثلما هو!... قد لا يقع ذلك مرتين في يوم واحد في مدينة كبيرة. وهل الذي يصغي إليك أفضل استعداداً من الذي يتكلم؟ كلا. وعلى هذا الأساس لا يكون المرء مسموعاً مثل قوله، أكثر من مرتين في اليوم في مدينة كبيرة على أقصى تقدير.

المعلم- ويحك، يا جاك، فمن شأن هذه الحِكَم أن تُبْطل استخدام الكلام والأذنين، أن تقول شيئاً، أن لا نصغي لشيء وأن لا نصدّق شيئاً! ومع ذلك فقل كما أنت، فأصغي إليك كما أنا، وأصدق كلامك على قدر استطاعتي.

جاك- إذا كان المرء في هذا العالم لا يقول من شيء تقريباً، ليُفْهَم مثلما قيل، فهنالك ما هو أسوأ، حيث لا يفعل من شيء تقريباً فيُحكَم عليه وفقاً لفعله.

المعلم- ليس على الأرجح تحت الشمس من رأس آخر يحتوي على نفس القدر من المتناقضات التي في رأسك.

جاك- وما الضير في ذلك؟ ليس التناقض خللاً على نحو دائم.

المعلم- هذا صحيح.

جاك- دخلنا يوماً أنا ورئيسي إلى أورليان. ولم يكن في المدينة من حديث سوى واقعة جرت حديثاً مع مواطن اسمه السيد بلوتييه وهو رجل استأثره العطف على التعساء، فبعد أن بدّد ثروة طائلة كصدقات بلا حدود، وصار يعيش على الكفاف، أخذ يتنقّل بين باب وآخر ليجمع من أموال الغير، هبات لم يعد بقادر على منحها من ماله الخاص.

المعلم- وهل تعتقد بوجود رأيين اثنين حول سلوك ذلك الرجل؟

جاك- ليس بين الفقراء. أما الأغنياء فنظروا إليه كلهم، من غير استثناء، على أنه مجنون من نوع ما. بل أوشك أقرباؤه أن يطالبوا بالحجر عليه بتهمة التبذير. وفيما كنا نتبرّد في إحدى الحانات، تجمع حشد من العاطلين حول رجل كأنه خطيب، وهو حلاق الشارع، فقالوا له: "أنت كنت هناك، هات اروِ لنا الواقعة مثلما جرت. فرد الخطيب من ركنه، وهو الذي لم يكن يطلب سوى الكلام بإطناب: على الرحب والسعة. كان السيد أوبرتو، وهو أحد زبائني، الذي يواجه منزله كنيسة الكبوشيين، واقفاً على بابه. فاقترب منه السيد بلُوتْيِيه وقال له:"يا مسيو أوبرتو، ألا تهبني شيئاً لأصدقائي؟" ذلك أنه، كما تعلمون، كان يدعو الفقراء بتلك التسمية.

"-كلا، ليس اليوم، يا مسيو بلُوتْيِيه."

فألحّ السيد بلُوتْيِيه: "لو كنت تدري على من أستدرّ عطفك! إنها امرأة فقيرة وضعت مولوداً لتوّها، وليس لديها خرقة تقمّطه بها.

-لا أستطيع.

-إنها امرأة فتيّة وجميلة، ولا عمل لديها ولا طعام ويمكن لأريحيتك أن تقيها الزلّة.

-لا أستطيع.

-أطلب لشغّيل لا يملك سوى قوة ذراعيه ليعيش، وقد سقط عن سقالة فانكسرت ساقه.

-قلت لك لا أستطيع.

-هيا، يا مسيو أوبرتو، اعطف قليلاً، وكن واثقاً من أن الفرصة لن تواتيك أبداً للقيام بعمل جدير بالتقدير مثل هذا.

-لا أستطيع، لا أستطيع.

-يا مسيو أوبرتو، يا صديقي الخيّر والرؤوف!...

–يا مسيو بلّوتييه، دعني وشأني. فحين أريد أن أعطي، لا أنتظر من يرجوني..."

قال له السيد أوبرتو ذلك وأدار له ظهره فتحوّل من الباب إلى داخل متجره، فلحق به بلّوتييه. ثم تبعه من المتجر إلى المستودع الخلفي، ثم من المستودع الخلفي إلى داخل شقته. هنالك طفح الكيل بالسيد أوبرتو من شدة إلحاح السيد بلّوتييه، فاستدار نحوه ووجّه إليه صفعة... عندئذٍ، هبّ رئيسي واقفاً على نحو مباغت، وقال للخطيب: "أوَ لَمْ يقتلْهُ؟

–كلا، يا سيدي. وهل يقوم المرء بالقتل على ذلك النحو؟

–صفعة، وأيم الحق، صفعة! وماذا فعل إذن؟

–ما الذي فعله بعد أن تلقّى الصفعة؟ اتخذ مظهراً ضاحكاً وقال للسيد أوبرتو: "هذه لي أنا، فماذا لأصدقائي الفقراء؟..."

عند تلك الكلمات صاح السامعون جميعاً صيحة إعجاب، باستثناء رئيسي الذي قال لهم: "ما صاحبكم، السيد بلّوتييه،أيها السادة، سوى صعلوك تعيس وجبانٍ ومتخاذل، غير أن هذا السيف كان سيأخذ بحقّه على الفور، لو كنتُ هنالك. وأما صاحبكم أوبرتو فكان سيطير فرحاً إذا لم يكلفه ذلك سوى جدع أنفه وصلم أذنيه."

فردّ عليه الخطيب قائلاً: "أرى يا سيدي، أنك ما كنت ستمنح الرجل السفيه وقتاً ليعترف بغلطته، وأن يرتمي على قدمي السيد بلوتييه، ليقوم فيفتح له صندوق أمواله.

–لا، بالتأكيد.

–أنت عسكري والسيد بلوتييه مسيحي. فليست لديكما أفكار متماثلة حول الصفعة.

–إنما خدّ الرجال الشرفاء واحد.

–لكي ليس هذا تماماً رأي الإنجيل.

–الإنجيل في قلبي وفي غمدي ولست أعرف من إنجيل سواه...

–وإنجيلك، يا معلمي، لست أدري أين هو. أما أنا فإنجيلي فوق. وكل امرئ يقدّر الإهانة وفعل الخير على طريقته. وقد لا نصدر على ذلك نفس الحكم في لحظتين اثنتين من حياتنا.
المعلم– وبعد، أيها الثرثار اللعين، وبعد..."

حين يبدو على معلّم جاك تعكر في المزاج، كان جاك يلوذ بالصمت ويبدأ يحلم، ولا يقطع الصمت غالباً إلا بكلام متصل بتفكيره، إلا أنه مفصول عن الحديث مثل القراءة في كتاب بعد تجاوز عدة صفحات. وهذا ما حصل على وجه التحديد حين قال: "يا معلمي العزيز...
المعلم– آه. عاد الكلام إليك أخيراً. أنا مسرور لأجلنا نحن الاثنين، فقد بدأت أشعر بالملل لعدم سماعك وأنت لعدم الكلام. فهيا نتكلم..."
جاك– يا معلمي العزيز، تمضي الحياة في حالة من سوء التفاهم. فهنالك حالات سوء التفاهم المتعلقة بالحب، وسوء التفاهم للصداقة وسوء التفاهم للسياسة، وحالات سوء التفاهم المتعلقة بالمالية والكنيسة والقضاء والتجارة والزوجات والأزواج...
المعلم– دعك من حالات سوء التفاهم واحرص على الملاحظة بأنك ستغدو سمجاً إذا ما أبحرت في لجة فصل عن الأخلاق، إذا كان الأمر يتعلق بواقعة تاريخية. فماذا عن قصة رئيسك؟

كان جاك على وشك أن يبدأ قصة رئيسه، حين اندفع حصانه للمرة الثانية، فانطلق بشكل مباغت خارج الطريق الرئيسة على اليمين، ليمضي به عبر سهل منبسط، فقطع مسافة ربع فرسخ أو يزيد، ليتوقف بشكل مفاجئ وسط أعمدة للمشانق...وسط أعواد المشانق! ألا كم هو تصرف غريب من حصان أن يقود فارسه نحو المشنقة!...

قال جاك: "ماذا يعني ذلك كله؟ أم هو إنذار من القدر؟"

المعلم- يا صديقي، لا تشكّ في ذلك. فحصانك مُلْهَم، والمزعج في الأمر أن تلك الدلائل كلها والإلهامات والإنذارات من فوق عبر التجليّات لا تنفع في شيء: إنها لن تحول دون وقوع الأمر. يا صديقي العزيز، أنصحك بأن تجعل ضميرك نقياً، وتنسّق شؤونك الصغيرة، وتستعجل بأقصى ما تستطيع فتقصّ عليّ حكاية رئيسك وقصة غرامياتك، لأنه سيشقّ عليّ أن أفقدك من غير أن أسمعها. وإذا استبدّ بك القلق أكثر مما أنت عليه فبِمَ سيفيدك ذلك؟ لا شيء. إن حكم القدر الذي نُطِقَ به مرتين بواسطة حصانك سوف ينفذ. فانظر، أليس لديك من شيء تردّه لأحد؟ بُحْ لي برغباتك الأخيرة وكن على ثقة من أنها سوف تلبّي بكل أمانة. وإن كنت أخذت مني شيئاً فإني أهبك إياه، فاطلب بشأنه مغفرة الله فقط، وكفّ عن سرقتي خلال الوقت المتبقي أمامنا لنعيشه معاً طويلاً كان أم قصيراً.

جاك- عبثاً أعود إلى الماضي فلا أعثر على شيء أدخل في جدال بشأنه مع عدالة البشر. فأنا لم أقتل ولم أسرق ولم أغتصب.

المعلم- هذا أسوأ. وإذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فأنا أفضّل أن تكون الجريمة ارتُكِبَتْ على أنها سوف ترتكب، ولسبب بديهي.

جاك- لكن يا سيدي، قد لا يكون بسببي أنا، بل قد أُشنق بسبب شخص آخر.

المعلم- ذلك ممكن.

جاك- وقد لا أُشْنَق إلا بعد موتي.

المعلم- ذلك ممكن أيضاً.

جاك- وقد لا أشنق على الإطلاق.

المعلم- أشك في ذلك.

جاك- قد يكون مكتوباً فوق أن أشهد فقط شنق شخص آخر. وذلك الآخر، يا سيدي، هل من يدري من هو؟ وهل هو قريب أم بعيد؟

المعلم- يا سيد جاك، أنشنق، ما دام القدر يريد ذلك وحصانك يقوله. لكن لا تكن وقحاً: كفّ عن تخميناتك السفيهة وارو لي بسرعة قصة رئيسك.

جاك- لا تكن ساخطاً يا سيدي، فقد شنقوا أحياناً أناساً من خيرة القوم: إنه سوء تفاهم العدالة.

المعلم- تلك الأشكال من سوء التفاهم تبعث على الغمّ. فلنتكلم عن شيء آخر."

قال جاك وقد اطمأن قليلاً لكثرة ما عثر عليه من تأويلات، للإنذار الذي جاء به الحصان: "كان في الفوج، حين دخلته، ضابطان متماثلان في السن والمحتد والخدمة والمزايا. وكان رئيسي أحد الاثنين. أما الفارق الوحيد بينهما فهو أن أحدهما كان غنياً أما الآخر فلا. ورئيسي هو الغني. وكان من شأن ذلك التماثل أن يؤدي إلى أشد أشكال التجاذب أو التنافر. وقد أدى إلى هذا وذاك..."

توقف جاك هنا، وقد جرى له مثل ذلك مرات عديدة، أثناء سرد قصته، لدى كل نأمة من رأس حصانه شطر اليمين أو الشمال. عندئذٍ، كان يستأنف، قبل أن يواصل الكلام، جملته الأخيرة كمن يعاني من الفواق[1].

جاك- وقد أدّى إلى هذا وذاك. فتأتي أيام يكونان فيها أفضل صديقين في العالم، لتأتي أخرى يكونان فيها ألدّ عدوين.كانا في أيام الودّ يبحث أحدهما عن الآخر فيتبادلان السلام ويتعانقان ويتشاوران في متاعبهما ومباهجهما واحتياجاتهما، ويتبادلان النصح في شؤونهما الأكثر خصوصية ومصالحهما المعيشية وآمالهما ومخاوفهما وتطلّعاتهما المستقبلية. فما الحال في اليوم التالي وقد تلاقيا؟ كانا يتبادلان النظرات باستعلاء، ويدعو الواحد منهما الآخر بلقب "سيد"، ويوجّه كل منهما للآخر

[1] أو الفُهاق. وفي العامية الحازوقة.

أقسى الكلام ليستل كل منهما سيفه فيبدأا بالمبارزة. أما إن وقع وأصيب أحدهما بجرح، فكان الآخر يرتمي على رفيقه باكياً منتحباً فيصحبه إلى بيته فيستقر بجوار سريره لحين شفائه. ثم بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً أو شهر، يعاودان سيرتهما، فكنت ترى بين لحظة وأخرى رجلين مقدامين... رجلين باسلين، وصديقين صدوقين، معرّضين للهلاك، كلاً منهما على يد الآخر، وما كان للميت بأي حال أن يكون الأكثر استحقاقاً للشفقة بين الاثنين. وجرى الحديث معهما مراراً وتكراراً على غرابة سلوكهما. بل أنا نفسي، وقد سمح لي رئيسي بالكلام، قلت له: "ولكن، يا سيدي، ماذا لو وقع أن قتلته؟" ولدى هذه الكلمات كان يجهش بالبكاء، فيغطي عينيه بكفيه، ويهرع إلى شقته كالمجنون. وكان بعد ذلك بساعتين، إما أن يعيده رفيقه إلى بيته جريحاً، وإما أن يؤدي هو الخدمة نفسها لرفيقه. فلا أثمرت تحذيراتي... فلا أثمرت تحذيراتي ولا جاءت تحذيرات الآخرين بنتيجة تذكر. ولم يجدوا من علاج سوى الفصل بينهما. وأحيط وزير الحربية علماً بذلك الإصرار الغريب على حالات من التطرف المتناقضة، فجرى تعيين رئيسي في قيادة الموقع، مع أمر مستعجل بأن يلتحق بمنصبه على الفور، ومنعه من مغادرته، وإيعاز آخر بتثبيت رفيقه في الفيلق... أعتقد أن هذا الحصان الملعون سيتسبّب في إصابتي بالجنون...ما كادت أوامر الوزير تصل، حتى توجّه رئيسي إلى البلاط، بحجة الذهاب للشكر على الإنعام الذي حظي به، فتقدّم بالتماس يقول إنه غني، وإن رفيقه المعوز يملك نفس الحق في نيل إنعام الملك، وإن المنصب الذي منح له يكافئ خدمات صديقه، ويعوّض عن النقص في ثروته، وأنه من ناحيته سيكون مغتبطاً ومفعماً فرحاً. ولما كانت نيّة الوزير تنحصر في الفصل ما بين ذينك الرجلين الغريبَيْ الأطوار، وكانت الاقتراحات السخية تؤثر في النفوس، فقد صدر قرار... أيها الحيوان الملعون، هل ستبقي على رأسك جالساً؟... فقد صدر قرار بالإبقاء على رئيسي في فوجه وبأن يتوجّه رفيقه ليشغل المنصب الذي أسند إليه.

ما كادا يفترقان حتى شعر كل منهما بحاجته للآخر. فأصيبا بحالة من الاكتئاب العميق. وطلب رئيسي إجازة فصلية لزيارة مسقط رأسه. لكنه عمد على بعد فرسخين من الفوج إلى بيع حصانه، فتنكّر بملابس فلاح وتوجه إلى الموقع الذي يرئسه صديقه. ويبدو أنها خطوة مدبّرة بينهما. ووصل ... هيا امضِ إلى حيث تشاء! أما تزال هناك أعمدة مشانق ترغب في زيارتها؟... اضحك على هواك، يا سيدي، فذلك مضحك جداً في واقع الأمر... ووصل. لكن كان مكتوباً فوق، أياً كانت الاحتياطات التي اتخذاها لإخفاء الارتياح الذي ظهر عليهما من تلاقيهما، وألا يتقاربا من غير المظاهر الخارجية لتبعية فلاح لقائد موقع، فإن عدداً من الجنود وبعض الضباط الذين حضروا تقابلهما. بمحض الصدفة، والذين كانوا على علم بمغامرتهما، قد ساورتهم الشكوك فبادروا إلى إعلام ناظر الموقع.

وكان هذا الأخير رجلاً حكيماً، فقابل الخبر بالابتسام، غير أنه لم يتوان عن إيلائه الأهمية التي يستحقها. فبثّ من حول الرئيس العيون. فقال أول تقرير لهم إن الرئيس قلما يخرج وإن الفلاح لا يخرج مطلقاً. وكان يستحيل على هذين الرجلين أن يمضيا أسبوعاً معاً من غير أن يعود إليهما هوسهما. وذلك ما قد حصل."

أنت ترى أيها القارئ كم أنا مفضال. لم يكن الأمر متوقّفاً إلا عليّ لأسوط الخيول التي تجرّ العربة المجلّلة بالسواد، وأجمع لدى باب النزل المقبل، جاك ومعلمه ورجال الحرس الريفي أو رجال الدرك وبقية المشاركين في الموكب، وأقطع قصة رئيس جاك، وأُنفد صبرك وفق ما يحلو لي. لكن لا بدّ لي، من أجل ذلك، من أن أكذب، وأنا لا يروقني أن أكذب، ما لم يكن ذلك نافعاً وإلزامياً. وواقع الأمر أنّ عيون جاك

ومعلمه لم تقع على العربة المجلّلة من بعد. وأنّ جاك القلق على الدوام من مسلك حصانه، وأصل حكايته قائلاً:

"ذات يوم نقل الجواسيس للناظر وقوع مشادّة عنيفة جداً بين الرئيس والفلاح، وأنهما خرجا بعدئذٍ، وأن الفلاح كان يسير متقدماً، والرئيس يتبعه على مضض، وأنهما دخلا محل أحد المصرفيين في المدينة ولا يزالان عنده.

وعُلِمَ من بعد، أنهما قرّرا المبارزة حتى النهاية، بعد أن قطعا كل أمل في العودة للتلاقي، وأن رئيسي، الأمين في التزاماته كخلّ وفيّ، حتى في لحظة ضراوة لا مثيل لها، وهو الغني كما قلت لك من قبل...آمل، يا سيدي، ألاّ تطلب إليّ أن أكمل سفري على ظهر هذا الحيوان الغريب الأطوار...إن رئيسي الذي كان غنياً، قد فرض على رفيقه القبول بكمبيالة قيمتها أربع وعشرون ألف ليرة، تؤمّن له مورد رزق يعيش منه في الخارج، إذا ما قتله، وإنه لن يبارزه ما لم يقبل بذلك الشرط المسبق. فيرد الآخر على عرضه ذاك قائلاً:"هل تحسب يا صديق، أني إذا ما قتلتك، سأظل على قيد الحياة من بعدك؟..."

وخرجا من عند المصرفي فتوجّها صوب أبواب المدينة، ليجدا نفسيهما محاطَيْن بالناظر وبعض الضباط. وعلى الرغم من أن ذلك اللقاء اتّسم بطابع المصادفة العرضية،فإن صاحبينا الصديقين أو العدوين، وفق ما يروقك أن تدعوهما، لم يلتبس الأمر عليهما. فكشف الفلاح عن حقيقة أمره. ثم توجّها للمبيت في منزل منعزل. ومنذ صبيحة اليوم التالي، عانق رئيسي رفيقه مرات عديدة، فودعه الوداع الأخير. وما كاد يصل إلى مسقط رأسه حتى قضى نحبه.

المعلم– ومن قال لك إنه مات؟

جاك– وذلك التابوت؟ وتلك العربة وفيها أسلحته؟ إن رئيسي المسكين قد مات، ولستُ في شك من ذلك.

المعلم– وذلك الكاهن ويداه مقيّدتان وراء ظهره، وأولئك الناس وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم، وأولئك الرجال من الحرس الريفي أو فرسانُ الدرك، وذلك الرجوع للموكب نحو المدينة؟ رئيسك حيّ يرزق ولست في شك من ذلك. ولكن ألا تعرف شيئاً حول رفيقه؟

جاك– حكاية رفيقه سطر جميل مخطوط في الملفّ الكبير أو في ما هو مكتوب فوق.

المعلم– ولي أمل في...

لم يسمح حصان جاك لمعلمه بإنهاء كلامه، فانطلق كالبرق على الطريق الرئيس من غير أن ينحرف يميناً أو يساراً. وتوارى جاك عن الأنظار. أما معلمه المقتنع بأن الدرب ينتهي إلى عدد من أعواد المشانق فكان يلوذ بخاصرتيه من شدّة الضحك. أمّا وجاك ومعلمه ليسا معاً، وليس لهما من قيمة وهما منفصلان أكثر من دون كيشوت من دون سانشو، وريشارديه من دون فيراغوس، وذاك ما لم يفهمه متابعو سيرفانتس ولا مقلّد آريوستي[1]، وهو المطران فورتي غويرا، فلنتحدث معاً، أيها القارئ، ريثما يجتمعان.

سوف تعتبر قصة رئيس جاك حكاية، لكنك على خطأ. وأُعلِنُ لك مؤكّداً أني سمعتها،وعلى نحو ما رواها لمعلمه، وهي تُروى في مركز الأنفاليد، ولم أعد أذكر السنة، يوم عيد سان لوي (القديس لويس)، على مائدة السيد سانت اتيين، وكان على دراية بالواقعة، فهو شخص وقور،

[1] آريوستي (1474–1533)من كبار شعراء النهضة في إيطاليا.

ليس عليه أي مظهر من مظاهر الاستخفاف. فأكرّر لك القول الآن وللمستقبل: كن متحفّظاً، ما لم يكن في نيتك أن تأخذ ضمن هذا الحديث بين جاك ومعلمه، الصحّ على أنه خطأ، والخطأ على أنه صحّ. وها أنا قد أحطتك علماً لأصير في حلٍّ من كل تبعة. ستقول لي:-ذانك رجلان في منتهى الغرابة! -وهل ذلك ما يجعلك في ريبة؟ إن الطبيعة أولاً على درجة من التنوّع، لا سيّما في مجالي الغرائز والطبائع، وليس ما يثير شدة العجب في خيال شاعر، لا تُقدّم لك تجربته وملاحظته النموذج في الطبيعة. ولقد صادفت بنفسي، أنا الذي أكلّمك، نظير "طبيب رغماً عنه"[1]، الذي كنت أعتبره حتى ذلك التاريخ على أنه صورة مرحة من نسج مفرط في الخيال حتى الجنون.

-ماذا ! نظير الزوج الذي تقول له امرأته:إني أحمل على ذراعي عبء ثلاثة أطفال. فيجيبها قائلاً:ضعيهم على الأرض . وهم يطلبون مني خبزاً:ناوليهم السوط! بالضبط.وهاك حديثه مع زوجتي.

-هذا أنت، يا سيدي غوس؟

-كلا، يا سيدتي، لست شخصاً آخر.

-من أين أتيت؟

-من حيث ذهبت.

-وماذا فعلت هناك.

-أصلحت طاحونة كان في دورانها خلل.

-ومن صاحب تلك الطاحونة؟

-لست أدري. فأنا لم أقصدها لإصلاح خلل في الطحان.

-أنت اليوم في أحسن هندام، وعلى غير عادتك. لكن لِمَ أرى تحتَ هذا الثوب النظيف جداً، قميصاً متّسخاً؟

-لأنه ليس لديّ سواه.

-ولم ليس لديك سوى واحد؟

[1] من مسرحيات موليير.

-لأنه ليس لديّ سوى جسد واحد.
-زوجي ليس هنا، لكن لا يمنعك ذلك من تناول الغداء هنا.
-كلا، ما دمت لم أودعه معدتي أو رغبتي في الطعام.
-وكيف حال امرأتك؟
-على ما يروقها، فذلك شأنها.
-وأولادك؟
-على أحسن ما يرام.
-وكيف ذو العينين الجميلتين، الممتلئ صحة وذو البشرة الجميلة؟
-أفضل من الجميع بكثير. لقد مات.
-هل تعلّمهم شيئاً؟
-كلا، يا سيدتي.
-ماذا؟ لا قراءة ولا كتابة ولا تعاليم الدين؟
-لا قراءة ولا كتابة ولا تعاليم الدين.
-ولم ذلك؟
-لأن أحداً لم يعلمني شيئاً فلم أزدد جهلاً. فإن كانوا أذكياء صاروا مثلي. وإن كانوا حمقى، فما سأعلّمهم إياه سيزيدهم حمقاً..."

إذا ما لقيت يوماً هذا الرجل الفريد، فليست معرفته ضرورية لكي تقاربه فتخاطبه. اصطحبه إلى حانة ما، وقل له ما قضيتك، واعرض عليه أن يتبعك لعشرين فرسخاً، يتبعك. واصرفه من بعد أن تستخدمه، من غير أن تدفع له فلساً واحداً، تره عاد راضياً من حيث أتى.

هل أتاك حديث شخص اسمه بريمونفال، كان يعطي دروساً عمومية في الرياضيات في باريس؟ كان صديقاً له... لكن قد يكون جاك ومعلمه التقيا مجدّداً: فهل تريد أن تتوجّه إليهما أم تفضل البقاء معي؟... كان غوس وبريمونفال يديران المدرسة معاً. وكان في عداد التلاميذ الذين يقصدونها بكثرة، فتاة اسمها الآنسة بيجون، هي ابنة ذلك الفنان الماهر الذي صمّم ذينك النصفين للكرة السماوية، واللذين نُقِلا من حديقة

الملك إلى أكاديمية العلوم. كانت الآنسة بيجون تتوجّه إلى المدرسة كل صباح تتأبط حقيبتها، واضعة علبة الرياضيات في جراب صغير. وكان أن وقع أحد الأستاذين، وهو بريمونفال، في هوى تلميذته، وأثناء تعليمها الفرضيات حول الثوابت المضلّعة في الكرة، ثبت أنهما سيثمران مولوداً. ولم يكن بيجون الأب رجلاً مستعداً لأن يتفهّم بأناة تلك النتيجة الطبيعية. وأضحى وضع العاشقين مربكاً، فبدأا التشاور بشأنه. ولكن إلام سيؤول تشاورهما إذا كانا لا يملكان شيئاً، لا شيء على الإطلاق؟ وكان أن استنجدا بصديقهما غوس. فقام هذا، من غير أن يتفوّه بكلمة واحدة، ببيع كلّ ما يملك من ملابس داخلية وثياب وأثاث وأدوات وكتب. فجمع مبلغاً من المال فوضع العاشقين في عربة بريد ورافقهما حتى منطقة الألب[1]. فأفرغ ما تبقى في كيسه من مال فأعطاهما إياه وعانقهما مودّعاً ومتمنياً لهما سفراً موفّقاً، وقفل راجعاً على قدميه يتسوّل ليعيش حتى بلغ مدينة ليون، فعمل في دهان رواق لأحد أديرة الرهبان، فكسب ما كفل له العودة إلى باريس من غير تسوّل. -ذلك رائع جداً- بالتأكيد. وتظن بعد ذلك العمل البطولي أن غوس على جانب رفيع من الأخلاق؟ لا بأس. لكن ثِبْ إلى رشدك، فلم يكن في رأسه مثقال ذرة من الأخلاق.
-ذلك مستحيل-ذلك هو الواقع. فقد كلفته بعمل. وأعطيته حوالة قيمتها ثمانون ليرة ليصرفها لدى مفوّض من قبلي، وكان المبلغ مكتوباً بالأرقام. فماذا فعل؟ لقد أضاف صفراً فقبض ثمان مئة ليرة- آه. يا للهول!
-لم يكن نذلاً حين سرقني بأكثر مما كان شهماً حين تخلّى عن كل ما يملك من أجل صديقه. إنه رجل غريب الأطوار، لا مبادئ له. فالفرنكات الثمانون لم تكن كافية له. وبجرّة قلم حصل عل ثمان مئة كان بحاجة إليها. وماذا عن الكتب الثمينة التي أهداني إياها؟ -ما حقيقة تلك الكتب؟. .- لكن هناك جاك ومعلمه؟ وهناك حكاية غراميات؟ آه

[1]حتى الحدود السويسرية، والواقعة حقيقية.

منك أيها القارئ، فنفاد صبرك وأنت تصغي إليّ يثبت لي قلة الاهتمـــام التي توليها لهاتين الشخصيتين، حتى لتحدوني الرغبة في تركهما حيــث هما... كنت بحاجة لكتاب ثمين فأحضره لي، وبعد وقت قصير احتجــت لكتاب آخر فجاءني به أيضاً. ورغبت في أن أدفع له قيمتهما فرفض أن يأخذ أي ثمن. واحتجت لكتاب ثمين ثالث. فقال لي: "أما هذا فلن تنالــه، لأنّك طلبته متأخراً. فصديقي الدكتور الذي كان في السوربون قد مات.

-وما علاقة صديقك الدكتور الذي كان في السوربون بالكتـــاب الــذي أرغب فيه؟ فهل أخذت الكتابين السابقين من مكتبته؟

-بالتأكيد.

-ومن غير موافقته؟

-وما حاجتي إليها لممارسة عدالة في التوزيع؟ لم أفعل سوى نقل مواقع الكتب نحو الأحسن، بإزاحتها من مكان كانت فيه بلا نفع، إلـــى مكــان آخر تؤدي فيه نفعاً حسناً. ." ثم أحكم من بعد ذلك على مسلك النـــاس! غير أن حكاية غوس مع امرأته هي الحكاية الرائعة!...إنـــي أســمعك، فحسبك ذلك، وأنت ترى أن نتوجّه للقاء مسافرينا الاثنين. أيها القـــارئ، أنت تعاملني معاملتك لإنسان آلي وليس ذلك من الكياسة في شيء. احكِ غراميات جاك، لا تحكِ غراميات جاك... أريد أن تحكي لـــي حكايـــة غوس. حسبي منها... ينبغي دون شك أن أمضي أحياناً وفق هواك، لكن ينبغي أحياناً أن أمضي على هواي أنا، دون أن أحسب أن كـــل ســامع يسمح لي بأن أبدأ بحكاية، إنما يتعهّد بسماع خاتمتها.

قلت لك أولاً. غير أنّ أولاً تمثّل على الأقـــل وجــود ثانيـــاً. إذن ثانياً... اصغِ إليّ، لا تصغ إليّ، سأتكلّم وحدي...كان بوسع رئيس جـــاك ورفيقه أن يتعذّبا بفعل حسد عنيـــف ودفيـــن: وذاك شـــعور لا تقـــوى الصداقة دوماً على إطفاء ناره. وليس أشقّ على المرء مـــن التســـامح حيال المزيّة. أما كانا يتوجّسان خيفة من انتقال حقّ يمكـــن أن يلحـــق إهانة بهما معاً؟ لقد كانا يسعيان مسبقاً، وليس في ذلـــك أدنـــى شـــك،

للتخلّص من منافس خطر فيمتحنان مشاعرهما من أجل المناسبة المقبلة. ولكن كيف لنا أن نكوّن فكرة عمن يتخلى عن منصبه بمثل تلك الأريحية لصديقه المعوز؟ إنه يتخلى عنه. وهذه حقيقة. أما لو حرم منه، لذهب على الأرجح يطالب به شاهراً سيفه. فانتقال الحق بين العسكريين، إذا كان لا يزيد من ينتفع به رفعةً، فهو ينتقص من قيمة خصمه. لكن لندع كل ذلك جانباً قائلين أنه يمثّل دمغة جنونهما. أوَ ليس لكل امرئ دمغة جنونه؟ لقد كانت دمغة جنون ضابطينا الاثنين هي دمغة جنون أوربا بأكملها لعدة قرون. وكانوا يسمونها روح الفروسية. فأفراد ذلك الحشد المتألّق كلّه، والمسلّح من رأسه حتى أخمص قدميه، والمزيّن بشتى أشكال ملابس الخدمة الجميلة، وكل منهم يتلاعب على صهوة جواد الحفلات، قابضاً على رمحه، رافعاً أو خافضاً واقية العينين في خوذته، متبادلاً النظرات بزهو، رائزاً الآخر بالنظر، متبادلاً وإياه التهديد، منقلباً فمعفّراً بالتراب، مالئاً ساحة ميدان واسع ببريق الأسلحة المحطّمة، لم يكونوا سوى أصدقاء تنهشهم الغيرة من المزيّة الدارجة. كان أولئك الأصدقاء، ساعة يقفون قابضين على رماحهم وهم بحالة تأهّب – وكل واحد في أقصى طرف من المضمار، يهمز بشدة خاصرتي جواده – يغدون من ألدّ الأعداء، فيهجم الواحد على الآخر بنفس الاندفاع الذي يحركه في ساحة المعركة. وإذن. فلم يكن صديقانا الضابطان، سوى اثنين من فرسان شارلمان التائهين، وقد ولدا في أيامنا، حاملين عادات القدماء. فكل فضيلة وكل نقيصة تظهر ثم تذهب درُجَتها[1]. فالقوة البدنيّة كان لها عصرها، وكذلك الحال مع المهارة في تمارين الفروسية. والتقدير حيال البسالة يعلو تارة ليهبط تارة أخرى، فكلما ازدادت شيوعاً قلّ الاعتداد بها وتناقص اطراؤها. تابعْ أهواء الناس، وسوف يتبين لك الذين يبدون وقد جاؤوا إلى العالم متأخرين جداً: إنهم من عصر آخر. وما الذي يحول دون الاعتقاد بأن العسكريين الاثنين قد

[1] الدرجة هي الموضة، ومنها الشيء الدارج.

انخراطا في تلك المعارك اليومية الخطرة، تدفع الرغبة بكل منهما للعثور على نقطة الضعف لدى خصمه وتأمين التفوّق عليه؟ وتتكرّر المبارزات في المجتمع تحت كافة الأنواع والأشكال، بين الكهنة، وبين رجال القضاء، وبين رجال الأدب وبين الفلاسفة. وكل حالة ولها رمحها وفرسانها، وليست جمعياتنا الأكثر مهابة والأكثر تسلية، سوى ميادين صغيرة للمبارزة يضع فيها المرء وشاح العاشق في قلبه بدلاً من أن ينسدل على كتفيه. وكلما كان عدد الحضور أكبر كانت المبارزة حامية أكثر. فحضور النساء يبث فيها الحرارة والعناد حتى الإفراط، أما عار الخسارة أمامَهنّ فلا ينسى.

وجاك؟... لقد عبر جاك أبواب المدينة واجتاز الشوارع وسط هتاف الأطفال حتى بلغ الطرف الثاني من الضاحية، حيث واصل حصانه الانطلاق باتجاه باب منخفض، فوقعت صدمة بين ساكف ذلك الباب ورأس جاك وكانت الصدمة رهيبة حتى اقتضت إما أن ينزاح الساكف من مكانه أو أن ينقلب جاك إلى الخلف. ومثلما يتوقّع المرء فالحل الثاني وقع. وسقط جاك وقد شجّ رأسه ففقد وعيه. فحملوه وأعادوه إلى وعيه بسكب سوائل كحولية، بل أعتقد أن صاحب البيت فصده.

-وهل كان ذلك الرجل جراحاً؟-كلا. ووصل معلمه في تلك الأثناء فاستعلم عنه كافة الذين صادفهم."ألم تروا رجلاً طويلاً نحيفاً يركب حصاناً أبقع؟

-لقد مرّ لتوّه من هنا، وكان منطلقاً كمن تلبّسه إبليس. ولا بدّ أن يكون وصل بيت معلمه.

-ومن هو معلمه؟

-الجلاد.

-الجلاد!

-أجل، فالحصان حصانه.

-وأين يسكن الجلاد؟

-بعيداً من هنا. لكن لا تكلف نفسك عناء الذهاب إليه، فأولئك هم رجاله قد جاؤوا على ما يبدو بالرجل النحيف الذي سألت عنه والذي حسبناه أحد خدمه..."

ومن كان يتحدث إلى معلم جاك على ذلك النحو؟ إنه صاحب النزل الذي توقف المعلم به على بابه، ولا يسع المرء أن يخطئ لرؤيته: إنه قصير القامة وسمين كالبرميل، يرتدي قميصاً مشمور الأكمام حتى المرفقين، يعتمر طاقية من القطن ويضع مريلة مطبخ تلتف حوله بينما تتدلى على جانبه سكين كبيرة. فقال له معلم جاك:"هيّا وبسرعة، هيّئ سريراً لهذا التعيس واستدع طبيباً وجراحاً وصيدلانياً..." ووصلوا بجاك فمددوه أمامه، وعلى جبينه كمادة كبيرة وسميكة، وعيناه مغمضتان."يا جاك؟ يا جاك؟

-هذا أنت يا معلمي؟

-أجل، هذا أنا. لكن انظر إليّ.

-لا أقدر.

-ولكن ماذا جرى لك؟

-آخ! إنه الحصان! الملعون! سأخبرك بكل ذلك غداً، ما لم أمت ليلاً."

وفيما هم يحملونه وينقلونه إلى غرفته، كان المعلم يوجه مشيتهم صائحاً: "انتبهوا، تحركوا بهدوء، تمهّلوا، عليكم اللعنة! سوف تجرحونه. أنت الممسك بساقيه، انعطف نحو اليمين. أنت الممسك برأسه، در نحو اليسار." وكان جاك يقول بصوت خافت: "كان إذن مكتوباً فوق!..."

ما كادوا يمدّدون جاك حتى نام نوماً عميقاً. وأمضى معلمه الليل ساهراً عليه، يجسّ له نبضه، ويرطّب كمّادته، دون انقطاع، بماء شاف للجروح. وباغته جاك حينما استيقظ وهو يؤدي مهمته تلك فقال له: "ماذا تفعل هنا؟

المعلم- أسهر عليك. أنت خادمي، حين أكون مريضاً أو في صحة جيدة. لكني خادمك وأنت منحرف الصحة.

جاك- كم يروقني أن أرى أنك إنساني. فليست هذه من شيم المعلّمين حيال خدمهم.

المعلم- وكيف حال رأسك؟

جاك- كمثل حال العارضة التي صدمها.

المعلم- خذ هذا الغطاء شد عليه بأسنانك وهزّه بقوة... بِمَ أحسست؟

جاك- لا شيء. فالجرة تبدو لي بلا صدع.

المعلم- لا بأس. أعتقد أنك ستنهض؟

جاك- وماذا تريدني أن أفعل هنا؟

المعلم- أريد منك أن ترتاح.

جاك- أنا أرى أن نتناول فطورنا ونمضي.

المعلم- والحصان؟

جاك- تركته عند صاحبه. إنه رجل شهم، رجل رقيق الحاشية، وقد استردّه مقابل ما باعنا إياه.

المعلم- وهل تعرف من هو ذلك الرجل الشهم، الرجل الرقيق الحاشية؟

جاك- كلا.

المعلم- سأقوله لك ونحن في الطريق.

جاك- ولم لا تقول الآن؟ أي سرّ هنالك؟

المعلم- سرّ أو لا، ما الضرورة في إعلامك بذلك الآن أو في وقت آخر؟

جاك- لا ضرورة.

المعلم- لكن يلزمك حصان.

جاك- قد يروق صاحب هذا النزل أن يتخلّى لنا عن واحد من خيوله.

المعلم- نم الآن. وسوف انظر في الأمر.

ونزل معلم جاك فأوعز بإعداد الفطور، واشترى حصاناً وصعد فوجد جاك لابساً. فتناولا فطورهما وانطلقا. وأبدى جاك استياءه، لأن

من نكران الجميل أن يمضي من غير القيام بزيارة مجاملة للمواطن الذي أصيب عند بابه والذي أسعفه بكل أريحية، فطمأنه معلّمه على رهافة حسّه مؤكّداً على أنه كافأ بسخاء اتباع الرجل، الذين حملوه إلى النزل. فقال جاك إن المال الذي أعطي للخدم لا يعفيه مما عليه حيال معلمهم، وإن مثل هذا يوحي للناس بالندم على فعل الإحسان والنفور منه، كما يعود على المرء بإحساسٍ بالجحود. "يا معلمي، إني لأسمع كل ما يقوله ذلك الرجل عليّ، مما كنتَ سأقوله عليه لو كان هو مكاني وأنا مكانه..."

وخرجا من المدينة ليصادفا رجلاً طويل القامة قوي البنية، على رأسه قبعة مطرزة، وملابسه مزينة بشرائط على كافة تفصيلاتها، وهو يمضي وحيداً إذا ما استثنينا كلبين كبيرين يتقدّمانه. وما كاد جاك يبصر به حتى ترجل هاتفاً: "إنه هو!" وارتمى على عنقه كلمح البصر. وبدا الضيق الشديد على الرجل ذي الكلبين من عناق جاك فأبعده عنه بهدوء قائلاً: "يا سيدي، أنت تبالغ في تقديري.

-كلا وكلا! فأنا مدين لك بحياتي، ولا أدري كيف أشكرك.

-أنت لا تعرف من أنا.

-ألست المواطن ذا المروءة الذي أسعفني وفصدني وضمدني، حين قيام حصاني...

-ذلك صحيح.

-ألست المواطن الشهم الذي استردّ الحصان مقابل السعر نفسه الذي باعنيه به؟

-أنا هو." وعاد جاك فقبّله على خده ثم على الخد الآخر، وتبسّم معلمه، فيما بدا على الكلبين الواقفين بانتباه شيء من الطرب لمشهد يريانه للمرة الأولى. وبعد أن أضاف جاك على ما أظهره من مشاعر الفرح والامتنان عدة انحناءات احترام ظلّت بلا ردّ، وكثيراً من التمنيات التي

استُقبِلت ببرود، ركب حصانه وقال لمعلّمه:"أحمل أعمق التقدير حيـال هذا الرجل الذي عليك أن تجعلني أعرفه.

المعلم- ولِمَ هو محترم في نظرك حتى تلك الدرجة، يا جاك؟

جاك- ذلك أنه، وهو لا يعلّق كبير اهتمام على الخدمات التي يؤديـها، لا بدّ أن يكون كريماً بشكل طبيعي، وأن يكون متعوّداً على الإحسان طويلاً.

المعلم- وما الذي جعلك تحكم بذلك؟

جاك- ما بدا عليه من لا مبالاة وبرود وهو يتلقى آيات شكري. لم يـرد على تحيتي قط ولم يجب بكلمة، وبدا كأنه ينكرني، بل ربما يقول فـي نفسه الآن وبشيء من الازدراء: لا بدّ أن يكون الإحسان غريبـاً جـداً على ذلك المسافر، وأن تطبيق العدالة على درجة من المشقة عنده، حتى بدا عليه ذلك التأثّر كله... لكن عسى ألاّ أكون قلتُ كلاماً منافياً للعقـل جعلك تغرق في ذلك الضحك كله؟... مهما يكن من أمر، فقل لي ما اسم ذلك الرجل، حتى أدوّنه في سجل مذكراتي.

المعلم- بكل طيبة خاطر. اكتب.

جاك- قل.

المعلم- اكتب:إن الرجل الذي أكن له أعظم التقدير...

جاك- أعظم التقدير...

المعلم- هو...

جاك- هو...

المعلم- جلاد مدينة

جاك- جلاد!

المعلم- نعم، نعم الجلاد.

جاك- وهل يسعك أن تدلني على ما هو طريف في هذا المزاح؟

المعلم- أنا لا أمزح أبداً. فتابع حلقات السلسلة. كنت بحاجة لحصان، وشـاء القدر أن تتوجه إلى عابر سبيل، وكان ذلك العـابر جـلاداً. فقـادك ذلـك الحصان مرتين إلى منصة أعواد المشانق، وحملك في المرة الثالثة إلى بيت

الجلاد. فوقعت هناك فاقداً وعيك ومن هناك قاموا بحملك إلى أين؟ إلى نزل أو إلى ملجأ أو إلى مأوى عام. هل تعرف، يا جاك، حكاية موت سقراط؟

جاك- كلا.

المعلم- كان حكيماً في أثينا. ومنذ زمن طويل ودور العاقل خطر بين المجانين. فحكم عليه مواطنوه بتجرّع السم. وعليه فقد فعل سقراط مثلما فعلت لتوك، فتصرف حيال الجلاد الذي قدم له السم على طريقتك المهذبة نفسها. عليك أن توافقني يا جاك، على أنك فيلسوف من نوع ما. وأنا أعرف تمام المعرفة أنه صنف من الناس مقيت في نظر الكبار، فهو يأنف أن يجثو أمامهم. ومقيت في نظر القضاة، لأنهم، بحكم واقع الحال، حماة للأفكار المسبقة التي يواصلونها. وفي نظر الكهنة الذين قلّما تقع أعينهم على أولئك الناس في هياكلهم. وفي نظر الشعراء، وهم قوم لا مبادئ لهم، وينظرون للفلسفة نظرة غبيّة وكأنها فأس مسلّطة على الفنون الجميلة، ولا ننسى أنه حتى الذين تناولوا من بينهم نوع النقد الكريه، ما كانوا أكثر من متملّقين. وفي نظر الشعوب التي كان أبناؤها في كل زمان عبيداً للطغاة الذين يضطهدونهم واللصوص الذين يخدعونهم والمهجّرين الذي يُلهونهم. وعلى هذا فأنا أعرف، كما ترى، كل الخطر الكامن في مهنتك وكل الأهمية الكامنة في التصريح الذي أطلبه منك. لكني لن أفرّط بسرّك. جاك، يا صديقي، أنت فيلسوف، ويحزّ ذلك في نفسي من أجلك أنت. وإذا ما كان لنا أن نقرأ في الأشياء الراهنة، تلك التي ينبغي أن تقع يوماً، وإذا كان ما هو مكتوب فوق يتجلّى للناس أحياناً قبل وقوع الحدث بوقت طويل، فأنا أحدس أن موتك سيكون فلسفياً، وأنك ستمسك بالأنشوطة بنفس رضيّة مثلما أمسك سقراط بكأس السم.

جاك- يا معلمي، لا يسع نبياً أن يقول خيراً من ذلك. لكن لحسن الحظ. .

المعلم- أنت لا تؤمن بذلك إيماناً راسخاً. وهذا ما يمنح مزيداً من القوّة لحدسي.

جاك- وأنت، يا سيدي، هل تؤمن بذلك.

المعلم- أؤمن بذلك، غير أني لا أؤمن بأنه سيكون من غير نتيجة.

جاك- لماذا؟

المعلم- ذلك أن الخطر لا يحيق إلا بالذين يتكلمون. وها أنا ألوذ بالصمت.

جاك- وحالات الحدس؟

المعلم- أسخر منها. لكني أعترف بأني أفعل ذلك وأنا أرتعد. فمنها ما هو ذو طابع صارخ جداً! ولقد أسمعونا تلك الحكايات من زمن طويل فنشأنا عليها! فإذا ما تحقّقت أحلامك خمس مرات أو ست، وحصل أن حلمت بأن صديقك مات، فسوف تتوجه إلى بيته مسرعاً منذ الصباح لاستجلاء حقيقة الأمر. لكن حالات الحدس التي يستحيل التوقّي منها، هي تلك التي تأتينا فيما الشيء يجري بعيداً عنا، وهي في لبوس رمزي.

جاك- أنت أحياناً على درجة من العمق والسموّ حتى أني لا أفهمك. ألا يسعك أن توضح لي ذلك بضرب مثل؟

المعلم- ليس ما هو أيسر من ذلك. كانت امرأة تقيم في الريف مع زوجها الذي بلغ الثمانين، والذي يشكو من حصاة في المثانة. فغادر الرجل امرأته قاصداً المدينة طلباً للعلاج. وكتب لزوجته عشية موعد العملية:"في الساعة التي تتلقين فيها رسالتي، أكون تحت مبضع الأخ كوم..." أنت تعرف ذلك النوع من خواتم الزواج الذي يكون مقسوماً قسمين، وعلى كل قسم منهما يحفرون اسم الزوج والزوجة. طيب. كانت تلك المرأة تضع خاتماً من هذا النوع في اصبعها، حين فتحت رسالة زوجها. وفي اللحظة نفسها انفصل قسما دلك الخاتم، أحدهما عن الآخر. فظل القسم الذي يحمل اسمها ثابتاً في إصبعها. وسقط الذي يحمل اسم زوجها مكسراً فوق الرسالة التي تقرؤها..فقل لي، يا جاك،

هل تعتقد أنّ ذا عقل راجح، وروح حازمة بما فيه الكفاية، يصمد أمـــام حادث مماثل وضمن ظرف مشابه؟ وعليه فقد أوشكت تلك المـــرأة أن تلفظ أنفاسها. فدام ذعرها وثورة أعصابها حتى يوم القدوم التالي للبريد، حيث كتب لها زوجها يخبرها أن العملية تمت بنجاح لحسن الحظ وأنـــه يأمل أن يعانقها قبل نهاية الشهر.[1]

جاك- وهل عانقها في واقع الأمر؟

المعلم- أجل.

جاك- طرحت عليك هذا السؤال لأني لاحظت مرّات ومرّات أن القـــدر مراوغ. فالمرء يقول فيه أول مرّة إنه كذب، وتراه في المرة الثانية قـــد قال الحق. وعلى هذا الأساس، يا سيدي، فأنت تعتبرني واقعـــاً ضمـــن حال الحدس الرمزي، وتعتقد، رغماً عنك، أنني مهدّد بميتة الفيلسوف؟

المعلم- لا يسعني أن أخفي عنك ذلك. ولكن، ألا يسعك، لكـــي نســـتبعد هذه الفكرة الكئيبة؟...

جاك- أن استأنف قصة غرامياتي؟..."

واستأنف جاك قصة غرامياته. ولقد تركناه، حسب ظني، مع الجراح.

الجراح- أخشى أن تكون ركبتك بحاجة لعمل يتطلّب أكثر من يوم.

جاك- سوف تتطلّب ما يستغرق الزمن المكتوب فوق تماماً، فما الهمّ؟

الجراح- إن الأجر اليومي للإقامة والطعام ومعالجتي، لا بد أن يشـــكل مبلغاً كبيراً.

جاك- يا دكتور، ليس المقصود المبلغ للفترة كلها، لكن كم الكلفة يومياً.

[1] يروى ديدرو في رسالة إلى صوفي فولان عام 1765 حكاية مريض كان الجـــراح الأح كوم ينتظر موته ليشرّح جثته، فتعافى على نحو ساعت.

الجراح- خمسة وعشرون فلساً. هل ذلك كثير؟
جاك- أكثر من كثير. هيّا، يا دكتور، فأنا رجل فقير: وعليه فلنختزل المسألة حتى النصف، أوعز بأسرع ما يستطيع للعمل على نقلي من هنا.
الجراح- اثنا عشر فلساً ونصف لا تكفي أبداً. ولسوف تدفع ثلاثة عشر فلساً.
جاك- اثنا عشر فلساً ونصف، فثلاثة عشر فلساً...أنا موافق.
الجراح- والدفع كل يوم؟
جاك- هذا هو الشرط.
الجراح- ذلك أن زوجتي من صنف الأبالسة ولا تتقبل المزاح، كما ترى.
جاك- إيه، يا دكتور، اسعَ بنقلي على عجل إلى عند زوجتك التي من صنف الأبالسة.
الجراح- إن شهراً بمعدل ثلاثة عشر فلساً في اليوم يساوي تسعة عشر فرنكاً وعشرة فلوس. فلنقل إذن عشرين فرنكاً؟
جاك- عشرين فرنكاً. لا بأس.
الجراح- وأنت ترغب في غذاء جيد، ورعاية حسنة وأن تشفى بسرعة. ربما يكون هنالك، ماخلا الغذاء والسكن والرعاية، العقاقير، وهنالك الملابس الداخلية، وهنالك...
جاك- وماذا بعد؟
الجراح- أقسم على أن ذلك كله سيساوي أربعة وعشرين فرنكاً.
جاك- ليكن أربعة وعشرين فرنكاً، لكن دون ذيول.
الجراح- شهر بأربعة وعشرين فرنكاً، ذلك يساوي ثمانية وأربعين في شهرين. أما في ثلاثة أشهر فيساوي اثنين وسبعين! آه، كم ستسعد الدكتورة لو كان بوسعك أن تدفع لها سلفة، وأنتَ تدخل البيت، نصف هذه الاثنين والسبعين!
جاك- أقبل ذلك.
الجراح- وهي ستكون أسعد حالاً بكثير أيضاً...

جاك- لو دفعتُ أيضاً ربع السنة؟ سوف أدفعه.

وأضاف جاك يقول: "ذهب الجراح ليرى مضيفيّ، فأحاطهم علماً باتفاقنا، وبعد وقت قصير كان الرجل والمرأة والأولاد قد تجمعوا حول سريري بهيئة مشرقة. وهاك أسئلة لا تنتهي حول صحتي وركبتي، ومدائح تكال لإشبينهم الجراح وزوجته، وتمنيات على مدى البصر مشفوعة بأجمل بشاشة، واهتمام! ومسارعة لخدمتي! لم يكن الجراح في تلك الأثناء قد قال لهم إن لديّ شيئاً من المال، لكنهم يعرفون الرجل. فهو سيأخذني إلى بيته وهم يعرفون ذلك. ودفعت ما يتوجّب عليّ نحو أولئك القوم. وأعطيت إكراميات صباحاً. فخرج المضيف قاصداً حقله، وحملت المضيفة ظَهْرِيّتها[1] على كتفيها ومضت. وتوارى الأولاد محزونين وناقمين لأنهم تعرّضوا للسلب، وحين جاء موعد إخراجي من سريري الحقير وإلباسي ووضعي فوق نقّالتي، لم يكن هنالك سوى الطبيب،الذي أخذ يصيح بأعلى صوته من غير أن يسمعه أحد.

المعلم- أما جاك الذي يحب أن يكلّم نفسه، فقال على ما يبدو:لا تدفع سلفاً أبداً، إذا شئت ألاّ تلقى خدمة سيئة.

جاك- كلا، يا معلمي، فلم يكن الوقت وقت تفسيرات أخلاقية، بل وقت نفاد صبر وشتائم. وعيل صبري فصرت أشتم وبدأت بالتفسيرات الأخلاقية من بعد: وفيما أنا أتفكّر في الأخلاق، رجع الطبيب، بعد أن تركني وحدي، يصحبه فلاحان، استأجرهما لنقلي على حسابي، ولم يدع لي مجالاً لتجاهل ذلك. وقدم لي الرجلان المساعدات الأولية لوضعي فوق ما يشبه حمّالة صنعت من فراش مُدّ فوق عصيّ طويلة.

المعلم- الحمد لله! ها أنت في بيت الجراح، عاشقاً زوجة الطبيب أو ابنته.

جاك- أعتقد، يا معلمي، أنك مخطئ.

المعلم- وتحسبني سأمضي ثلاثة شهور في منزل الطبيب قبل أن أسمع

[1] سلة كبيرة تعلّق بالكتفين وتحمل على الظهر.

أول كلمة عن غرامياتك؟ آه يا جاك، ذلك غير ممكن. أعفني، أرجوك، من وصف المنزل وطبع الطبيب ومزاج الطبيبة[1]، وتدرّجك على درب الشفاء.اقفز، اقفز فوق ذلك كله. إلى الواقعة! هيّا إلى الواقعة! تلك هي ركبتك قد شفيت تقريباً، وها أنت بصحة لا بأس بها فوقعت في الحب.

جاك- إذن وقعتُ في الحب، ما دمتَ في عجلة من أمرك.

المعلم- ومن أحببتْ؟

جاك- إنها طويلة القامة سمراء في الثامنة عشرة، حسنة الخَلْق والخُلُق، ذات عينين كبيرتين سوداوين، وفم صغير قرمزي، وذراعين بديعتين ويدين جميلتين... إيه، يا معلمي، يا ليديها الجميلتين!...ذلك أن تلكما اليدين ..

المعلم- أنت تحسب أنك ما زلت ممسكاً بهما.

جاك- ذلك أنك أمسكتَ أنتَ بهما وقبضتَ عليهما خلسة أكثر من مرة. ولم يحل سواهما بينك وبين أن تفعل كل ما يروقك.

المعلم- أقسم لك يا جاك على أني لم أتوقّع ذلك.

جاك- ولا أنا أيضاً.

المعلم- وعبثاً أفكّر فلا أتذكر من سمراء طويلة ولا يدين جميلتين. حاول أن توضح الأمر.

جاك- أوافق على ذلك. لكن بشرط أن نعود أدراجنا فنرجع إلى منزل الجراح.

المعلم- أتعتقد بأن ذلك مكتوب فوق؟

جاك- أنت الذي ستخبرني به. أما هنا تحت فمكتوب "كي فا بيانوفا سانو[2]".

---

[1] تحمل المرأة الفرنسيه لقب زوجها إذا كان من بعض مراتب السلاء أو يشغل أحد المناصب العالية : دوقه، بارونة، جنرالة، ماريشالة...-م-

[2] مثل إيطالي من كلمتين: من يمضِ بهدوء يمضِ آمناً. ومن يمضِ آمناً يمضِ بعيداً. ويقابله بالفرنسيه. من يريد الذهاب بعيداً، يرعَ مطيته. م.

المعلم- وأن "كي فاسانو فالونتانو." وبي رغبة في الوصول.

جاك- لا بأس. فماذا قررت؟

المعلم- ما تريده أنت.

جاك- في هذه الحال، ها نحن عند الجراح. فقد كان مكتوباً فوق أن نرجع إليه. لقد تضافرت جهود الدكتور وامرأته وأولاده تضافراً جيداً على استنفاد نقودي، حتى أوشكوا على بلوغ الهدف سريعاً. وبدا شفاء ركبتي وقد حقّق تقدماً ملموساً من غير شفاء، والتأم الجرح بصور شبه تامة، حتى صار بوسعي أن أخرج مستعيناً بعكاز، وبقي معي ثمانية عشر فرنكاً. وليس من الناس من يهوى الكلام أكثر من الأعياء، وليس من الناس من يهوى المشي أكثر من العُرْج. وفي يوم خريفي، ارتأيت بعد الغذاء، وكان الطقس جميلاً، أن أقوم بجولة طويلة. وكانت المسافة من القرية التي أقيم فيها إلى القرية المجاورة تقارب الفرسخين.

المعلم- وتلك القرية تدعى؟

جاك- لو سمّيتها لك لعرفت كل شيء. وصلت فدخلت حانة لأستريح وأتبرّد. وبدأ النهار يميل نحو الغياب، فتهيأت للرجوع إلى مأواي، حين سمعت امرأة تطلق صراخاً حاداً. فخرجت وقد تجمهر الناس من حولها. كانت قاعدة على الأرض تشدّ شعرها، وتقول وهي تشير إلى حطام جرة كبيرة: "لقد أفلست، لقد أفلست طيلة شهر كامل. فمن سيطعم أطفالي المساكين طول هذا الوقت؟ والوكيل الذي قلبه أقسى من الحجر، لن يسامحني بفلس واحد. يا لي من شقيّة! لقد أفلست، يا ويلي، لقد أفلست!..." ورقّت لها قلوب الجميع. فكنت لا أسمع من حولها غير: "يا للمرأة المسكينة!" لكني لم أرَ أحداً يمدّ يده إلى جيبه. فاقتربت منها على نحو مباغت وقلت لها: "ماذا جرى لك، يا أخيّة؟ - ماذا جرى لي! ألا تراه بعينيك؟ أرسلوني لأشتري جرّة من الزيت: فزلت بي قدمي، فسقطت، فانكسرت جرتي، وذلك هو الزيت الذي كان يملؤها..." برز في تلك اللحظة أطفال المرأة الصغار وهم شبه عراة، فملابس أمهم الرثة

تعبّر عن بؤس العائلة كله. ثم أخذت المرأة وأطفالها بـالصراخ. وكـان يلزمني وأنا أمام تلك الحال، ما هو أقل بعشر مرات ليحرّك مشـاعري. أحسست بشيء يجيش في أحشائي تحناناً فاغرورقت عيـاي بـالدموع. فسألت المرأة بصوت متهدج كم يساوي سعر الزيت الذي كان في الجـرة. فأجابتني وهي ترفع يديها نحو الأعلى: كما يساوي؟ كـان فيـها بتسـعة فرنكات. أي أكثر مما أستطيع أن أكسب في شهر..." وعلى الفور، حللـت صرت نقودي ورميت لها بإيكوين كبيرين قائلاً: "هاك، يا أخيـة، إليـك باثني عشر..." وسلكت درب القرية من غير أن أنتظر آيات شكرها.

المعلم- لقد جئتَ، يا جاك، عملاً رائعاً هنا.

جاك- لقد جئتُ حماقة، مهما يكن رأيكَ. فلم ابتعد عن القرية أكثر مـن مئة خطوة حتى قلت ذلك في نفسي. ولم أقطع منتصف الدرب حتى قلته أكثر فأكثر، أما حين وصلت إلى منزل الجراح خالي الوفـاض، فقـد شعرت بذلك على نحو مغاير.

المعلم- يمكن أنت تكون على حق، وأن يكون إطرائي في غير مكانـه مثل حنوك... كلا، كلا يا جاك، فأنا مصرّ على حكمي الأول، وتناسـيك لحاجتك الخاصة هو الذي يشكّل الفضل الرئيس لعملك. وأنـا أرى مـا ترتّب عليه: فسوف تغدو عرضة للـروح اللاإنسـانية لـدى جراحـك وامرأته. وسوف يطردانك من بيتهم. لكن حين تغدو مرغماً على الموت فوق مزبلة أمام بابهم، فسوف تكون فوق تلك المزبلة راضياً عن نفسك.

جاك- يا معلمي، ليست بي تلك القوة كلها. سلكت الدرب أمشـي بَيْـنَ بين. نادماً،بما أنه عليّ أن أبوح لك بذلك، على الأيكوين الكبيرين اللذين فقدتهما، وشوّهت بندامتي العمل الذي قمت به. وبلغت نقطة على مسافة متساوية من القريتين وكان النهار قد غاب تماماً، حين خرج مـن بيـن شجيرات العليق التي تحدّ الدرب، ثلاثة لصوص فهجموا علي فرموا بي أرضاً، وفتشوني فذهلوا من ضآلة ما عثروا عليه معي من مـال. لقـد أملوا صيداً ثميناً، ذلك أنهم شهدوا الصدقة التي قمت بها فـي القريـة،

فتخيّلوا أن من يتخلى بتلك السهولة عن نصف ليرة ذهبية لا بد أن يحمل معه أكثر من عشرين. وفي غمرة الغضب الذي استبّد بهم من خيبة آمالهم، ومن تعريضٍ أنفسهم للهلاك على أعواد المشانق من أجل حفنة دراهم، إذا ما أبلغتُ عنهم وتعرّفت عليهم إذا ما قبض عليهم، أخذوا يتشاورون في مسألة قتلي. وسمعوا لحسن الحظ جلبة فهربوا، وخرجت من الورطة ببعض الرضوض والكدمات التي أصابتني نتيجة سقوطي وأثناء عملية سلبي. ابتعد اللصوص ونجوت بجلدي. فبلغت القرية قدر إمكاني: وصلت في الثانية ليلاً، شاحباً، أشعث وقد ازداد الألم في ركبتي، متوجّعاً من أماكن مختلفة نتيجة الضربات التي تلقيتها. أما الطبيب... ولكن ما بك، يا معلمي؟ أنت تكزّ على أسنانك، وتهتزّ كأنّك أمام عدو.

المعلم- أنا هناك في الواقع. أحمل سيفي بيدي وأهجم على اللصوص كي أثأر لك. ولكن قل لي كيف استطاع الذي كتب الملف الكبير أن يكتب أن تلك ستكون مكافأة عمل كريم؟ وكيف لي أنا، ولست سوى بائس مكوَّنٍ من عيوب، أن أتقدّم مدافعاً عنك، في حين أنه هو قد رآك بكل هدوءٍ تتعرض للهجوم والسقوط وسوء المعاملة والضرب والركل، هو الذي ينبغي أن يكون مجمع الكمال الكلي؟...

جاك- على رسلك، على رسلك يا معلمي: فما تتفوّه به يعرّضنا لتهمة الهرطقة.

المعلم- إلامَ تنظر؟

جاك- أنظر إن كان منٍ أحد حولنا قد سمعك... أما الطبيب فقد جسّ نبضي ووجدني محموماً. فرقدت من غير أن أتكلم عن مغامرتي، وأنا أتفكّر فوق سريري الحقير، كيف سأواجه شخصين... رباه! أيّ مخلوقين هما! ليس في جيبي فلس واحد، وليس لديّ أدنى شك في أنهما سيطالبان غداً، حين أستيقظ، بالأجر اليومي حسب الاتفاق.

عند هذا الحد، أحاط المعلم عنق خادمه بذراعيه هاتفاً: "يا عزيزي جاك، ما عساك تفعل؟ ماذا سيحلّ بك؟ إن موقفك ليفزعني.

جاك– اطمئن، يا معلمي، فهاأنذا.

المعلم– لم أفكر بذلك. فقد كنت في الغد بجانبك في منزل الدكتور، ساعة استيقظت فجاءوا يطلبون منك المال.

جاك– نحن، يا معلمي، لا نعرف ممّ نَفْرَح ولا ممّ نَحْزَن في الحياة. فالخير يجلب الشر، والشر يجلب الخير. فنحن نسري في الليل تحت ما هو مكتوب فوق، بحالة غباء في أمانينا وفي فرحنا وفي حزننا على حد سواء. فحين أبكي، أجد نفسي غالباً أني أحمق.

المعلم– وحين تضحك؟

جاك– أجد أيضاً أني أحمق. ومع ذلك لا أستطيع الامتناع عن البكاء ولا عن الضحك: وذلك ما يثير سخطي. حاولت مئة مرة... كنت أمضي الليل ساهراً لا يغمض لي جفن...

المعلم– كلا، كلا، قل لي ماذا حاولت مئة مرة أن تفعل.

جاك– أن أستهزئ بكل شيء. آه. ليتني نجحت في مسعاي.

المعلم– وبم كان سيفيدك ذلك؟

جاك– في أن أتخلّص من الهمّ وأن لا أحتاج لشيء من بعد، وفي أن يجعلني سيد نفسي على نحو تام، وأن أنعم وأنا أضع رأسي على حجر في زاوية من الشارع مثلما أنعم ورأسي على مخدة وثيرة. هكذا أنا في بعض الأحيان. غير أن المصيبة تكمن في أن ذلك لا يدوم، وأني وأنا الصلب والثابت كالصخرة في المناسبات الكبرى، تأتي علي في الغالب مناقضة صغيرة أو إحدى السفاسف فتزعزع كياني. وإنّ ذلك ليدفع بالمرء لأن يصفع نفسه. فتخليت عن ذلك وآثرت أن أكون كما أنا. فرأيت وأنا أتفكّر في الأمر قليلاً، أن النتيجة في النهاية هي هي تقريباً،

وأنا أضيف: ما همّني كيف أنا؟ وهذا رضىً من نوع آخر، أكثر يسراً وأكثر ملاءمة.

المعلم- أما أنه أكثر ملاءمة فذلك أكيد.

جاك- منذ الصباح، أزاح الجراح الستائر المحيطة بسريري: "هات، يا صاح، أرني ركبتك. فأنا ماضٍ اليوم بعيداً." فقلت له بلهجة فيها ألم:

-يا دكتور، أنا أشعر بالنعاس.

-لا بأس. هذا دليل حسن.

-دعني أنام، فلست مهتماً بتغير ضمادي.

-ليس في ذلك من ضير يذكر، فنم.

قال ذلك وأعاد إغلاق الستائر، فلم أنم. بعد ذلك بساعة، جاءت الدكتورة فأزاحت ستائري وقالت لي: "هيا، يا صاح، هاك شرابك المغلي بالسكر. فأجبتها بلهجة متألمة:

-سيدتي الدكتورة، ليست لي فيه من رغبة.

-كُلْ، كُلْ، فسوف تدفع دون زيادة أو نقصان.

-لا أريد أن آكل.

-لا بأس! سيكون ذلك من نصيبي ونصيب أولادي.

قالت ذلك، فأغلقت الستائر، فدعت أولادها. وها هم يجهزون على فطيرتي المطبوخة بالسكر.

أيها القارئ، لو أني توقّفت هنا، لأستأنفَ قصة الرجل الذي لديه قميص واحد، لأنّه ليس له غير جسد واحد، فبودّي أن أعرف ماذا سيكون رأيك؟ أنّي تورّطت في مأزق على طريقة فولتير، أو كما يقال بشكل عامي أكثر، دخلت دخلةً لم أعد أدري كيف أخرج منها، وأني ارتميت في حكاية ملفّقة تلفيقاً، لأكسب شيئاً من الوقت، سعياً وراء وسيلة للخروج من القصة التي بدأتها. لا بأس، أيها القارئ، لكنك

مخطئ من كافة النواحي. فأنا أعرف كيف سيخرج جاك من محنته، وما سأقوله لك عن غوس، الرجل ذي القميص الواحد، لأنه ليس سوى جسد واحد، ليس بحكاية على الإطلاق.

كان ذلك صبيحة عيد العنصرة، حين تلقيت بطاقة من غوس، يتوسّل إليّ فيها أن أزوره في السجن حيث كان محبوساً. وفكّرت وأنا أرتدي ملابسي بمغامرته. وحسبت أن الخياط أو الفران أو بائع الخمور أو صاحب البيت، قد حصل على أمر بإلقاء القبض عليه فوضعه موضع التنفيذ. ووصلت فوجدته في حجرة مشتركة مع أشخاص آخرين ذوي سحنة مشبوهة. فسألته عن حقيقة أولئك الأشخاص.

"الرجل المسنّ الذي تراه واضعاً نظارتيه على أنفه حاذق جداً، يجيد الحساب بتفوق، ويسعى لأن يجعل السجلات التي ينسخها تتساوق مع أرصدته. والمسألة صعبة. ونحن تحدثنا بشأنها، لكن ليس لدي من شك في أنه سينجح.

-وهذا الآخر؟

-إنه أحمق.

-ولكن ماذا أيضاً؟

-إنه أحمق، اخترع ماكنة تقلّد السندات العامة، وهي ماكنة سيئة، ماكنة شريرة يتعاورها الفساد من كل جانب.

-وذلك الثالث الذي يرتدي خلعة ويعزف على الأوتار الغليظة؟

-ليس هنا إلا في حالة انتظار. وقد يُنْقل إلى بيسيتر[1] هذا المساء أو غداً صباحاً، فقضيته ليست بذات بال.

-وأنت؟

-أنا؟ قضيتي أقل منها أيضاً."

قام بعد هذا الجواب فوضع طاقيته على السرير، وفي اللحظة نفسها

[1] ملحق بمشفى العجزة والمصابين بأمراض عقلية، ويستخدم سجناً للمتشردين.

تواري رفاق سجنه الثلاثة. كان غوس ساعة دخولي يرتدي مبذلاً، ويجلس إلى طاولة صغيرة يرسم أشكالاً هندسية ويعمل بكل طمأنينة كأنه في بيته. فقلت وقد صرنا وحدنا. "وأنت، ماذا تفعل هنا ؟

-أنا، إني أعمل، على نحو ما ترى.

-ومن أدخلك إلى هنا؟

-أنا.

-كيف أنت؟

-أجل، أنا، يا سيدي.

-وعلى أي نحو تصرفت في المسألة؟

-على نحو ما كنت سأتصرف حيال شخص آخر. رفعت دعوى على نفسي. فربحتها. ونتيجة للحكم الذي ربحته ضدي والقرار الذي تلاه، قُبِضَ علي فاقتادوني إلى هنا.

-هل أنت مجنون؟

-كلا، يا سيدي، بل قلت لك المسألة على نحو ما هي.

-ألا يسعك أن ترفع دعوى أخرى على نفسك فتربحها، ونتيجة حكم آخر وقرار آخر، يصار إلى الإفراج عنك؟

-"كلا، يا سيدي."

كان عند غوس خادمة جميلة، وقامت لديه على الغالب، بدور النصف الآخر، أكثر من نصفه الآخر. وأدّت تلك القسمة غير العادلة إلى اضطراب في الوئام المنزلي. ورغم أنه من الصعوبة بمكان إزعاج ذلك الرجل، الذي كان يفوق الجميع بقلّة مبالاته بالصخب، فقد آثر أن يفارق امرأته ليعيش مع خادمته. غير أن ثروته كلها كانت تتمثّل بالأثاث والأجهزة والرسوم والأدوات وغيرها من المنقولات. وكان يفضّل أن يخلّف امرأته عارية على أن يخرج صفر اليدين. وهاك المشروع الذي صمّمه، بناء على ذلك. إنه يقوم على كتابة سندات لخادمته، التي ستلاحقه بالدفع فتقيم حجزاً على مقتنياته لبيعها، لتنتقل

المقتنيات من موقع جسر سان ميشيل إلى المسكن الذي نوى أن يستقر فيه بصحبتها. وطرب للفكرة فكتب السندات واستحضر نفسه وكان له وكيلان. وكنت تراه يسعى دائباً من واحد لآخر، ملاحقاً نفسه بكل حمية ممكنة، متشدداً في الهجوم، متراخياً في الدفاع. وها قد حكم عليه بالدفع تحت طائلة العقوبة المنصوص عليها قانونياً. فاستولى بفكره على كل ما يمكن أن يحويه منزله. لكن سير القضية لم يتخذ ذلك المنحى تماماً. لقد كانت صلته بامرأة غنجة شديدة المكر، فبدلاً من أن تطلب تنفيذ القرار على أثاث منزله، طلبت الاقتصاص من شخصه، فعملت على القبض عليه وإلقائه في السجن. وهكذا فإن الأجوبة المغرقة في الغرابة، والتي ردّ بها على أسئلتي، كانت في واقع الأمر صحيحة.

بينما كنتُ أروي لك هذه القصة، التي اعتبرتَها أنت حكاية.. - وماذا عن قصة الرجل الذي كان يرتدي اللباس الرسمي ويعزف لحناً غليظاً؟- أيها القارئ، أعدك بها وعد شرف، فلن تفوتك. لكن اسمح لي بأن أرجع إلى جاك ومعلمه. وصل جاك ومعلمه إلى المنزل الذي سيأويان إليه ليلتهما. فالوقت متأخر. وباب المدينة أغلق. وقد أرغما على التوقف في الضاحية. هنالك، سمعتُ صخباً...

-تقول سمعتُ! أنت لم تكن هنالك. والأمر غير منوط بك.- ذلك صحيح. لا بأس. إنه جاك. . إنه معلمه... هنالك صخب مرعب. وأنا أرى رجلين...

-أنت لا ترى شيئاً. والأمر غير منوط بك، فأنت لم تكن هنالك.- ذلك صحيح.

كان رجلان يجلسان إلى المائدة، يتبادلان الحديث بهدوء أمام باب الغرفة التي يشغلانها. فيما وقفت امرأة، أسندت قبضتيها إلى خاصرتيها، تمطرهما بسيل من الشتائم، فيسعى جاك جاهداً لتهدئة خواطر تلك المرأة، التي لم تكن تصغي لكلمات عتابه المسالمة، بأكثر مما يولي الشخصان اللذان توجّه إليهما الشتائم، بالاً إلى سبابها. كان

جاك يقول لها: "على رسلك، يا أخية، هدّئي من روعك، هيّا نرَ ما حقيقة الأمر؟ فهذا السيدان يبدوان لي من الناس الشرفاء.
-هما من الشرفاء؟ إنهما من الأفظاظ، أناس بلا رحمة ولا إنسانية ولا أي إحساس. فأي ذنب اقترفته حيالهما تلك المسكينة نيكول حتى أساءا معاملتها على ذلك النحو؟ قد تبقى من أثر ذلك كسيحة حتى آخر حياتها.
-قد لا يكون الضرر كبيراً على قدر ما تظنين.
-قلت لك إن الضربة مرعبة. سوف تصاب بالتشويه.
-ينبغي أن نرى. لا بد من إرسال من يطلب الجراح.
-لقد ذهبوا إليه.
-وأن توضع في السرير.
-إنها هناك، وهي تطلق صرخات تقطّع نياط القلب. يا حبيبتي المسكينة نيكول!..."

كانت تتعالى وسط ذلك الصراخ والعويل، نداءات ورنّات أجراس من كلِ حدب وصوب: "يا معلمتنا، يلزمنا نبيذ.. " فتجيب: "ها أنذا." ويرنون من طرف آخر صائحين: "يا معلمتنا، شراشف نظيفة" فتجيب: "ها أنذا، ها أنذا." وعلا من أحد أركان النُزل صوت رجل يصرخ محتداً: "أيها الثرثار الملعون! أيها الثرثار المسعور! بمَ تتدخل؟ حزمت أمرك على أن تجعلني أنتظر حتى غد؟ يا جاك! يا جاك!"

قالت المضيفة لجاك وقد هدأ شيء من ألمها وروعها: "سيدي، دعني، أنت رجل صالح.
-يا جاك! يا جاك!
-امضِ بسرعة. آه لو تدري كم حلّ بتلك المخلوقة المسكينة من مصائب!..
-يا جاك، يا جاك!
-هيا امضِ، هذا، على ما أعتقد، معلمك يناديك.
-يا جاك يا جاك!

ذلك هو في واقع الأمر معلم جاك الذي خلع ملابسه وحده، والجوع يقطّع أحشاءه، وقد عيل صبره لأن أحداً لم يلبِّ طلبه. وصعد جاك، وبعد جاك ببرهة حضرت المضيفة التي بدت بهيئة من الأسى الحقيقي وهي تقول لمعلم جاك: "ألف معذرة منك، يا سيدي، فالحياة حافلة بأشياء لا يمكن تقبّلها. ماذا تريد؟ لديّ فراريج وحمام وضلع أرنب بريّ ممتاز وأرانب:فهذه مقاطعة الأرانب الممتازة. أم أنك تفضّل لحم الطيور المائية؟" وأمر جاك بإعداد العشاء لمعلمه وله وفق المعتاد. فقُدِّم الطعام، وفيما هما يلتهمانه، قال المعلم لجاك:

–قل لي، بحق إبليس، ماذا كنت تفعل هنالك؟

–قد يكون عملاً صالحاً، وقد يكون عملاً طالحاً. فمن يدري؟

–أي نوع من الخير أو من الشر كنت تفعل هنالك؟

–أحول دون تعرّض تلك المرأة للضرب على يد اثنين قاعدين هناك، من بعد أن كسرا ذراعاً واحدة على الأقل لخادمتها.

المعلم– ربما كان خيراً لها هي لو تعرّضت للضرب...

جاك– بل خير لي لعشرة أسباب، وكل واحد منها أفضل من الآخر. فإن أعظم أشكال السعادة التي نعمت بها في حياتي،أنا الذي أكلمك الآن...

المعلم– أنك تعرّضت للضرب؟... ارفع رأسك.

جاك– أجل، يا سيدي، الضرب، الضرب على عارضة الطريق ليلاً، وأنا راجع إلى القرية كما أخبرتك، من بعد أن ارتكبت الحماقة، وفق رأيي أنا، وأديت أفضل عمل وأنا أهب مالي، وفق رأيك أنت.

المعلم– تذكرت... اشرب... وما أصل النزاع الذي عملت على تهدئته هنالك، والمعاملة السيئة التي ألحقت بابنة المضيفة أو خادمتها؟

جاك– أقسم على أني أجهله.

المعلم– تجهل أصل قضية وتتدخّل فيها ! يا جاك، ليس ذلك وفق الحكمة في شيء، ولا وفق العدالة ولا وفق المبادئ...اشرب...

جاك- لست أدري ما حقيقة العدالة، ولا ما هو وفق الأنظمة التي يُلْزِم المرءُ الآخرين بها لصالحه. فأنكر وفق طريقة ما ولا أحول دون قيامي بعمل وفق أخرى. وكافة المواعظ تشبه ديباجات مراسيم المَلِك. فكافة الواعظين يودّون لو طبّق الناس دروسهم، فربما نكون من تأثيرها في حال أفضل. أمّا هم، فمن المؤكّد...الفضيلة.

المعلم- الفضيلة، يا جاك، شيء جميل. فالأشرار والصالحون يمتدحونها...اشرب...

جاك- ذلك أن هؤلاء وأولئك يجدون فيها فائدة لهم.

المعلم- وكيف كانت سعادة عظمى بالنسبة لك في أنك تعرّضتَ للضرب؟

جاك- أمسى الوقت متأخراً وقد تعشّيتَ عشاءً شهياً وأنا كذلك. ونحن الاثنين متعبان. فاسمع كلامي ولْننَمْ.

المعلم- ذلك غير ممكن، فما زال لدى المضيفة ما تقدمه لنا. فاستأنف، بانتظار ذلك، قصة غرامياتك.

جاك- أين كنت منها؟ أرجوك، يا معلمي، أن تضعني على الطريق، لهذه المرة، ولكافة المرات الأخرى.

المعلم- أنا كفيل بذلك، وعلى سبيل الدخول في وظيفتي كملقّن، كنت في سريرك، ولا مال لديك، فارضاً الحظر على نفسك، بينما الدكتورة وأولادها يأكلون فطيرتك المطبوخة بالسكر.

جاك- عندئذٍ سمع صوت عربة تتوقف أمام باب البيت. ليدخل خادم فيسأل: "أليس يقطن هنا رجل مسكين، بل جندي يمشي على عكاز، وقد رجع مساء أمس من القرية المجاورة؟ "فأجابت الدكتورة:

-بلى، فماذا تريد منه؟

-أن أحمله في هذه العربة وآخذه معنا.

-إنه في ذلك السرير. أزح الستائر وكلّمه."

وصل جاك إلى هنا، حين دخلت المضيفة لتقول لهما: "ماذا تريـــدان من حلوى؟
المعلم- ما هو متوفّر لديكم.

وصاحت المضيفة من الغرفة، من غير أن تكلّــــف نفســـها عنـــاء النزول: "يا نانون، هاتي فواكه، وبسكويت ومربيات..."
وقال المعلم للمضيفة: "كنتِ في حالة غيظ شديد قبل قليل.
المضيفة- ومن ذا الذي لا يغتاظ؟ فالمخلوقة المسكينة لم تســـئ إليـــهما بشيء. إذ ما كادت تدخل غرفتهما حتى سمعتها تطلق صرخات، ولكنها صرخات... الحمد لله! فأنا مطمئنة بعض الشيء. فـــالجراح يقـــول إن المسألة بسيطة. لكنها مصابة رغم ذلك بكدمتين كبيرتين، واحـــدة فـــي رأسها والأخرى في كتفها.
المعلم- وهي عندك منذ فترة طويلة؟
المضيفة- منذ خمسة عشر يوماً تقريباً. فقد أهملوها في مركز الــــبريد المجاور.
المعلم- كيف، أهملوها !
المضيفة- إيه! بلى وربّى! فلديك أناس قلوبهم أقسى من الحجارة. لقـــد حسبتُ أنهم سيغرقونها ساعة عبروا فوق النهر الذي يمر قريباً من هنا. فوصلتْ إلى هنا بمعجزة، فاستقبلتها بدافع الشفقة.
المعلم- كم تبلغ من العمر؟
المضيفة- أكثر من سنة ونصف على ما أظن . "
عند تلك الكلمة، انفجر جاك بضحكة مجلجلة وهتف قـــائلاً: "إنـــها كلبة!"

المضيفة– بل هي أجمل حيوان في الدنيا. وأنا لا أعطي حبيبتي نيكول مقابل عشر ليرات ذهبية. يالنيكول المسكينة!

المعلم– السيدة ذات قلب رقيق.

المضيفة– أنت قلتها. فأنا أحرص على حيواناتي وعلى الذين في خدمتي.

المعلم– ذلك شيء حسن. ومن هم الذين أساؤوا معاملة حبيبتك نيكول؟

المضيفة– بورجوازيان اثنان من المدينة القريبة. يتبادلان الحديث بينهما همساً على الدوام، ظناً منهما أن أحداً لا يعرف ما يقولان وأنّ مغامرتهما مجهولة.

لم يمض على وصولهما إلى هنا سوى ثلاث ساعات ولم تفتني كلمة واحدة من قضيتهما كلها. وهي مسلّية، ولولا أنكما مستعجلان على النوم، لرويتُها لكما تماماً على نحو ما قصّها خادمهما على خادمتي التي شاءت الصدفة أن تكون وإياه من نفس البلدة، والتي أعادت سردها على زوجي الذي أخبرني بها. لقد مرّت من هنا حماة أصغر الاثنين سناً، قبل ثلاثة شهور على الأكثر، وقد توجّهت إلى دير في المنطقة لتدخله مرغمة، فلا تعمّر فيه طويلاً. لقد ماتت. وهذا ما يفسر أن الشابين في حالة حداد...لكن ها أنا، على غير دراية مني، ابدأ بقص حكايتهما. فطاب مساؤكم، أيها السادة، وطابت ليلتكم. هل وجدتم النبيذ لذيذاً؟

المعلم– لذيذ جداً.

المضيفة– وهل رضيتم عن العشاء؟

المعلم– نحن في منتهى الرضى. لكن طبق السبانخ كان مالحاً بعض الشيء.

المضيفة– يدي مفرطة أحياناً. ستنعمان بنوم هانئ في شراشف نظيفة. فهي لا تستخدم مرتين أبداً."

قالت المضيفة ذلك وخرجت ورقد جاك ومعلمه في سريريهما وهما يضحكان من الفهم الخاطئ الذي جعلهما يظنان الكلبة ابنة الدار أو

خادمتها، ومن شغف المضيفة بكلبة شاردة ليست عندها إلا منذ خمسة عشر يوماً. وقال جاك لمعلمه وهو يشدّ رباط طاقية النوم على رأسه: "أراهن على أن تلك المرأة لا تحب سوى مدلّلتها نيكول، من بين كل ما هو نابض بالحياة في النزل." فأجابه معلمه: "ذلك ممكن، يا جاك، لكن لننَمْ."

وبينما يخلد جاك ومعلمه للراحة، سوف أفي بوعدي، بحكاية الرجل الذي كان يعزف اللحن الجهير في السجن، بل بالأحرى حكاية رفيقه السيد غوس الذي قال لي:

"هذا الثالث يعمل وكيلاً في دار كبيرة. ووقع في هوى حلوانية في شارع الجامعة. وكان الحلواني رجلاً طيب القلب، وأشد التفاتاً إلى فرنه منه إلى سلوك زوجته. وإذا لم يكن يسبب الارباك لصديقينا العاشقين بشدة غيرته، فقد كان يفعل ذلك بمواظبته على عمله. فماذا يفعلان للتخلص من ذلك القسر؟ قدّم الوكيل لسيده مذكرة يعرض فيها الحلواني على أنه رجل عادم الأخلاق، وسكّير لا يفارق الحانة، وشرس يضرب زوجته، وهي الأكثر نزاهة في النساء وأكثرهن شفاء. فحصل بموجب تلك المذكرة على أمر قطعي بالحبس والحجر على حرية الزوج، فسُلّم الأمر لمأمور التنفيذ للعمل به دون تمهل. وشاءت المصادفة أن يكون المأمور صديق الحلواني. فكانا يذهبان من وقت لآخر إلى دكان بائع المخمور فيأخذ الحلواني المعجنات الصغيرة فيما يشتري المأمور زجاجة النبيذ. ومرّ هذا الأخير بدكان صاحبه، وأمر الحبس في جيبه، فأومأ إليه بالإشارة المعهودة. وها هما يأكلان الفطائر الصغيرة معاً فيتبعانها بجرعات من النبيذ. ويسأل المأمور الحلواني عن شؤون عمله، وكيف هي؟

–على أحسن ما يرام.

-أليس هنالك من قضية مشبوهة؟

-إطلاقاً.

-أليس لديه من أعداء؟

-لا يعرف لنفسه أيّ عدو.

-كيف حياته وعلاقاته مع أقربائه وجيرانه وامرأته؟

-في حال من المودة والصداقة. فقال المأمور:

-إذن من أين جاء الأمر بتوقيفك والذي أحمله في جيبي؟ لو شـئت أن أقوم بواجبي لوضعت القيد فيّ يديك، ولكانت وقفت هناك عربة جاهزة، اقتادك فيها إلى المكان المدوّن في هذه الأمر. خذ واقرأ..."

وقرأ الحلواني فامتقع لونه. فقال المأمور: "اطمئن، ولنتشاور معـاً فقط فيما يمكن أن نقوم به على نحو أفضل لنكون في مأمن، أنا وأنـت. فمن الذي يتردّد كثيراً على دكانك؟

-لا أحد.

-امرأتك مغناج وجميلة.

-أنا أدعها تفعل ما يحلو لها.

-ألا تعرف من أحد يصوب الأنظار إليها؟

-أقسم أن لا. ما لم يكن واحد من الوكلاء، فيأتي ليشدّ يديـها مصافحـاً فيهرف ببعض الترّهات على مسامعها. لكن ذلك في دكاني وأمامي وعلى مرأى من الصنّاع عندي، وأعتقد أنه ليس بينهما من شيء يخلّ بالشرف.

-أنت رجل صافي السريرة.

-ذلك ممكن. لكن من الأفضل للمرء على كافة الوجوه أن يؤمن بنزاهـة امرأته. وهذا ما أفعله.

-وذلك الوكيل، لمن يتبع؟

-للسيد دوسان فلورانتان.

-وعن أية مكاتب صدر الأمر بتوقيفك، حسب ظنك؟

-ربما عن مكاتب السيد دوسان فلورانتان؟

-أنت قلت.

-ويلي! يأكل من ررقي ويعاشر امرأتي ويعمل على سجني، إن ذلك لمغرق في الظلمة ولا يسعني تصديقه!

-أنت رجل صافي السريرة. فكيف تجد امرأتك منذ أيام عدة؟

-كئيبة أكثر منها مرحة.

-والوكيل، هل مضى وقت طويل مذ أن رأيته؟

-البارحة على ما أعتقد. بلى، البارحة.

-ألم تلاحظ شيئاً.

-إني ضعيف الملاحظة. لكن بدا لي أنهما تبادلا إشارات بالرأس وهما يفترقان، وكأن أحدهما يقول نعم فيما يقول الآخر لا.

-وأي رأس كان يقول نعم؟

رأس الوكيل.

-إما أنهما بريئان أو أنهما متواطئان. اسمع يا صديقي. لا تعد إلى بيتك. اهرب إلى أي مكان آمن. إلى المعبد أو إلى الدير، أو أي مكان ترغب فيه ودعني أنا أتصرف. وتذكّر بشكل خاص. .

-أن لا أظهر وأن ألتزم الصمت.

-هو ذاك."

وفي الوقت نفسه أحيط منزل الحلواني بالجواسيس. وُشَاةٌ تحت كافة أنواع الملابس يتوجّهون إلى الحلوانية يسألونها عن زوجها. فتجيب الأول إنه مريض. وتقول للآخر إنه سافر للعيد، ولثالث ذهب لحضور عرس. ومتى سيعود؟ إنها لا تعرف.

في حدود الساعة الثانية صباحاً من اليوم الثالث جاءوا يعلمون المأمور بأنهم شاهدوا رجلاً متلفعاً بمعطفه يفتح الباب المطل على الشارع بكل هدوء، لينسل بهدوء أيضاً إلى منزل الحلواني. فقام المأمور على الفور بصحبة مفوض في الشرطة وصانع أقفال ومعهم عربة وبعض الحرس، بالتوجه إلى المكان. ففتحوا الباب وصعد المأمور والمفوض

-أليس هنالك من قضية مشبوهة؟

-إطلاقاً.

-أليس لديه من أعداء؟

-لا يعرف لنفسه أيّ عدو.

-كيف حياته وعلاقاته مع أقربائه وجيرانه وامرأته؟

-في حال من المودة والصداقة. فقال المأمور:

-إذن من أين جاء الأمر بتوقيفك والذي أحمله في جيبي؟ لو شئت أن أقوم بواجبي لوضعت القيد في يديك، ولكانت وقفت هناك عربة جاهزة، اقتادك فيها إلى المكان المدوّن في هذه الأمر. خذ واقرأ..."

وقرأ الحلواني فامتقع لونه. فقال المأمور: "اطمئن، ولنتشاور معاً فقط فيما يمكن أن نقوم به على نحو أفضل لنكون في مأمن، أنا وأنت. فمن الذي يتردّد كثيراً على دكانك؟

-لا أحد.

-امرأتك مغناج وجميلة.

-أنا أدعها تفعل ما يحلو لها.

-ألا تعرف من أحد يصوب الأنظار إليها؟

-أقسم أن لا. ما لم يكن واحد من الوكلاء، فيأتي ليشدّ يديها مصافحاً فيهرف ببعض الترّهات على مسامعها. لكن ذلك في دكاني وأمامي وعلى مرأى من الصنّاع عندي، وأعتقد أنه ليس بينهما من شيء يخلّ بالشرف.

-أنت رجل صافي السريرة.

-ذلك ممكن. لكن من الأفضل للمرء على كافة الوجوه أن يؤمن بنزاهة امرأته. وهذا ما أفعله.

-وذلك الوكيل، لمن يتبع؟

-للسيد دوسان فلورانتان.

-وعن أية مكاتب صدر الأمر بتوقيفك، حسب ظنك؟

-ربما عن مكاتب السيد دوسان فلورانتان؟

-أنت قلت.
-ويلي! يأكل من رزقي ويعاشر امرأتي ويعمل على سجني، إن ذلك لمغرق في الظلمة ولا يسعني تصديقه!
-أنت رجل صافي السريرة. فكيف تجد امرأتك منذ أيام عدة؟
-كئيبة أكثر منها مرحة.
-والوكيل، هل مضى وقت طويل مذ أن رأيته؟
-البارحة على ما أعتقد. بلى. البارحة.
-ألم تلاحظ شيئاً.
-إني ضعيف الملاحظة. لكن بدا لي أنهما تبادلا إشارات بالرأس وهما يفترقان، وكأن أحدهما يقول نعم فيما يقول الآخر لا.
-وأي رأس كان يقول نعم؟
رأس الوكيل.
-إما أنهما بريئان أو أنهما متواطئان. اسمع يا صديقي. لا تعد إلى بيتك. اهرب إلى أي مكان آمن. إلى المعبد أو إلى الدير، أو أي مكان ترغب فيه ودعني أنا أتصرف. وتذكّر بشكل خاص...
-أن لا أظهر وأن ألتزم الصمت.
-هو ذاك."

وفي الوقت نفسه أحيط منزل الحلواني بالجواسيس. وشُاةٌ تحت كافة أنواع الملابس يتوجّهون إلى الحلوانية يسألونها عن زوجها. فتجيب الأول إنه مريض. وتقول للآخر إنه سافر للعيد، ولثالث ذهب لحضور عرس. ومتى سيعود؟ إنها لا تعرف.

في حدود الساعة الثانية صباحاً من اليوم الثالث جاءوا يعلمون المأمور بأنهم شاهدوا رجلاً متلفعاً بمعطفه يفتح الباب المطل على الشارع بكل هدوء، لينسل بهدوء أيضاً إلى منزل الحلواني. فقام المأمور على الفور بصحبة مفوض في الشرطة وصانع أقفال ومعهم عربة وبعض الحرس، بالتوجه إلى المكان. ففتحوا الباب وصعد المأمور والمفوض

دون إحداث جلبة. قرع باب غرفة الحلوانية: ما من مجيب. قرع مجدداً: لا جواب. في المرة الثالثة جاء الجواب من الداخل: "من هذا؟

-افتحوا.

-من هذا؟

-افتحوا، بأمر من الملك.

فقال الوكيل للحلوانية وكان ينام معها: "طيب، لا ضير من ذلك، إنه المأمور جاء ينفّذ الأمر الذي تلقّاه. افتحي: سأعلن له عن اسمي فينسحب وتختم الرسالة."

فتحت الحلوانية الباب وهي بقميص النوم ثم عادت إلى سريرها.

المأمور- أين زوجك؟

الحلوانية- ليس هنا.

المأمور (وقد أزاح الستار)- ومن ذاك إذن؟

الوكيل- هذا أنا. إني وكيل السيد دوسان فلورانتان.

المأمور- أنت تكذب. إنّك الحلواني، لأن الحلواني هو الذي ينام مع الحلوانية. انهض فالبس واتبعني.

وكان عليه أن يطيع فاقتيد إلى هنا. وأحيط الوزير علماً بنذالة وكيله فاستحسن تصرف المأمور الذي ينبغى أن يأتي مساء مع مغيب الشمس ليأخذه من هذا السجن وينقله إلى بيسيتر، حيث سيأكل، بسبب تقتير الإداريين، جرايته من الخبز الرديء مع أونصة من لحم البقر ويعزف ألحانه الجهيرة من الصباح إلى المساء..." ولو ذهبتُ أنا أيضاً لأضع رأسي على المخدة، بانتظار أن يستيقظ جاك ومعلمه، فماذا ترى؟

استيقظ جاك باكراً في صبيحة اليوم التالي، فقرّب رأسه من النافذة ليرى حال الطقس، ورأى أنه طقس سيئ، فرقد مجدّداً، وتركنا ننام، أنا ومعلمه، ما طاب لنا.

ظنّ جاك ومعلمه والمسافرون الآخرون الذي توقفوا في المنزل نفسه، أن السماء سوف تنقشع حوالي الظهر. لكن ذلك لم يكن. أما وقد زاد المطر والعاصفة من ضخامة الساقية التي تفصل الضاحية عن المدينة، إلى حد غدا معه عبورها خطراً، فإن كافة الذين كان الطريق يقودهم من ذلك الصوب آثروا التّريث يوماً والانتظار. فانخرط البعض في الحديث، والبعض الآخر في التحرك ذهاباً وإياباً، فالوصول إلى الباب والنظر إلى السماء، فالدخول وهم يشتمون ويخبطون الأرض بأقدامهم. وانخرط كثيرون في الحديث على السياسة وفي الشراب. وعديدون جلسوا يقامرون. والباقون يدخنون أو ينامون أو لا يفعلون شيئاً. وقال المعلم لجاك: "أملي أن جاك سيستأنف سرد قصة غرامياته، وأن السماء التي شاءت أن أنعم بسماع نهايتها، سوف تحتجزنا هنا بالطقس الرديء.

جاك– السماء التي شاءت! إننا لا نعرف أبداً ما تريده السماء وما لا تريده، وقد لا تعرف شيئاً هي نفسها. إن رئيسي المسكين الذي لم يعد في الوجود، كرّر ذلك على مسمعي مئات المرات. وكلما عشت تبيّن لي أنه كان على حق...الكلام لك يا معلمي.

المعلم– فهمت. كنت عند العربة والخادم الذي قالت له الدكتورة أن يزيح الستار ويكلمك.

جاك– اقترب ذلك الخادم من سريري وقال لي: "هيا، يا رفيقي، قِفْ، فالْبِسْ ولنمضِ." فأجبته من تحت الشراشف والغطاء الذي كنت أدثّر به رأسي، من دون أن أراه أو يراني: "أيها الرفيق، دعني أنام وأنصرف." فأجابني الخادم أنه يحمل أوامر من سيده وأن عليه أن ينفّذها.

"وهل أمَر سيّدك، الذي طلب رجلاً لا يعرفه، بدفع ما أنا مدين به هنا؟

-ذلك أمر مفعول. فاستعجلْ. الجميع في القصر ينتظرونك، وأنا ضامن لك أنّك ستكون في حال أفضل من هنا، إذا ما طابَقَتِ النتيجةُ الرغبةَ التي أبداها الجميع في رؤيتك."

فاقتنعت ونهضت ولبست، وأسندوني من ذراعي. قمت بوداع الدكتورة وتوجّهت لأصعد العربة، وحين اقتربت تلك المرأة منّي جذبتني من كمّي، ورجتني أنِ نتوجّه إلى ركن من الغرفة لأن لديها ما تقوله لي. قالت:"لا أعتقد أبداً، أيها الصديق، أنّ لديك ما تشكو منه حيالنا، فالدكتور أنقذ ساقك، وأنا أوليتك عناية حسنة وأملي أن لا تنسانا وأنت في القصر.

-ماذا يسعني أن أفعل حيالكم؟

-أن تطلب أن يذهب زوجي للطبابة. فهنالك كثير من الناس! إنهم أفضل زبائن في المقاطعة. والسيّد رجل كريم وهو يدفع أعلى الأجور. ولا يتوقف نجاحنا وإثراؤنا إلاّ عليك. ولقد سعى زوجي مراراً وتكراراً في أن يجد لنفسه منفذاً إلى هناك، لكن دون جدوى.

-لكن، يا سيدتي الدكتور، أليس في القصر من جرّاح؟

-بالتأكيد.

-ولو كان ذلك الطبيب زوجك، فهل يروقك أن يُستغنى عنه ويُسرَّح؟

-ذلك الجراح رجل، لستَ مديناً له بشيء، وأعتقد أنك مدين بشيء لزوجي:إذا كنت تسعى على قدمين كالسابق، فذلك من فعله.

-وبما أن زوجك أحسن إليّ فهل ينبغي أن أُسيء أنا إلى رجل آخر؟ لو أن المكان شاغر..."

كان جاك مزمعاً أن يواصل كلامه حين دخلت المضيفة حاملة نيكول بين ذراعيها وهي مقمّطة. كانت تقبّلها وتحنو عليها فتلاطفها

وتكلمها كأنها طفلتها:"حبيبتي نيكول، لم تصرخ سوى مرة واحدة طـــول الليل. وأنتم، أيها السادة، هل نعمتم بنوم هانئ؟

المعلم- هانئ جداً.

المضيفة- الجو مكفهر من كافة الجهات.

جاك- ذلك لا يسوءنا.

المضيفة- هل يقصد السيدان مكاناً بعيداً؟

جاك- لسنا ندري.

المضيفة- هل يتبع السيدان شخصاً ما؟

جاك- نحن لا نتبع أحد.

المضيفة- يمضيان أو يتوقفان، وفق الشؤون التي لديهما على الطريق؟

جاك- ليس لدينا أي شأن.

المضيفة- السيدان مسافران للاستمتاع؟

جاك- أو للعناء.

المضيفة- آمل أن يكون للأول.

جاك- أملكِ لن يجدي فتيلاً. سيكون وفقاً لما هو مكتوب فوق.

المضيفة- آه، إنه بقصد الزواج؟

جاك- ربما نعم وربما لا.

المضيفة- خذوا حذركم، أيها السادة. فالرجل الذي ترونه هناك، والـــذي أساء معاملة محبوبتي المسكينة نيكول، تزوج زواجاً مثيراً للســـخرية... تعالي، يا مخلوقتي المسكينة، تعالي أقبلك. أعدك أن ذلك لن يقـــع مـــن بعد. انظروا كيف ترتعش بكافة أطرافها.

المعلم- وماذا في زواج ذلك الرجل من غرابة؟

لدى ذلك السؤال من معلم جاك، قالت المضيفة: "أسمع جلبة هنـــاك، سوف أصدر تعليماتي لأعود فأروي لكم كل ذلك..." أما زوجها الـــذي

أعياه الصياح: "يا زوجتي، يا زوجتي،" فصعد ومعه اشبينه الذي لم يكن يراه. قال المضيف لزوجته: "آخ! مـــاذا كنـــتِ تفعليـــن هنـــاك بحـــق إبليس؟..." ثم استدار فلمح اشبينه: "هل جئتني بالمال؟

الإشبين- كلا، يا اشبيني، فأنت تعرف حق المعرفة أن لا مال لديّ.

المضيف- لا مال لديك؟ سأعرف تماماً كيف أصنع مالاً من محراثـــك وخيولك وأبقارك وسريرك. فكيف أيّها الوغد !...

الإشبين- لست بوغد البتة.

المضيف- ما أنتَ إذن؟ أنت غارق في البؤس ولا تدري من أين تـــأتي بما يبذر أرضك، أما المالك الذي أُرْهِقَ من تسليفك فلم يعد راغباً فـــي إعطائك شيئاً من بعد. فجئت إليّ. فتدخّلت هذه المرأة. هـــذه المـــهذارة الملعونة التي تسبّبت في كافة الحماقات التـــي ارتكبتـــها فـــي حيـــاتي، فحملتني على إقراضك فأقرضتك. فوعدْتَني بالتسديد. فـــأخلفتَ عشـــر مرات. آخ. أما أنا فأعدك بأن لا أُخطئ فيك الهدف. اخرج من هنا ."

كان جاك ومعلمه يستعدان للتدخل فى صالح ذلك الرجل المســـكين. لكن المضيفة أشارت إليهما بالتزام الصمت وهي تضع إصبعـــها علـــى شفتيها.

المضيف- اخرج من هنا.

الإشبين- يا اشبيني، كل ما قلته صحيح. وصحيـــح أيضـــاً أن حُجّـــاب التنفيذ الآن في بيتي، وأننا سنتحوّل، بين لحظة وأخرى، أنا وبنتي وابني على المخلاة، فندور نتسوّل.

المضيف– ذلك هو المصير الذي تستحقه. فماذا جئت تفعل عندي منذ الصباح؟ بعد أن انتهيتُ من تعبئة النبيذ، صعدتُ من القبو فلم أجدك. قلت لك اخرج من هنا.

الإشبين– يا اشبيني، جئت مبكراً. فخشيت من الاستقبال الذي أعددته لي. فعدت أدراجي. وها أنا ماضٍ.

المضيف– حسناً تفعل.

الإشبين– تلك هي إذن ابنتي المسكينة مارعريت، العاقلة جداً والجميلة جداً، التي ستذهب لتخدم بصفة أجيرة في باريس.

المضيف– تخدم أجيرة في باريس تريد إذن أن تصنع منها شقيّة

الإشبين– لست أنا الذي أريد ذلك، بل الرجل القاسي الذي أتحدث إليه.

المضيف– أنا رجل قاسٍ ! لم أكن كذلك قط: ولن أكون كذلك أبداً. وهذا ما عرفه جيداً.

الإشبين– لم أعد بقادر على إعالة ابني وبنتي. فبنتي ستخدم كأجيرة وابني سيتطوع في الجيش.

المضيف– وأنا الذي سأكون السبب في ذلك. وهذا ما لن يكون. أنت رجل قاس. وسوف تظلّ مصدر عذابٍ لي ما دمتُ حياً. هاتِ نرَ ما يلزمك.

الإشبين– لا يلزمني شيء. ويؤسفني أني مدين لك، لن أدان لك طيلة حياتي. فأنت بشتائمك تسبّب من السوء، أكثر مما تفعل بخدماتك من ا لخير، بكثير. لو كان لدي من مال لقذفته في وجهك، لكن لا مال لدي أبداً. ستغدو ابنتي ما يروق الله أن تغدو. وابني سيمضي ليموت إذا لزم الأمر. وأنا سوف أتسوّل. لكني لن أقف على بابك. لا منّة عليّ، لا مِنّة عليّ بعد اليوم لرجل فظ مثلك. املأ جيوبك مالاً بثمن ثيراني وخيولي وآلاتي الزراعية: فهنيئاً لك ذلك. أنت خُلقت لتصنع أناساً جاحدين، غير أني لن أكون جاحداً. فالوداع.

المضيف– يا زوجتي. إنه ماضٍ. ولكن أوقفيه.

المضيفة– هلم، يا اشبيني، فلنفكّر في وسائل مساعدتك.

الإشبين- لا أريد مساعدات منه أبداً، فهي باهظة التكاليف..."

كان المضيف يكرر القول لامرأته: "لا تدعيه يذهب. أوقفيه. ابنته في باريس! وابنه في الجيش! وهو على باب الأبرشية!! لا أستطيع أن أتحمّل ذلك."

بذلت زوجته في تلك الأثناء جهوداً بلا طائل. فالفلاح ذو قلب نبيل، فلم يشأ أن يقبل وكان يدافع أربعة يمسكون به. وتوجه المضيف نحو جاك ومعلمه يرجوهما قائلاً ودموعه تنهمر: "يا سادة، اسعوا لثنيه عن عزمه." وتدخل جاك ومعلمه في القضية. واستحلف الكلُّ الفلاح مجتمعين. – لو أني رأيت طول حياتي... –لو أنك رأيت طول حياتك! ولكنك لم تكن هناك. قل لو أن المرء رأى طول حياته ! – طيب، لا بأس. لو أن المرء رأى طول حياته، رجلاً، أخزاه رفض ماله، ليفعمه قبوله من بعد فرحاً، فهو ذلك الرجل. كان يقبّل زوجته فيقبّل جاك، فيقبّل معلمه، فيهتف: "اذهبوا إلى بيته بسرعة واطردوا أولئك السفلة من حُجّاب التنفيذ.

الإشبين- وافقني القول أيضاً...

المضيف- أوافقك القول إني أفسد كل شيء. لكن ماذا تريدني أن أفعل. ها أنا مثلما تراني. صنعتني الطبيعةُ الإنسان الأكثر قسوةً والأكثر رقة. فلا أجيد أن أمنح ولا أن أرفض.

الإشبين- ألا يسعك أن تصير مختلفاً؟

المضيف- بلغت السن التي لا يُصلَح الإنسان فيها أبداً. لكن لو أن الأوائل الذين تعاملوا معي وبّخوني على نحو ما فعلتَ أنت، لصرتُ على الأرجح أفضل. يا اشبيني، أشكرك على أمثولتك، فربما انتفعتُ بها... يا امرأة، هيا

أسرعي، انزلي واعطيه ما يلزمه. يا للشيطان، امشي، تحركي، استحلفك بالله. امشي! ... يا امرأة... أرجوك أن تستعجلي قليلاً فلا تجعليه ينتظر، فتعودين من بعد للقاء هؤلاء السادة الذين طابت لك صحبتهم على ما أرى..."

نزلت المرأة والإشبين. ولبث المضيف بعض الوقت. وحين مضى، قال جاك لمعلمه: "ذلك رجل فريد في نوعه! لقد شاءت السماء التي أرسلت هذا الطقس الرديء، أن تستبقينا هنا لتجعلك تسمع قصة غرامياتي، فماذا عساها تريد الآن؟"

أجاب المعلم وهو يتمدّد فوق أريكته، فيتثاءب ثم يتناول علبة نشوقه: "يا جاك، ما زال أمامنا أكثر من يوم نمضيه معاً، ما لم.

جاك– أي أن السماء تريد مني اليوم أن ألوذ بالصمت أو أن تتولى المضيفة الكلام. إنها مهذارة لا تتمنى غير ذلك. إذن فلتتكلم.

المعلم– أرى مزاجك يتعكّر.

جاك– ذلك أني أحب الكلام أيضاً.

المعلم– سيجيء دورك.

جاك– وقد لا يجيء.

سمعتك أيها القارئ. فأنت قلت إن تلك هي الخاتمة الحقيقية لمسرحية "المحسن الفظ"[1]. وهذا ما أراه. لو أني كتبت تلك المسرحية لأدخلت فيها شخصاً سيعتبرونه مرحلياً، أما هو فليس كذلك البتة. كان ذلك الشخص سيظهر أحياناً، وكان ظهوره سينجم عن سبب. كان سيأتي في المرة الأولى مستعطفاً. لكن الخوف من إساءة استقباله سيدفع به إلى الخروج قبل أن يصل جيرونت. أما في المرة الثانية فقد استجمع شجاعته، تحت تأثير الدخول المباغت لحجّاب التنفيذ إلى بيته، فانتظر

[1] عنوان مسرحية غولدوني، قدّمت بنجاح في باريس عام 1771.

وصول جيرونت. لكن هذا الأخير سيرفض أن يراه. وكنت سأقوده أخيراً نحو الخاتمة، وسيكون له، مثل الفلاح، بنت ينوي أن يودعها عند بائعة ملابس وسواها، وابن يريد أن يخرجه من المدرسة ليتطوّع في الجيش. أما هو فعازم على التسوّل إلى أن يسأم الحياة. وكنا سنرى المحسن الفظ راكعاً عند قدمي ذلك الرجل. وكنا سنسمعه يتلقى التوبيخ على النحو الذي يستحقه. وكنا سنجده مرغماً على التوجّه إلى كافة أفراد الأسرة الذين يحيطون به، لثني المدين عن عزمه وإرغامه على القبول بمساعدات جديدة. كان المحسن الفظ سيتعرّض للعفوية، فيقطع عهداً على إصلاح نفسه، غير أنه في اللحظة نفسها يعود إلى طبعه حين تثور ثائرته على الأشخاص الذين في المشهد، والذين يتبادلون مراسم المجاملة للدخول إلى المنزل فيصيح على نحو مباغت: "ألا فليذهب الشيطان بالمرا ـــ .لكنه سيتوقف بغتة قبل أن يتمّ كلمته، ليقول بلهجة رقيقة جداً لبنات شقيقه: "هيّا بنا، يا أحبتي، لنتماسك بالأيدي وندخل." – ولكي يكون ذلك الشخص مرتبطاً بالعمق، كنت ستجعله تحت حماية ابن شقيق جيرونت– تماماً– وسيقوم العم بإقراض ماله نزولاً عند رجاء ابن شقيقه؟ – شيء رائع – ويكون ذلك القرض مبرّر شكوى العم من ابن شقيقه؟– كذلك تماماً – ولا تكون خاتمة تلك المسرحية الممتعة، تكراراً عاماً، تشارك فيه الأسرة كلها مجتمعة، لما فعله من قبل مع كل واحد منهم منفرداً؟– أنت على حق – وإذا ما لقيت السيد غولدوني فسوف أسرد له مشهد النزل – وحسناً تفعل. فهو رجل أكثر مهارة مما ينبغي لكي يستطيع المرء استغلاله.

صعدت المضيفة مجدداً، ونيكول بين ذراعيها على الدوام، فقالت: لي أمل في أن يكون غداؤكم شهياً. فالصياد حضر لتوّه. أما حارس أراضي السيد فلن يتأخر..." وفيما هي تقول ذلك تناولت كرسياً. وما إن جلست حتى بدأت حكايتها.

المضيفة– ينبغي الحذر من الخدم. فليس للمعلمين غيرهم من أعداء الداء...
جاك– سيدتي، أنت لا تدرين ما تقولين. هناك الطيبون وهناك الخبيثون، وقد يجد المرء من الخدم الطيبين اكثر من المعلمين الطيبين.
المعلم– أنت يا جاك لا تحترز وها أنت تقع في نفس الزلّة التي أثارت حفيظتك.
جاك– ذلك أن المعلّمين...
المعلم– ذلك أن الخدم...

طيب، أيها القارئ، ما الذي يمنعني من إثارة نزاع عنيف بين أولئك الأشخاص الثلاثة؟ وأن يمسك جاك بالمضيفة من كتفيها ليدفع بها خارج الغرفة، وأن يمسك المعلم بجاك من كتفيه فيطرده. وأن يمضي أحدهما من هذه الجهة والآخر من الجهة الأخرى. وأن لا تسمع أنت قصة المضيفة ولا تتمة حكاية غراميات جاك.؟ اطمئن، فلن أفعل شيئاً من ذلك. فاستأنفت المضيفة تقول: –فلنعترف بأنه إذا كان هنالك من رجال خبيثين جداً فهنالك نساء خبيثات جداً.
جاك– وبأنه لا ينبغي الذهاب بعيداً للعثور عليهن.
المضيفة– وفيم تتدخل أنت؟ فأنا امرأة، ويناسبني أن أقول على النساء كل ما يطيب لي. فلا حاجة بي لموافقتك.
جاك– موافقتي ليست أقل قدراً من سواها.
المضيفة– لديك هنا، يا سيدي، خادم يتعالى عليك ويهينك. وأنا أيضاً عندي خدم، لكنني أرغب حقاً في أن يكونوا متنبّهين ! ...
المعلم– الزم الصمت، يا جاك، ودع السيدة تتكلم.

تشجّعت المضيفة بكلام معلم جاك، فوقفت لتخاصم جاك، ووضعت قبضتيها على خاصرتيها، ناسية أنها تمسك بنيكول، فأرختها، فوقعت نيكول على البلاط، وتكوّمت تتخبط في أقمطتها، تطلق عواء يصم الآذان، والمضيفة تمزج صراخها بعواء نيكول، وجاك يمزج انفجار ضحكاته بعواء نيكول وبصراخ المضيفة، ومعلم جاك يفتح علبة نشوقه، فيأخذ قبصة منها ولا يقوى على كتم ابتسامة. وها هو النزل في حالة اضطراب وجلبة. "يانانون، يا نانون، أسرعي، هاتي زجاجة الكحول... مسكينتي نيكول ماتت... فكّوا أربطتها... كم أنتِ خرقاء !

- كم تصرخ !ابتعدي من هناك، دعيني أتصرّف...لقد ماتت...

اضحك ما طاب لك، أيها الأبله الكبير. هناك في الواقع ما يستدعي الضحك... مسكينتي نيكول قد ماتت !

-كلا، يا سيدتي، كلا، أعتقد أنها ستنجو. فها هي تتحرّك.

وشرعت نانون تفرك أنف الكلبة بالكحول وتجعلها تبتلع شيئاً منه. والمضيفة تتأوه وتصبّ جام غضبها على الخدم الوقحين، ونانون تقول: "هاك، يا سيدتي، إنها تفتح عينيها. هاهي تنظر إليك.

-يا للمخلوقة المسكينة، كأنها تتكلم ! من لا يرقّ قلبه لذلك؟

-ولكن، يا سيدتي، لا طفيها قليلاً. أجيبيها بشيء ما.

-تعالي، يا حبيبتي نيكول. صيحي، يا بنيّتي، صيحي إن كان ذلك يريحك. للبهائم قَدَرٌ كما للبشر. فيبعث بالهناء لبهائم خاملة ومشاكسة، أو صياحة وشرهة، ويرسل الشقاء لأخرى هي أفضل مخلوق في الدنيا.

-سيدتي على حق تماماً، فليس من عدالة في هذا العالم أبداً.

-اخرسي، قمّطيها مجدداً واحمليها حتى مخدتي، واعلمي أنك مسؤولة أمامي عن أية صرخة تصدر عنها. تعالي، يا صغيرتي

المسكينة أُقبِّلك مرة أيضاً قبل أن يأخذوك. ولكن قرّبيها مني، يا لك من غبية...تلك الكلاب، إنها رائعة جداً، وهي أفضل...

جاك- من الأب والأم والأخوة والأخوات والأولاد والخدم والزوج...

المضيفة- بكل تأكيد، ولا تظنّن أنك تهزأ. فهي بريئة وهي وفيّة، وهي لا تسبّب لك أيّ أذى، في حين أن البقية...

جاك- عاشت الكلاب ! فليس ما هو أكمل منها تحت قبة السماء.

المضيفة- إن كان هنالك شيء أكثر منها كمالاً، فليس هو الإنسان على أقل تقدير. كم أتمنى لو أنك تعرف كلب الطحان. إنه عشيق نيكول. فليس بينكم من واحد، جميعكم مهما كنتم، ألا ويجعله يحمرّ خجلاً. فهو يأتي منذ بزوغ الفجر، عن بعد يزيد على فرسخ. فيقف ثابتاً أمام تلك النافذة. ويبدأ بتأوهات، ولكنّها تأوهات تستدر العطف. ويظلّ، مهما كان الطقس. فينهمر المطر على جسده، ويبدأ جسده يغوص في الرمل. حتى لا يكاد يظهر منه سوى الأذنين وطرف الأنف. فهل تفعلون مثل هذا حيال المرأة التي تعشقونها أكثر؟

المعلم- ذلك هو منتهى الظرف.

جاك- ولكن أين هي أيضاً المرأة الجديرة بمثل ذلك الاهتمام الذي تحظى به نيكول؟

لم يكن شغف المضيفة بالحيوانات، الهوى الوحيد المسيطر لديها، كما يحلو للمرء أن يظن. بل كان شغفها بالكلام. وكلما أبدى السامع متعة في الإصغاء إليها وصبراً على الإصغاء كانت قيمته أكبر. وعليه فلم تنتظر أن ترتجى لكي تستأنف قصة الزواج الغريب المقطوعة. ولم تضع غير الشرط في أن يلوذ جاك بالصمت. فوعد المعلم بالصمت عن جاك. فاسترحى جاك لا مبالياً في الركن، مغمض العينين، وقبعته نازلة على رأسه حتى أذنيه وظهره نصف مدار صوب المضيفة. وسعل المعلم وبصق ونفّ وسحب ساعته فنظر كم الوقت ثم سحب علبة نشوقه

فدقّ على غطائها فأخذ قبصته من النشوق. لتباشر المضيفة الاستمتاع بالخطابة بإطناب ولذّتها العذبة.

أوشكت المضيفة أن تبدأ حين سمعت كلبتها تصرخ.

-نانون، هيا انظري في أمر تلك البهيمة المسكينة...إن ذلك ليسبب لي ارتباكاً، فلا أعود أدري أين كنت.

جاك- أنت لم تقولي شيئاً بعد.

المضيفة- ذانك الرجلان اللذان كنت في نزاع معهما بسبب حبيبتي نيكول، حين وصلتم، يا سيدي...

جاك- قولي يا سادتي.

المضيفة- ولماذا؟

جاك- ذلك أنهم عاملونا حتى الآن بهذا النوع من اللباقة فتعودّت عليه. فمعلمي يدعوني يا جاك، والآخرون يا سيد جاك.

المضيفة- أنا لا أدعوك جاك ولا سيد جاك، فأنا لا أتحدّث إليك.

(سيدتي؟ – ماذا؟ – أين بطاقة رقم خمسة؟ – انظر فوق زاوية الموقد.)

ذانك الرجلان من النبلاء الأصلاء. لقد قدما من باريس ويقصدان أرض الأكبر سناً.

جاك- من يعرف ذلك؟

المضيفة- هما يقولانه.

جاك- يا له من سبب وجيه ! .

أومأ المعلم للمضيفة بإشارة فهمت منها أن ذهن جاك مشوّش. فردت المضيفة على إشارة المعلم بحركة من كتفيها تعبّر عن الشفقة، فقالت: "في سنّه! ذلك مؤسف جداً.

جاك- المؤسف جداً أن لا يعرف المرء أبداً إلى أين هو ذاهب.

المضيفة- الأكبر سناً من الاثنين يدعى المركيز ديزارسي. كان رجل مباهج، محبوباً جداً، وقلّما آمن بفضيلة النساء.

جاك- كان على حق.

المضيفة– يا سيد جاك، أنت تقاطعني.
جاك– سيدتي مضيفة "الوعل الكبير"[1] أنا لا أتحدث إليك.
المضيفة– ومع ذلك عثر المركيز على امرأة غريبة الأطوار قدرت على أن تحفظ له الضغينة. واسمها مدام دولابومريه. كانت أرملة ذات أخلاق، وأصل نبيل، ثرية ورفيعة المقام. فقطع السيد ديزارسي علاقاته مع كافة معارفه ليتعلّق قلبه بمدام دولابومريه فقط، فواظب على خطب ودها مواظبة شديدة، وسعى بكافة أشكال التضحية الممكن تصوّرها لأن يبرهن لها على حبه، بل عرض عليها أن يقترن بها. غير أن تلك المرأة كانت على درجة من الشقاء في زواجها الأول، حتى أنها... *(يا سيدتي؟ – ماذا؟ أين مفتاح خزنة الشوفان؟ – انظر المسمار، وإلا فانظر في الخزانة)* أنها أضحت تفضّل أن تعرّض نفسها لكافة أصناف الشقاء على أن تخاطر بزواج ثان.
جاك– آه ! لو أن ذلك كان مكتوباً فوق !

عاشت تلك المرأة في عزلة شديدة. وكان المركيز صديقاً قديماً لزوجها، فاستقبلته وواصلت استقباله. وإذا كان وجد من عذره على سلوكه الغَزِل حيال النساء فهو من جانب آخر رجل ذو مروءة. وكان لملاحقة المركيز المستمرّة، مدعّمة بمناقبه الشخصية وفتوته وملاحة وجهه، ومظاهر الهوى الصادق، وعزلته ومظاهر العطف لديه، أي باختصار، بكل ما يجعل منّا لقمة سائغة في فم الإغواء الرجولي... *(سيدتي؟ –ماذا؟ –إنه البريد – ضعه في الغرفة الخضراء، وأكرموا الساعي كالعادة)* أن أثمرت، فبعد أن صمدت مدام دولابومريه شهوراً عدة في وجه المركيز، وبعد أن طلبت وفق المعتاد أن يقسم الأيمان ويقطع العهود العلنية، أدخلت السعادة على قلب المركيز، الذي كان له أن ينعم بأسعد حظ، لو عرف كيف يحافظ على العواطف التي أقسم على أنه يكنّها لعشيقته، والتي كانت تكنّها له. هاك، يا سيد، فليس

[1] اسم النّزل الذي يقيمان فيه.

من يجيد العشق سوى النساء. أما الرجال فلا يفقهون في الأمر شيئاً... *(سيدتي؟ –ماذا؟ –إنه الراهب الذي يجمع الصدقات – أعطه اثني عشر فلساً عن السيدين هناء وستة فلوس عني وليقم بجولة على الغرف الأخرى.)* بعد مرور بضع سنين بدأ المركيز يشعر أن الحياة مع مدام دولابومريه تسير على نمط واحد. فعرض عليها أن يختلطا بالمجتمع: فوافقت وعرض أن تستقبل عدداً من النساء والرجال: فوافقت، وأن تقيم مآدب يتصل فيها الغداء بالعشاء: فوافقت. وشيئاً فشيئاً بدأ يمرّ يوم فيومان من غير أن يراها. وشيئاً فشيئاً بدأ يتخلّف عن وليمة غداء فعشاء، ساهم هو في الإعداد لها. وشيئاً فشيئاً صار يقصّر زياراته. وظهرت لديه مشاغل تستبقيه: فحين يصل، يقول أوجز الكلام، ثم يتمدد فوق الأريكة، ويتناول كتيّباً فيرمي به جانباً ليتكلم مع كلبه أو ينام. وحين يأتي المساء تفرض عليه صحته، التي صارت هشّة، أن ينسحب مبكّراً: ذلك هو رأي ترونشان[2]. "إن ترونشان هذا لرجل عظيم ! أقسم على ذلك ! لا يخامرني الشك في أنه سينقذ حياة صديقتنا التي يئس الآخرون من شفائها." وكان وهو يقول ذلك يحمل عصاه ويضع قبعته وينصرف، ناسياً في بعض الأحيان أن يعانقها. وشعرت مدام دولابومريه... *(سيدتي؟ –ماذا؟ –إنه صانع البراميل. – لينزل إلى القبو لرؤية الحجرتين في الزاوية.)* وشعرت مدام دولابومريه بأنها لم تعد محبوبة. وكان عليها أن تتأكد من ذلك. وإليك كيف فعلت... *(سيدتي؟ – أنا قادمة.)*

تعبت المضيفة من المقاطعات المتكررة فنزلت واتخذت الإجراءات الكفيلة، على ما يبدو، بإيقافها.

---

[2] تيودور ترونشان، طبيب مدينة جنيف، استقر في باريس عام 1766 وكان الطبيب الأول لدوق اورليان، كما تعاون مع رجالات الموسوعة.

المضيفة– قالت للمركيز ذات يوم، بعد الغداء: "أنت يا صديقي مستغرق في التفكير.

–وأنت أيضاً، يا مركيزة.

–ذلك صحيح وبدرجة كبيرة من الأسى.

–ما بك؟

–لا شيء.

–ما هذا بصحيح. ثم قال متثائباً: هيّا، يا مركيزة. اخبريني بذلك، لأنه سيخفف عنك وعني شيئاً من السأم.

–وهل تحسّ بالسأم؟

–كلا. لكن تمر بعض الأيام...

–يحسّ المرء فيها بالسأم.

–أنت على خطأ، يا صديقتي. أقسم لك إنك على خطأ: فتمر في الواقع بعض الأيام...لا يدري المرء فيها ما السبب.

–يا صديقى، منذ زمن طويل وأنا راغبة في أن أبوح لك بأمر. غير أني أخشى أن أسبّب لك شيئاً من الشجن.

–تسبّبين لي شيئاً من الشجن، أنتِ؟

–ربما لكني أُشهد السماء على براعتي .. *(سيتي؟ سيتي؟ سيتي؟ – منعتكم من أن تنادوني لأيّ سبب كان ومن أجل أي شخص كان. نادوا زوجي. –إنه غائب.)* يا سادة، أرجو معذرتكم، أنا قادمة إليكم بعد هنيهة.

ونزلت المضيفة لتصعد فتستأنف حكايتها:

المضيفة– فذلك جرى بدون رغبتي وعلى غفلة مني، وبتأثير لعنة يبدو أن الجنس البشر كله معرّض لها، ما دمت لم أفلت منها، أنا نفسي.

-آه ! تقولين عليك... لقد خشيت !... ما حقيقة الأمر؟
-حقيقة الأمر، يا مركيز... إني لآسفة، وسوف أتسبّب في إحزانك، فأرى، بعد إمعان النظر، أن من الأفضل أن ألوذ بالصمت.
-كلا، بل تكلمي يا صديقتي. أوَ تكتمين في أعماق قلبك سراً عني؟ ألم تكن أولى اتفاقياتنا أن تنفتح روحانا، الواحدة على الأخرى، من غير تحفّظ؟
-ذلك صحيح وهو يثقل كاهلي. وهو لوم يزيد في حدة لوم آخر أُوجِّهه لنفسي، وهو أشد منه بكثير. ألم تلحظ أني لم أعد على ما كنت عليه من مرح؟ لقد فقدت الرغبة في الطعام، فلا آكل ولا أشرب إلا عن عقل، وأنام نوماً مضطرباً. فلقاءاتنا الاجتماعية الحميمة ما عادت تطيب لي وأسائل نفسي ليلاً فأقول: هل غدا أقل لطفاً؟ كلا. ألديكِ ما يدعو للشكوى منه؟ كلا. ألديه علاقات مشبوهة تلومينه علها؟ كلا. هل نقص شيء من حنانه نحوك؟ كلا. ما دام صديقك هو نفسه فلِمَ تغير قلبك إذن؟ ذلك أنه تغيّر: فلا يسعكِ أن تخفي ذلك عن نفسكِ. فأنتِ ما عدتِ تنتظرينه بالدرجة نفسها من اللهفة. وما عدت ترينه بالمقدار نفسه من المتعة. وذلك القلق الذي كان يستبد بكِ حين يتأخر وصوله، وتلك الرعشة العذبة التي كانت تثيرها في نفسكِ جلبة عربته أو الإعلان عن قدومه أو إطلالته، ما عدت تشعرين بها.
-كيف، يا سيدتي ! ..

عندئذٍ غطت مدام دولابومريه عينيها بكفيها وأطرقت برأسها فصمتت فترة لتضيف من بعدها قائلة: "يا مركيز، توقعت أن تبدي ذهولك كله، وحسبت حساباً لكافة الأشياء المريرة التي ستقولها لي. يا مركيز. اعفُ عني... كلا، لا تعفُ عني، قلها لي. سأصغي إليها بكل انقياد لأني أستحقها. بلى، يا عزيزي المركيز. ذلك صحيح... أجل، فأنا... ولكن، أليست مصيبة كبرى أن الواقعة جرت، من غير أن أضيف عليها أيضاً، عار الخديعة ومذلّتها، في إخفائها عنك؟ أنت على

ما أنت، أما صديقتك فتغيرت. صديقتك تجلّك وتحترمك مثل أي وقت مضى بل أكثر. ولكن امرأة مثلها، تعوّدت على أن تمتحن عن كثب كل ما يجري في أكثر حنايا روحها سريّة، وعلى ألا تفرض نفسها فرضاً على أي شيء، لا يسعها أن تخفي عن نفسها أن الحب قد مضى. الاكتشاف مفزع، غير أنه واقعي. المركيزة دولابومريه، أنا، أنا، متقلّبة ! مستهترة !... يا مركيز، فلتثر ثائرتك، وهات النعوت الأكثر قبحاً، فلقد وصفت نفسي بها مسبقاً. انعتني بها، فأنا على استعداد لأن أقبل بها كلها... كلها، إلا أن تنعتني بامرأة غشّاشة، فسوف تعفيني من هذه الصفة، على ما آمل، لأني لست كذلك.. (*يا زوجتي؟ -ماذا؟ لاشيء*)

-لا يسع المرء أن يستمتع بلحظة من الراحة في هذه الدار، حتى في الأيام التي لا تأتينا بأحد تقريباً ونحسب أنه ليس لدينا ما نفعله. كم تستحق امرأة مثل أن يرثى لها، لا سيّما بصحبة زوجٍ بهيمة !... قالت مدام دولابرمريه ذلك وانهارت فوق كنبتها وطفقت تبكي. فهرع المركيز ليحتضن ركبتيها فيقول لها: "أنت امرأة رائعة، أنت امرأة معبودة، أنت امرأة لا مثيل لها. فصراحتك ونزاهتك تربكاني وتدفعان بي للموت خجلاً. آه، يا للتفوّق الذي أحرزته علي في هذه اللحظة ! ألا كم أراك عظيمة وكم أجدني صغيراً ! فأنتِ التي تكلمت أولاً وأنا كنت المذنب الأوّل. يا صديقتي، صدقك يستاقني، بل سأكون غولاً مرعباً أن لم يجرّني، فأعترف لك ان قصة قلبك هي قصة قلبي حرفاً حرفاً. فكل ما قلتِه في نفسك قلتُه أنا في نفسي. لكني لزمت الصمت فكنت أتألم، من غير أن أعرف متى ستواتيني الشجاعة على الكلام.

– صحيح يا صديقي؟

– ليس ما هو أكثر صحة. فلا يبقى لنا إلا أن نتبادل التهاني لأننا فقدنا، في وقت واحد، ذلك الشعور الهش والمخادع الذي كان يجمعنا معاً.

-أية مصيبة، في الواقع، لو أن حبّي دام بينما حبك قد توقف !

-أو أن يكون توقف في قلبي أنا أولاً.

-أنت على حق، وأنا أحس بذلك.

-لم تبدي محببة إلى نفسي قط ولم أرك على الحسن الذي أراك عليه في هذه الساعة. ولو لم تجعل مني تجربة الماضي متحفّظاً لظننت أني أحبك أكثر من أي وقت مضى." وفيما المركيز يقول لها ذلك امسك بيديها وشرع يقبّلهما.. (*يا زوجتي؟ -ماذا؟ -هذا بائع القش -انظر فوق دفتر القيد -وأين الدفتر؟... ظلي، ظلي، وجدته.*) أغلقت مدام دولابومريه قلبها على الغمّ القاتل الذي أعمل فيها تمزيقاً، واستأنفت الكلام فقالت للمركيز: "ولكن، يا مركيز، ماذا سيحل بنا؟

-لم يفرض أي واحد منا نفسه على الآخر، لا أنا ولا أنت. فلك الحق في تقديري الكامل، ولا أظنّني فقدت الحق في ما كان لي من اعتبار لديك: سوف نواصل لقاءاتنا فنهب أنفسنا للثقة التي توحي بها أشد الصداقات عذوبة. سنوفر على نفسنا كافة أشكال السأم وتلك الصور من الغدر واللوم وتعكّر المزاج التي ترافق في العادة صرم الأواصر، لنكون نسيج وحدنا. سوف تستعيدين حريتك المطلقة وتعيدين لي حريتي، لننطلق في الدنيا على هوانا. سأغدو المؤتمن على غزواتك ولن أخفي عنك واحدة من غزواتي، إذا ما قدّر لي أن أقوم بشيء منها لأنك جعلتني صعب الإرضاء. سيكون ذلك الوضع غاية في العذوبة. فتعينينني بنصائحك، ولن أبخل عليك بنصائحي وسط المسالك العسيرة، فيمكن أن تحتاجي إليها لدى مرورك فيها. فمن يدري ما يمكن أن يقع؟"

جاك- لا أحد.

المركيز- "ومن المرجح أنني كلما جُلتُ أكثر، كسبتِ في مجال المقارنة، وأني سأرجع إليك وأنا أكثر شغفاً وحناناً، وأكثر قناعة من أي وقت مضى بأن مدام دولابومريه هي المرأة المؤهّلة لإسعادي. وهنالك ما يدعو إلى المراهنة على أني، من بعد تلك العودة، سأظل لك حتى نهاية حياتي.

-وماذا لو أنك رجعت فلم تجدني؟ فالمرء في النهاية، يا مركيز، ليس منصفاً على الدوام. ولن يكون مستحيلاً عليّ أن أنساق بدافع من الميل أو بنزوة أو حتى بهوى حقيقي نحو رجل آخر لا يَعْدِلك.
-سيؤسفني ذلك بكل تأكيد. لكن لن يكون لديّ ما يسوّغ الشكوى. سألوم القدر الذي فرّق بيننا حين كنا متحدين والذي جاء ليجمعنا حين لم يعد ذلك في أيدينا..."

وشرعا بعد ذلك الحديث في مداولة وتفسيرات أخلاقية حول تحول قلب الإنسان وتفاهة العهود والأيمان، وحول صلات الزواج ... (*سيدتي؟ -ماذا؟ -العربة؟*.) قالت المضيفة: "أيها السادة، عليّ أن أترككم. وهذا المساء، بعد أن أنجز شؤوني كلها، سوف أعود لأكمل لكم تلك المغامرة، إذا رغبتم في ذلك..." (*سيدتي؟.. يا امرأتي؟... يا مضيفتنا؟.. -أنا قادمة، أنا قادمة*).

ما إن خرجت المضيفة حتى قال المعلم لخادمه: "يا جاك، هل لاحظت شيئاً ما؟
جاك- ما هو؟
المعلم- إن هذه المرأة تقصّ بطريقة أفضل بكثير من أن تتناسب مع امرأة في نزل.
جاك- هذا صحيح. فالمداخلات المتكررة للناس في الدار أنفدت صبري أكثر من مرة.
المعلم- وأنا أيضاً.

وأنت أيها القارئ، قل بلا مواربة. فنحن كما ترى في معرض من الصراحة التامة. هل ترغب في أن نترك هنا تلك المضيفة المهذارة الثرثارة، لنستأنف. غراميات جاك؟ فأنا من جانبي لست متمسكاً بشيء. فحين تصعد هذه المرأة، لن يكون أغلى على قلب جاك الثرثار من أن

يستردّ دوره فيغلق الباب في وجهها. وأن يقول لها عبر ثقب المفتاح: "طابت ليلتك، يا سيدتي، فمعلمي قد نام. وأنا سأخلد للنوم: فليؤجّل الباقي لحين مرورنا."

"إن أول عهد قطعه على نفسيهما كائنان اثنان من لحم ودم، كان قرب صخرة انهارت فذهبت هباء منثوراً. وقد أشهدا على ثبات عهدهما سماء لم تثبت لحظة واحدة على حال. وكان كل شيء يعتمل داخلهما ومن حولهما، وهما يحسبان أن قلبيهما منعتقان من تقلبات الزمن. فيا لهما من طفلين. وسيظلان طفلين أبداً! "لست أدري من الذي تقدّم بهذه الأفكار، من بين جاك ومعلمه وبيني.لكنها صدرت بالتأكيد عن واحد من الثلاثة ، وكانت مسبوقة فمتبوعة بكثير غيرها، وكانت ستقودنا، أنا وجاك ومعلمه حتى العشاء ثم حتى ما بعد العشاء، فحتى عودة المضيفة، لولا أن قال جاك لمعلمه: "دع عنك، يا سيدي، فكل تلك الحكم الكبرى والأمثال التي هرفت بها في ذلك الشأن لا تعدل أسطورة قديمة تتداولها الأكواخ[1] في قريتي.

المعلم- وما هي تلك الأسطورة؟

جاك- إنها أسطورة الغمد والخنجر. نشب نزاع ذات يوم بين الغمد والخنجر. فقال الخنجر للغمد[2]: "يا صديقي الغمد، أنت محتال، ففي كل يوم تستقبل خناجر جديدة... فردّ الغمد على الخنجر قائلاً: يا صديقي الخنجر، أنت محتال، ففي كل يوم تغيّر غمداً.. يا غمد، ليس ذلك ما وعدتني به... يا خنجر، أنت غدرت بي أولاً..." نشب هذا النزاع على المائدة. وأما ذلك الجالس ما بين الغمد والخنجر، فبدأ الكلام وقال لهما:

[1] تُمضي الفتيات، في مواسم قطاف العنب، سهراتهن في الأكواخ، بين غزل الصوف وتداول الحكايات وذلك في منطقتي شمانيا وبورغونيا.

[2] نشير، حفاظاً على اكتمال الرمز، إلى أن الغمد بالفرنسية مؤنّث ـ م ـ

"أنت يا غمد وأنت يا خنجر قد أحسنتما صنعاً بالتغيير، ما دام التغيير قد واتاكما. غير أنكما أخطأتما حين تعاهدتما على عدم التغيير. أيها الخنجر، ألم تر أن الله خلقك لتقصد أغمدة عديدة، وأنت أيّها الغمد، لتستقبل أكثر من خنجر؟ كنتما تنظران إلى بعض الخناجر، وهي تعاهد بالاستغناء جزافاً عن الأغمدة، على أنها خناجر حمقى. وإلى بعض الأغمدة وهي تعاهد على الانغلاق أمام كل خنجر على أنها حمقى. وما كنتما تحسبان أنكما على نفس الدرجة من الحمق حين أقسمتما على أن تلتزما: أنت يا غمد بخنجر واحد وأنت يا خنجر بغمد واحد."

–إلاّ أن المعلم قال لجاك: "ليست أسطورتك على درجة خارقة من الأخلاق غير أنها مرحة. لكنك لا تعرف الفكرة الغريبة التي خطرت ببالي. فكرت في أن أزوّجك من مضيفتنا، لأرى كيف يفعل زوج يحب الكلام حين يكون مع امرأة لا تكف عن الكلام.

جاك– على نحو ما فعلت في الأعوام الاثني عشر الأولى من حياتي والتي أمضيتها في بيت جدي وجدتي.

المعلم– بماذا كان يلقّبون؟ وماذا كان عملهم؟

جاك– كانوا مرتزقين[1]. رزق جدي جازون[2] بعدة أولاد. وكانت الأسرة كلها رصينة. ينهضون فيلبسون ويمضون إلى أعمالهم. ويرجعون فيتغدون ويمضون مجدداً من غير التفوّه بكلمة واحدة. عند المساء، يستلقون فوق المقاعد، فتقوم الأم وبناتها بالحياكة والخياطة ونسج الصوف ، ولا ينطقن بكلمة. ويخلد الأولاد للراحة. ويقرأ الأب في الكتاب المقدس.

المعلم– وأنت، ماذا كنت تفعل؟

جاك– كنت أدور بين الحجرات بالكمّامة.

[1] يشترون فيبيعون شتى أشكال البضائع.

[2] الاسم مشتق من فعل هدر أو ثرثر وعليه يمكن ترجمة اسم آل جارون ببني الثرثار أو الثرثارين. م

المعلم– أجل بكمّامة. وتلك الكمّامة اللعينة هي السبب في هوس الكلام الذي أصابني. فقد كان ينقضي أسبوع بحاله أحياناً من غير أن ينبس أحد ببنت شفة في دار آل جازون. فلم تقل جدّتي في حياتها، وكانت مدبدة، سوى"قبعات للبيع." أما جدي الذي كانوا يشاهدونه في حلقات المزاد، منتصب القامة، ويداه تحت سترته الطويلة، فما كان ينطق سوى بكلمة "فلس". وكانت تمر عليه أيام تراوده نفسه فيها على عدم الإيمان بالتوراة.

المعلم– ولماذا؟

جاك– بسبب ما فيها من عبارات مكرّرة، كان ينظر إليها على أنها ثرثرة لا تليق بالروح القدس. وكان يقول إن المكرّرين حمقى، يعتبرون الذي يصغون إليهم حمقى.

المعلم– يا جاك، ماذا ترى، لو أنك على سبيل التعويض عن الصمت الطويل الذي التزمت به طيلة اثني عشر عاماً من الكمّامة في بيت جدك، وعن فترة كلام المضيفة...

جاك– لو استأنفت قصة غرامياتي؟

المعلم– كلا، بل واحدة أخرى تركتني فيها، إنها قصة رفيق رئيسك.

جاك– آه، يا معلمي، من الذاكرة العنيفة التي تتمتع بها !

المعلم– هيّا، يا جاك، يا حبيبي جاك...

جاك– وممّ تضحك؟

المعلم– مم سيضحكني أكثر من مرة. وهو أن أراك في طفولتك في بيت جدك بكمّامة.

جاك– كانت جدتي تنزعها حين لا يبقى أحد. وحين يلاحظ جدي ذلك، لا يشعر بأيّ رضى فيقول: "استمري، وسوف يغدو هذا الطفل الثرثار الأكثر جموحاً على وجه الأرض." وقد صدق تكهّنه.

المعلم– هيا، يا جاك، يا حبيبي جاك، هات قصة رفيق رئيسك.

جاك– لا أمتنع عنها. غير أنك لن تصدقها أبداً.

المعلم– أهي رائعة جداً إذن؟

جاك– كلا، بل لأنها جرت مسبقاً مع شخص آخر، هو عسكري فرنسي يدعى، على ما أعتقد، السيد دوغيرشي.

المعلم– لا بأس. سأقول مثلما قال شاعر فرنسي، نظم قصيدة هجائية جميلة، لشاعر آخر نسبها إلى نفسه بحضوره: "ولم لا يكون السيد قد نظمها؟ ما دمت أنا نفسي قد نظمتها..." ولم لا تقع قصة جاك لرفيق رئيسه ما دامت وقعت للعسكري الفرنسي دوغيرشي؟ غير أنك وأنت تقصها علي، ستصيب عصفورين بحجر، فسوف تخبرني بمغامرة هذين الشخصين لأني أجهلها.

جاك– لا بأس. لكن أقسم لي.

المعلم– أقسم لك."

تسوّل لي نفسي، أيها القارئ، أن أطلب منك أداء القسم نفسه. غير أني سأجتذب انتباهك فقط إلى ناحية من الغرابة في طبع جاك، ورثها على ما يبدو عن جده جازون، المتعيّش الصموت. وهي أن جاك، بعكس الثرثارين، ورغم أنه يحب كثيراً أن يتكلم، يمقت التكرار. ولهذا كان أحياناً يقول لمعلمه: "إن السيد يُعِدُّني لمستقبل كئيب جداً. فإلامَ أصير حين لا يبقى لديّ من شيء أقوله؟

–تكرّر مجدداً.

–جاك يكرّر ! العكس مكتوب فوق. ولو جرى لي أن كرّرت، فلن أتمالك نفسي عن القول: "إيه! لو سمعكَ جدك ! .." فيتولاني الأسف على الكمامة.

المعلم– تقصد تلك التي كان يضعها لك؟

جاك– أيام كانوا يلعبون ألعاب القمار في معارض سان جرمان وسان لوران...

المعلم– لكن هذه في باريس، ورفيق رئيسك كان قائداً لموقع حدودي.

جاك- أستحلفك بالله يا سيدي، دعني أواصل... دخل عدة ضباط متجولاً فوجدوا فيه ضابطاً آخر يتكلم مع مديرة المتجر. فعرض أحدهم على هذا الأخير أن يلعب لعبة سحب العَشَرة. إذ ينبغي أن تعلم أنه بعد موت رئيسي، تحول رفيقه الذي صار غنياً، إلى لعب القمار. ووضع الحظ جام النرد في يد خصمه، الذي سحب ثم سحب ثم سحب، من غير أن يكون لذلك من نهاية. وحمي وطيس اللعب، فقامروا على الكل وعلى كلّ الكل، وعلى الأنصاف الصغيرة والأنصاف الكبيرة، والكل الكبير والكل الكبير، حين ارتأى أحد الحضور أن يقول للسيد دوغيرشي، أو لرفيق رئيسي، إن من الخير له أن يتوقف هناك وأن يكفّ عن المقامرة، لأن ما يعرفونه في ذلك الميدان يفوق ما يعرفه. وكان من شأن ذلك الكلام، وهو مجرد دعاية، أن ظنّ رفيق رئيسي، أو السيد دوغيرشي، أن خصمه محتال. فمد يده إلى جيبه بخفة ليخرج منها خنجراً حاداً، وحين مد خصمه يده إلى النرد ليضعه في الجام، أغمد الخنجر في يده التي ظلت مسمّرة على الطاولة وقال له: "إذا كانت قطع النرد مغشوشة، فأنت محتال وغشاش، وإذا كانت صالحة فأنا مخطئ .." وتبيّن أن قطع النرد صالحة. فقال السيد دوغيرشي :"أنا آسف جداً، وأعرض التعويض الذي يطلب مني .." ولم يكن كلام رفيق رئيسي كذلك، فقد قال: "خسرت مالي، وثقبت كف رجل رقيق الحاشية: لكنني بالمقابل استرجعت متعة المبارزة على قدر ما أشاء..." قام الضابط المطعون في كفه، لتلقي العلاج وتضميد جرحه، وحين شفي جاء يقابل الضابط غامد الخنجر ويطالبه بالتعويض. ورأى هذا الأخير، أو السيد دوغيرشي، أنّ الطلب عادل. أما الآخر، أو رفيق رئيسي، فقد أحاط عنقه بذراعيه وقال له: "كنت أنتظرك بلهفة لا يسعني أن أصف لك مداها..." وقصدا المرج. وأصيب الغامد، وهو السيد دوغيرشي أو رفيق رئيسي بطعنة سيف اخترقت جسده. فأقامه المطعون في كفه فأوصله إلى منزله وقال وهو يغادره: "أيها السيد، سوف نتلاقى." ولم يرد السيد دوغيرشي على

كلامه. أما رفيق رئيسي فأجابه :"أيها السيد، ذلك ما أنوي فعلـــه." ثـــم تبارزا مرة ثانية فثالثة وحتى الثامنة أو العاشرة، ويظـــل الغـــامد فـــي المكان كل مرة. إذ كان الاثنان ضابطين متميّزين، ورجلين مـــن ذوي المناقب. فأحدثت مغامرتهما ضجة كبرى. حتى تدخلت فيها الـــوزارة. فأبقي على أحدهما في باريس وثبّت الآخر في موقعه. ورضـــخ الســـيد دوغيرشي لأوامر البلاط. أما رفيق رئيسي فأصيب بالأسى. وذلك هـــو الفارق بين رجلين يمتازان بالجرأة، لكن أحدهما عاقل والآخر لا يخلـــو من ذرة جنون.

إلى هنا ومغامرة السيد دوغيرشي ورفيق رئيسي واحدة ومشـــتركة. ولهذا السبب كنت أذكرهما معاً، فهل أدركت ذلك، يا معلمي؟ أما هنـــا فسوف أفصل ما بينهما، فلا أكلمك من بعد إلا عن رفيق رئيســـي، لأن ما تبقى منوط به وحده. آه، يا سيدي، فهنا سوف ترى إلى أي حد نحـــن عاجزون عن التحكم في مصائرنا، ومدى غرابة الأشياء المكتوبة فـــي الملف الكبير!

تقدم رفيق رئيسي، أو الغامد، بالتماس إجازة ليقـــوم بزيـــارة إلـــى منطقته: فحصل عليها. وكان طريقه يمرّ من باريس. فركب في عربـــة أجرة. ومرت تلك العربة في الساعة الثالثة صباحاً أمـــام دار الأوبـــرا. وكان الناس خارجين من الحفل. وخطر ببال ثلاثة أو أربعة من الشـــبان الطائشين المقنّعين، أن يذهبوا ليتناولوا الفطـــور بصحبـــة المســـافرين. فوصلوا إلى المكان مع طلوع النهار. فمن الذي عقدت الدهشة لســـانه؟ إنّه المطعون في كفه حين رأى الغامد. فمد له هذا الأخير يده، فعانقـــه وأعرب له عن مدى غبطته بذلك اللقاء السعيد. وانتقلا من توّهما إلـــى وراء أحد المستودعات، ليستل كل واحد سيفه، وكان أحدهمـــا يرتـــدي السترة الطويلة والآخر ثياب الحفل التنكري. ومرة أخرى أيضـــاً وقـــع الغامد، أو رفيق رئيسي أرضاً. فأرسل خصمه طالباً النجدة، ثم توجّـــه لينضم إلى باقي أصدقائه وركاب العربة على المائدة، فأكل وشرب بكـل

فرح وابتهاج. وبدأ البعض استعدادهم لمواصلة السفر والبعض الآخر يريدون العودة إلى العاصمة بأقنعتهم، على ظهور خيول البريد، حين ظهرت المضيفة مجدداً فوضعت حداً لحكاية جاك.

ها هي قد صعدت. لكني أحيطك علماً أيها القارئ بأنّ أمر انصرافها خرج من يدي.

–ولم ذاك؟ –لأنها دخلت حاملة زجاجتين من الشمبانيا، واحدة بكل يد، ولأنه مكتوب فوق أن كل متحدث يتوجه إلى جاك بهذا الاستهلال يجده كله بالضرورة آذاناً صاغية.

دخلت فوضعت الزجاجتين على الطاولة وقالت: "تعال يا سيدي جاك نتصالح..." لم تكن المضيفة في المرحلة الأولى من شبابها. فهي امرأة طويلة القامة ممتلئة الجسم رشيقة الحركة، مليحة الوجه تشعّ صحة، لها فم كبير بعض الشيء، لكن أسنانها جميلة، لها خدان عريضان وعينان ظاهرتان وجبهة عريضة وبشرة ناعمة، وهي متألّقة المحيّا نشيطة مرحة، صدرها يغري المرء بأن يمضي يومين اثنين بصحبته وذراعاها شديدتان شيئاً ما، أما يداها فمصنوعتان للتصوير أو للنحت على مثالها. وقد لف جاك ذراعيه حول خصرها وعانقها بقوة. فضغينته لم تصمد قط أمام خمرة فاخرة أو في وجه امرأة جميلة. وذلك مكتوب عليه فوق وعليك، أيها القارئ، وعليّ وعلى آخرين كثيرين. قالت للمعلم: "سيدي، هل تنوي أن تدعنا نمضي وحدنا؟ هاك، لو بقي عليك أن تقطع مئة فرسخ أخرى، ما تذوقت في طريقك ما هو أطيب من هذه." قالت ذلك وهي تضع زجاجة بين ركبتيها فتنزع عنها سدادتها. وقد فعلت ذلك بمهارة متميزة فسدت الفتحة بإبهامها، من غير أن تسمح بقطرة خمر واحدة بالانفلات. ثم قالت لجاك: "هيا، بسرعة، بسرعة، هات كاسك." فقرّب جاك كأسه. فنحّت المضيفة إبهامها جانباً بعض الشيء، وفتحت فرجة للزجاجة، وها هو وجه جاك غارق كله بالرغوة. لقد كان جاك مستعداً لتلك الخديعة، وانطلقت المضيفة تضحك، كما أغرق جاك ومعلمه

بالضحك. فشربوا بضع جرعات متتالية ليطمئنوا على صلاح الزجاجــة، ثم قالت المضيفة: "آووا جميعاً إلى أسرتهم، والحمد لله، فلن يقاطعني أحـد وأستطيع أن أستأنف حكايتي." أما جاك، الذي زاد نبيذ الشمبانيا من حيوية عينيه الطبيعية، فقال لها أو لمعلمه: "كانت مضيفتنا جميلة جمال الملائكـة. فماذا تقول في ذلك، يا سيدي؟

المعلم– كانت. بل أقسم بالله على أنها ما تزال كذلك!

جاك– أنت على حق، يا سيدي. غير أني لا أقارنها بامرأة أخرى، بـل بنفسها وهي شابة.

المضيفة– لم أعد الآن بذات قيمة تذكر. ولكن لو رأيتماني أيـام كـان بوسع المرء أن يحيط خصري بإصبعين من كل يـد! كـانوا يحوّلـون طريقهم من أربعة فراسخ ليحطوا رحالهم هنا. ولكـن لنـدع العقـلاء والطائشين الذين ذهبتْ بعقولهم جانباً، ولنعد إلى مدام دولابومريه.

جاك– حبذا لو شربنا أولاً نخب الطائشين الذين ذهبتِ بعقولهم، أو نخب صحتي؟

المضيفة– لا بأس. ففيهم من كانوا يستحقون ذلك، سواء حسبنا حسـاب صحتك أم لا. أتدريان أني كنت ملاذ العسكريين، طيلة عشر سنين، بكل نزاهة واستقامة؟ وأني أديت خدمة لبعض الذي شقّت عليـهم مواصلـة الخدمة من دوني. إنهم أناس امتلأت نفوسهم بالمروءة، فليس لـدي مـا أشكوه من أيّ منهم، ولا لديهم مني. لم أكتب يوماً من سند. لقد جعلوني أنتظر أحياناً. وبعد عامين أو ثلاثة أو أربعة عاد إليّ مالي..."

وها هي، من ثم، تشرع في تعداد الضباط الذين أسعدوها بالاقتراض من خزنتها، ومنهم السيد فلان، العقيد في فوج الـ ... والسـيد فـلان، الرئيس في فيلق .. وها هو جاك يطلق صرخـة: "رئيسـي! رئيسـي المسكين! إذن فقد عرفتِ رئيسي؟

المضيفة– قد عرفته؟ إنه رجل طويل القامة حسن الشكل، ناحل بعض الشيء، ذو طبع كريم وشديد، منتصب في وقفته، وله نقطتان صغيرتان حمراوان على صدغه الأيمن. فأنت أديتِ الخدمة إذن؟

جاك– بلى، خدمت.

المضيفة– سوف تروق في عيني أكثر. فلا بد من أن تظلّ لديك بعض المناقب من وضعك الأول. فلنشرب نخب صحة رئيسك.

جاك– إن كان ما يزال حياً.

المضيفة– وما الفرق، حياً كان أم ميتاً؟ أليس العسكري معداً لأن يُقتل؟ ألا يستبدّ به السخط إن قدّر له من بعد عشر حصارات وخمس معارك أو ست، أن يموت بين قوم من السّفلة والرعاع المتّشحين بالسواد[1]!. لكن لنعد إلى قصتنا ونشرب أيضاً نخباً آخر.

المعلم– ألا إنك، يا مضيفتنا، لعلى حق.

المضيفة– آه! كنت تتكلم عن نبيذي؟ لا بأس. فأنت على حق أيضاً. وهل تذكر أين كنا؟

المعلم– أجل، عند خاتمة المكاشفة الأكثر غدراً.

المضيفة– تعانق المركيز ديزارسي ومدام دولابومريه، متهلّلاً كل منهما حيال الآخر، وافترقا. وعلى قدر ما كانت السيدة مكرهة على ضبط نفسها بحضوره، انفلتت، لدى انصرافه ألَمُها العنيف من عقاله، فتأوّهت: "ليست إذن إلا الحقيقة الصارخة، فهو لم يعد يحبّني! ..." ولن أصور لكما بالتفصيل حالات الهوس الغريبة التي تصيبنا حين نُهْجَر، فذلك من العبث في نظركم[2]. قلت لكما إنّ تلك المرأة ذات إباء، لكنها انتقامية على نحو مغاير تماماً. فبعد أن هدأت ثائرتها إثر ما انتها بها من سخط أولي، وبعد أن قعدت تستطيب غيظها بكل طمأنينة، فكرت في الانتقام،

[1] يرتدي رجال الدين ورجال القضاء الحلل السوداء تواضعاً.

[2] حين نستخدم صيغة الجمع بدلاً من المثنى، فالمقصود كافة الرجال ـ م ـ

لكن على أن يكون انتقاماً قاسياً، وبطريقة كفيلة ببث الهلع في قلوب الذين تسوّل لهم أنفسهم مستقبلاً إغواء امرأة شريفة أو خداعها. ولقد ثأرت، ثأرت بكل قسوة. لكن انتقامها تفجّر فلم يقوّم أحداً، ولم نكفّ من بعدها عن التعرّض للغواية والخداع.

جاك- لا بأس. بالنسبة للأخريات، أما أنت!...

المضيفة- وأسفاه. إنما أنا في المقدمة! أوّاه، كم نحن حمقاوات! وليت أولئك الرجال الأنذال يكسبون شيئاً بالمقابل! لكن دعونا من ذلك. فماذا تفعل؟ إنها لا تدري بعد. فشرعت تحلم, وأخذت تفكّر.

جاك- حبذا لو أننا وهي تحلم...

المضيفة- أحسنت. لكن الزجاجتين فارغتان...(يا جان؟ -نعم سيدتي- زجاجتين من تلك الموضوعة في الصدر، من الصنف الفاخر- فهمت.)

وهاكم ما خطر ببالها بعد طول تفكير. عرفت مدام دولابومريه فيما مضى امرأة من الضواحي، استدعتها إلى باريس دعوى قضائية، ومعها ابنتها الفتية الجميلة والمهذبة. وقد علمت أن تلك المرأة تعرضت للإفلاس بعد أن خسرت دعواها، مما أرغمها على أن تفتح بيتها كمقمرة. فكانوا يجتمعون عندها، ويقامرون ويتعشون، ليلبث في العادة واحد أو اثنان من المدعوين، لقضاء الليل بصحبة السيدة أو الآنسة حسب الاختيار. فأرسلت واحداً من رجالها للبحث عن المرأتين. واستطاع العثور عليهما، ودعاهما لزيارة مدام دولابومريه، التي تذكرتاها بشيء من العناء. ولم تتلكأ المرأتان اللتان اتخذتا اسم ديسنون في الحضور. وفي اليوم التالي جاءت الأم إلى عند دولابومريه. وبعد المجاملات الأولى، سألت مدام دولابومريه، المرأة ديسنون عن حالها وما تفعله منذ أن خسرت دعواها.

أجابت ديسنون قائلة: "سأكلمك بكل صدق. فأنا أمارس مهنة محفوفة بالمخاطر ودنيئة وقليلة الأجر، وآنف منها، غير أنّ للضرورة أحكاماً. كنت عازمة على إدخال ابنتي في الأوبرا، لكنها لا تتمتع بالصوت

المطلوب، ولم تتجاوز يوماً سوية الراقصة المتوسطة. اصطحبتها في جولة، أثناء رفع الدعوى وبعدها، على مكاتب القضاة، ودور الكبار، ومقرات المطارنة، ومكاتب الصيارفة، وقد رضوا باستخدامها إلى حين ثم صرفوها. ليس القصور في أن الجمال الملائكي ينقصها أو أنها تفتقر إلى الرقّة والجاذبية، غير أنها لا تجيد شيئاً من تلك المواهب التي تتمتع بها ذوات الروح الفاسقة، أو تلك القدرات الكفيلة بإيقاظ الرغبات الخاملة لدى رجال سئموا من الرتابة. أنا أدير مقمرة وأقدم العشاء. ومن يرغب في البقاء من بعد يبقى. غير أن ما يسبب لنا الضيق الشديد، أنها أغرمت برئيس دير فتيّ، له منزلته، لكنه زنديق وجاحد ومنحل الأخلاق ومراءٍ ومعاد للفلاسفة، ولكني لن أذكر لكِ اسمه. غير أنه واحد من أولئك الذين آثروا في سبيل الوصول إلى كرسي الأسقفية أن يسلكوا الطريق الأكثر ضماناً والتي تتطلب أدنى المواهب في آن معاً. لست أدري ما نوع الكلام الذي كان يُسمعه لابنتي، حين يأتي كل صباح ليقرأ لها من صحيفة غدائه وعشائه وما قام بتجميعه. فهل سيغدو أسقفاً أم لا؟ ثم شاء حسن الحظ أن وقعت القطيعة بينهما. فقد سألته ابنتي يوماً إن كان يعرف الذين يكتب ضدهم، فأجابها رئيس الدير أن لا، وإن كانت لديه مشاعر أخرى غير تلك التي يضعها موضع السخرية فأجابها رئيس الدير أن لا، فانساقت وراء حيويتها وقالت له إن دوره هو الدور الأكثر لؤماً والأكثر خداعاً بين كافة الناس."

وسألتها مدام دولابومريه إن كانتا مشهورتين كثيراً.

-كثيراً جداً لسوء الحظ.

-لستما، على ما أرى، شديدتي التمسك بما أنتما عليه من حال؟

-كلا، على الإطلاق. وابنتي تعرب لي عن احتجاجها يومياً بقولها إن أكثر الظروف شقاء يبدو لها أفضل من ظرفها. وغدت على حال من الاكتئاب ستنتهي بأن تبعد عنها...

-وإذا ما صمَّمت على وضعك وإياها في حال مشرقة فسوف توافقان إذن؟

-على ما هو أقل بكثير.
-لكن المقصود أن أعرف إن كنتما تستطيعان أن تعداني بالتكيّف مع النصائح الصارمة التي سأوجهها إليكما.
-يمكنك الجزم بذلك أياً كانت.
-وتلبيان أوامري حين يطيب لي؟
-وسننتظرها بنفاد الصبر.
-حسبي ذلك. عودي الآن ولن يتأخر وصولها إليكما. وبالانتظار، تخلّصا من أثاثكما كله، بيعا كل شيء، ولا تحتفظا حتى بملابسكما، إن كان فيها ما يجتذب الأنظار: لأنها لن تتلاءم أبداً مع ما أتطلّع إليه."

أما جاك الذي بدأ يظهر اهتماماً فقال للمضيفة: "وماذا لو شربنا نخب مدام دولابومريه؟
المضيفة- بكل طيبة خاطر.
جاك- ونخب صحة مدام ديسنون.
المضيفة- موافقة.
جاك- ولن ترفضي نخب الآنسة ديسنون، ذات الصوت الهادئ الرخيم، وقلة الموهبة للرقص، والاكتئاب الذي يُلْزمها بالعوز المحزن للقبول بعشيق جديد كل ليلة.
المضيفة- لا تسخر، فذلك هو الشيء المروّع أكثر. وليتك تدري ما نوع العذاب حين يكون بلا حب!...
جاك- نخب الآنسة ديسنون بسبب عذابها.
المضيفة- حسبك.
جاك- يا مضيفتنا، هل تحبين زوجك.
المضيفة- ليس أكثر مما ينبغي.
جاك- جدير بالمرء إذن أن يرقّ لحالك. فهو يبدو لي بصحة جيدة.

المضيفة- ليس كل ما يبرق ذهباً.

جاك- نخب صحة مضيفنا الجيدة.

المضيفة- اشرب وحدك.

المعلم- جاك، يا جاك، يا صاحبي، أنت تستعجل كثيراً.

المضيفة- لا تخشَ شيئاً، يا سيدي، فهو وفيّ. وغداً لن يظهر عليه شيء.

جاك- بما أنه لن يظهر عليّ شيء غداً، وأني لا أقيم في هذا المساء كبير وزن لعقلي، فما زال عليّ، يا معلمي، ويا مضيفتي الحسناء، شرب نخب واحد، نخب يثقل على صدري كثيراً، نخب رئيس الدير وصاحب الآنسة ديسنون.

المضيفة- ويحك، يا سيد جاك، إنه مراء وطماع وجاهل ونمّام ومتعصب. فعلى ذلك النحو يسمّون، حسبما أعتقد، أولئك الذي يذبحون عن طيب خاطر كل من لا يفكر مثلهم.

المعلم- ذلك إنك لا تعلمين، يا مضيفتنا، أن جاك الذي ترينه، فيلسوف من نوع ما، وأنه يقيم وزناً كبيراً لأولئك الأغبياء التافهين الذين يفضحون أنفسهم والقضية التي يسيؤون الدفاع عنها. ويقول إن رئيسه كان يدعوهم بالترياق لأمثال هوييه ونيكول وبوسويه[1]. وما كان يفقه من ذلك الشيء الكثير، ولا أنت أيضاً... هل نام زوجك؟

المضيفة- منذ أكثر من ساعة.

المعلم- ويدعك تتحدثين هكذا؟

المضيفة- أزواجنا مدرّبون... صعدت مدام دولابومريه في عربتها، وتجولت في أبعد الضواحي عن حي ديسنون، فاستأجرت شقة صغيرة في دار حسنة الصيت، ضمن جوار الأبرشية، وفرشتها بأكثر أنواع الأثاث بساطة، ودعت المرأة ديسنون وابنتها على الغداء، ثم أنزلتهما فيه، في اليوم نفسه أو بعد بضعة أيام، تاركة لهما ملخصاً للسلوك الذي

(1) HUET, NICOLE, BOSSUET.

عليهما الالتزام به.

جاك- يا مضيفتنا، نسينا صحة مدام دولابومريـــه وصحـــة المركـــيز ديزارسي. وليس ذلك من الأمانة في شيء.

المضيفة- هيا، لا عليك يا سيد جاك، فالقبو ليس فارغاً... وهـــذا هـــو الملخص أو ما حفظته منه:

"لن تترددا على أماكن النزهات العامة أبداً، إذ لا ينبغـــي لأحـــد أن يكتشفكما.

"لن تستقبلا أحداً، حتى جيرانكما وجاراتكما، لأنه ينبغـــي عليكمـــا تصنّع العزلة التامة.

"لن تقتنيا سوى كتب العبادة، إذ لا ينبغي لشيء من حولكمـــا أن يفضـــح أمركما.

"ستواظبان مواظبة مطلقة على قداديس الكنيسة أيام الأعياد وأيام إقامـــة الصلوات.

"تقتصر معرفتكما بالكاهن والآباء في الأبرشيّة على أضيـــق حـــد، لأنني قد أحتاج لشهادتكم.

"لا تستقبلا في العادة أي شخص كان.

"تتوجهان للاعتراف وتناول القرابين المقدسة مرتين في الشـــهر علـــى الأقل.

"تستعيدان شهرتكما السابقة، لأنها نزيهة، ولأنهم قد يستعلمون عنكما عاجلاً أم آجلاً في مقاطعتكما.

"تقومان بين وقت وآخر ببعض الصدقات، من غـــير أن تتلقيـــا أي شيء، وتحت أي مبرر كان. فينبغي أن يُعرف أنكما لستما فقـــيرتين ولا غنيّتين.

"تقومان بأعمال الغزل والخياطة والحياكة والتطريز وتعطيـــان مـــا تنتجانه لسيدات المبرّة فيتولين بيعه.

"تعيشان ضمن أقصى حدود الاعتدال. في حجرتين صغيرتين كما في نزل. وذلك كل شيء.

"لن تخرجِ ابنتكِ من دونكِ أبداً ولا أنتِ من دونها. أما الوسائل التي يمكن أن تثقف بكلفة بسيطة.، فلن تهملا أية واحدة منها.

"لن تستقبلا عندكما أبداً، وأكرر ذلك عليكما، أحداً من الكهنة أو الرهبان أو المتعبّدين.

"تسيران في الشارع غاضتي البصر. أما في الكنيسة فلا تريان سوى الله.

"أوافقكما الرأي على أنها حياة صارمة، لكنها لن تدوم وأعدكما عليها بمكافأة ذات شأن. فانظرا وتشاورا: فإذا بدا لكما هذا القسر فوق طاقتكما فأخبراني. فلن أستاء ولن أندهش. نسيت أن أقول لكما إنه من المناسب أن تتعوّدوا حشو كلام الزهد، وأن تغدو قصة العهد القديم والجديد مألوفة لديكما لكي يعتبروكما تقيّتين من زمن قديم. اعتبرا نفسيكما على المذهب الجنسيني[1] أو المولينيي[2]، كما يحلو لكما، غير أن الأفضل أن تعتمدا رأي الكاهن. ولا تتوانيا، بمناسبة أو بدون مناسبة، عن التهجّم على الفلاسفة بشكل مسعور. قولاً على فولتير إنه عدوّ المسيح، واحفظا كراس صديقكما رئيس الدير عن ظهر قلب واعملا على نشره إن لزم الأمر..."

وأضافت مدام دولارومريه تقول: "لن أراكما في بيتكما أبداً، فلست أهلاً للتواصل مع نساء على تلك الدرجة من القداسة. لكن لا تقلقا: سنأتيان سراً في بعض الأحيان، لنعوّض فيما بيننا، على نطاق ضيق، عن نظام توبتكما. أما وأنتما تؤديان دور التقوى فليس عليكما أن تربكا نفسيكما به. وأما عن نفقات بيتكما فهذا شأني أنا. إذا نجح مشروعي، فلن تحتاجا إليّ أبداً من بعد. أما إذا فشل من غير أن تتسببا في ذلك،

[1] الجنسينية. مذهب أخلاقي مسيحي متشدّد.

[2] أتباع موليا. راهب يسوعي إسباني (1536– 1600) صاحب نظرية حول القدرية.

فأنا غنية بما فيه الكفاية لأضمن لكما مستقبلاً شريفاً وأفضل من الحال التي ضحيّتما بها من أجلي. لكني أطلب الامتثال بشكل خاص، أريد خضوعاً مطلقاً وغير محدود لأوامري، وإلا فلن أتقدم بشيء الآن ولن أتعهد بشيء للمستقبل."

المعلم- وهو يدق على علبة نشوقه وينظر كم الوقت في ساعته – تلك هي امرأة رهيبة! وقاني الله من لقاء مثيلة لها.

المضيفة- رويدك، رويدك، فأنت لم تعرفها بعد.

جاك- أما بانتظار ذلك، يا حسنائي، يا مضيفتنا الفاتنة، فماذا لو قلنا كلمة للزجاجة؟

المضيفة- اطرح سؤالك.

المعلم- أنا واثق من أنك لم تولدي في بيت أصحاب نزل.

المضيفة- ذلك صحيح.

المعلم- وأنك جئت إلى هنا من وسط أكثر رقياً، تحت تأثير ظروف قاهرة.

المضيفة- أوافقك القول.

المعلم- حبّذا لو علقنا قليلاً قصة مدام دولابومريه...

المضيفة- ذلك غير ممكن. فأنا أسرد مغامرات الآخرين عن طيب خاطر، لكني لا أسرد ما يتعلق بي. اعلم فقط أني تربيت في سان سير[1]. حيث قرأت شيئاً من الإنجيل وكثيراً من الروايات. ثم انتقلت من الدير الملكي إلى النزل الذي أديره منذ زمن طويل.

المعلم- حسبي. واعتبري أني لم أقل لك شيئاً.

المضيفة- بينما تتثقف صديقتانا الورعتان، فتبدأ تضوّع رائحة ورعهما الطيبة ويشاع ذكر قداسة أخلاقهما بين الناس، كانت مدام دولابومريه

---

[1] أول مدرسه لتعليم البنات. أسستها مدام مانتنون (روحة لويس الرابع عشر سرّاً) عام 1686. تحوّلت منذ عهد نابليون إلى أشهر كلية حربية تخرج منها أكبر قادة فرنسا العسكريين ومنهم ديغول .م.

تحافظ في علاقاتها مع المركيز على المظاهر الخارجية من المودة والصداقة والثقة الكاملة. فهو موضع ترحيب دائم، ولا يتعرض لأي لوم أو يقابل باستياء، حتى لو غاب غيبات طويلة: فكان يقصّ عليها قصة مغامراته الصغيرة المشوّقة، فتبدي متعة صريحة في الإصغاء إليها. فتقدم له نصائحها في المناسبات التي يبدو الفوز فيها شافاً. فتلقي على مسامعه في بعض الأحيان كلمات الزواج، لكنها تقولها بلهجة خالية من الاهتمام، حتى لا يسع المرء الظن بأنها تتكلم عن نفسها. وإذا ما وجّه إليها المركيز بعضاً من تلك الأقوال العذبة أو الغزلية التي لا يتوانى المرء عن قولها لامرأة عرفها، فكانت تبتسم لها أو تتجاهلها. وإذا ما صدّق المرء كلامها فهي مطمئنة القلب. ولم تكن تتخيل مطلقاً أن مثل هذا الصديق سيحقق لها طموح السعادة في الحياة، كما أنها لم تعد في المرحلة الأولى من شبابها فرغباتها قد أصابها الضعف.

"هكذا! أليس لديك ما تبوحين لي به؟

-كلا.

-لكن الكونت الصغير، كان يلاحقك بإلحاح شديد، يا صديقتي، في مرحلة عشقنا؟

-أعلقت الباب بوجهه ولم أعد أراه.

-إنه لأمر عجيب ! ولم أبعدتِهِ؟

-لأنه لا يروقني.

-إيه، يا سيدتي، أظنني قد خمنت: فأنت ما زلت تحبينني.

-ذلك أمر ممكن.

-وتحسبين حساباً لرجوعي.

-ولِمَ لا؟

-فتحرصين على مزايا سلوك لا تشوبه شائبة.

-أعتقد ذلك.

-وإذا ما شاء حسن طالعي أو سوؤه أن أصل ما انقطع، فسوف تفاخرين بالصمت الذي تلتزمين به حيال نقائصي.

-أنت تحسبني في غاية الرقة ومنتهى الأريحية.

-بعد كل ما قمت به، يا صديقتي، لا يبقى شكل من البطولة إلا وتقدرين عليه.

-لا يسوؤني أن تفكر على ذلك النحو.

-أقسم على أني أعرّض نفسي لأعظم المخاطر في صحبتك، فأنا واثق من ذلك."

جاك- وأنا أيضاً.

المضيفة- بعد أن انقضت ثلاثة أشهر وهم في النقطة نفسها، ارتأت مدام دولابومريه أن الوقت حان لتبدأ بوضع ما خططت له موضع التنفيذ. ففي يوم صيفي جميل، وكانت تنتظر المركيز على الغداء بعثت إلى ديسنون وابنتها بأن تتوجها إلى حديقة الملك[1]. وجاء المركيز فقدّم الطعام في وقت مبكر. وتناولا الغداء في جو من البهجة. واقترحت مدام دولابومريه على المركيز القيام بنزهة بعد الغداء ما لم يكن لديه اقتراح أفضل. ولم يكن في ذلك النهار من احتفال في دار الأوبرا أو عرض مسرحي. فالمركيز هو الذي لاحظ ذلك. وقررا التمتع بمناظر مفيدة تعويضاً عن عرض مسلٍّ. فشاءت المصادفة أن يكون هو نفسه الذي دعا المركيزة للتوجه إلى حديقة الملك. ولم يقابل طلبه بالرفض كما تعلمون. وشدت الخيول إلى العربة فانطلقا. فوصلا إلى حديقة الملك. واختلطا بجمهور حاشد فكانا ينظران إلى كل شيء من غير أن يريا شيئاً، مثلهما مثل الآخرين...

نسيت أن أرسم لك، أيها القارئ، مواقع الأشخاص الثلاثة المجتمعين هنا: جاك ومعلمه والمضيفة. وبسبب السهو عن تلك الملاحظة، أصغيت إليهم يتكلمون من غير أن تراهم البتة. لكن الفضل المتأخر خير من

[1] اسمها الحالي. حديقة النبات.

العدم. فالمعلم إلى اليسار، يضع طاقية النوم ويرتدي المبـــذل ويتمـــدّد باسترخاء فوق أريكة كبيرة منجّدة، ومنديله مرمي على ذراع الأريكـــة، أما علبة النشوق ففي يده. وجلست المضيفة في صدر الحجرة، مقـــابل الباب وكأسها موضوعة أمامها. أما جاك فعلى يمينها، يجلس من غـــير قبعة، معتمداً بمرفقيه على الطاولة حانياً رأسه بين الزجاجتين: وهنـــالك زجاجتان أخريان فارغتان على الأرض إلى جانبه...

"ترك المركيز وصديقته مكان الحشد للتجول في أرجـــاء الحديقـــة. فسلكا الممشى الأول المتجه يميناً بالنسبة للداخل، قريبـــاً مـــن مدرســـة الأشجار، حين أطلقت مدام دولابومريه صيحة دهشـــة قائلـــة: "لســـت مخطئة، بل أعتقد أنهما هما، بلى، هما بعينهما."

وتركت المركيز على الفور، لتتقدم للقاء صاحبتينا الورعتين. كـــانت الشابة ديسنون فاتنة تحت مظهر البساطة في ملابسها، التي لا تجتـــذب الأنظار، فتجعل الاهتمام كلّه يتركّز على شخصها. "آه! هذه أنـــت يـــا سيدتي؟

-أجل، هذه أنا.

-ولكن كيف هي أحوالكم، وماذا فعلت بكم الأيـــام بعـــد ذلـــك الزمـــن الطويل؟

-أنت على علم بما حلّ بنا من مصائب. فكان علينـــا أن نرضـــخ وأن نعيش في عزلة على قدر ما تسمح به ثروتنا الضئيلة، كـــان علينـــا أن نتخلّى عن العالم، حين لم يعد في يدنا الظهور فيه على النحو اللائق.

-ولكن كيف لكما أن تتخليا عني، أنا لست مـــن هـــذا العـــالم، والتـــي احتفظت على الدوام بالحس السليم الذي يراه كئيباً بقدر ما هو عليه!

-تكمن إحدى مساوئ سوء الطالع في الريبة التي توحـــي بـــها إليـــك: فالمعوزون يخشون أن يتسبّبوا بالإزعاج.

-أنتما تتسببان بإزعاجي! إن هذا الشك ليقارب الإهانة.

-سيدتي، إني بريئة من ذلك كل البراءة، وقد ذكّرت أمّي بك عشرات المرات. لكنها كانت ترد عليّ قائلة: مدام دولابومريه... ما عاد من أحد يفكّر بنا، يا ابنتي.

-يا له من ظلم! فلنجلس ونتحدث. ذلكم هو المركيز ديزارسي. إنه صديقي، وحضوره لا يضايقنا في شيء. ألا كم كبرت الآنسة! وكم ازدادت حسناً مذ أن افترقنا!

-تلك هي الفائدة التي نجنيها من وضعنا الذي يحرمنا من كل ما يضر بالصحة: فانظري إلى وجهها وذراعيها. ذلك ما ندين به للتقشف في المعيشة والانتظام فيها، والنومِ والعمل وراحة البال، وإنه لشيء. ."

وجلسوا فكان الحديث وديّاً. وتكلمت الأم ديسنون فأجادت، وتكلمت البنت ديسنون فكانت مقلّة. وكانت نغمة التقوى هي النغمة السائدة بين هذه وتلك، ولكن بيسر ظاهر،بعيداً عن التطرف في الاحتشام. وقامت صديقتانا الورعتان قبل غياب الشمس بوقت طويل. فقيل لهما إن الوقت ما يزال مبكراً، فهمست الأم ديسنون في إذن مدام دولابومريه بصوت مسموع، إنّ عليهما أن تؤديا أيضاً آخر فروض العبادة وإنهما لا تستطيعان البقاء أكثر من ذلك. وحين أصبحتا على مسافة بعيدة بعض الشيء،لامت مدام دولابومريه نفسها لأنها لم تسألهما عن مكان سكنهما ولم تعلمهما بمكان سكنها هي، وأضافت: "هذه غلطة ما كنت أرتكبها فيما مضى." فهرع المركيز لاستدراكهما، فقبلتا أخذ عنوان مدام دولابومريه، لكنه لم ينجح في أخذ عنوانهما على الرغم من إلحاحه الشديد. ولم يجرؤ على أن يعرض عليهما إيصالهما بعربته، رغم أنه اعترف أمام مداد دولابومريه بأنّ نفسه قد سوّلت له ذلك.

ولم يتوان المركيز عن سؤال مدام دولابومريه عن حقيقة المرأتين. "إنهما مخلوقتان أكثر منا سعادة. حسبك ما تتمتعان به من صحة ! والإشراق الذي يسود محياهما! والبراءة والحشمة اللتان تمليان كلامهما. مثل ذلك لا نراه ولا نسمعه في حلقاتنا أبداً. فنحن نَرِقّ لحال الأتقياء،

والأتقياء يرقّون لحالنا. لكن إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبـــار، فـــإني أميل إلى الاعتقاد بأنهم على حق.

-ولكن، يا مركيزة، أهنالك ما يستهويك لأن تصيري ورعة؟

-ولم لا؟

-كوني على حذر، فأنا لا أريد لقطيعتنا أن تمضي بك إلى تلك المسالك.

-أي أنك تفضّل أن أفتح بابي مجدداً للكونت الصغير؟

-ذلك أفضل بكثير.

-وتنصحني به؟

-من غير تردّد..."

أخبرت مدام دولابومريه المركيز بما تعرفـــه عـــن أصـــل هـــاتين الورعتين وعن مقاطعتهما وحالهما ودعواهما، موشيّة حديثها بكل مـــا يمكن من جذب للاهتمام وإثارة للعواطف. ثم أضافت: "إنهما امرأتـــان على درجة نادرة من الفضل، لا سيما الفتاة. وإنك لتدرك أن مـــن لـــها مثل ذلك المحيّا لا يعوزها شيء هنا حين ترغب في أن تجعله موردها. غير أنهما فضلتا النزاهة والكفاف على الرخاء المشبوه. وإن مـــا بقـــي لهما على درجة من الضحالة، حتى ليحيّرني في الواقع كيـــف تفعـــلان لتدبّر أمرهما. فهو العمل الدؤوب ليلاً ونهاراً. إن تحمّل الفاقة حين يولد الإنسان فيها، هو ما يجيد فعله عدد كبير من الناس. غير أن الانتقال من الرخاء إلى درجة العوز القصوى، والقبول بها، والعثور على الغبطـــة فيها فذلك ما يتجاوز قدرتي على الاستيعاب. فهاك ما نفع الدين. ومـــهما قال فلاسفتنا، فالدين شيء حسن.

-وللتعساء بشكل خاص.

-ومن ليس كذلك بدرجة أو بأخرى؟

-أريد أن أموت إذا ما صرتِ ورعة.

-يا لها من مصيبة! لكن هذه الحياة شيء ضئيل إذا مـــا قارنّاهـــا بالأبديـــة القادمة.

-غير أنك صرتِ تتكلمين مثل رجال الإرساليات.

-أتكلم مثل امرأة ذات اعتقاد. تعال، يا مركيز، وأجبني صادقاً. ألَنْ تغدوَ ثرواتنا كلها اسمالاً بالية في نظرنا إذا ما صرنا مقتنعين أكثر بانتظار نِعَم حياة أخرى، والخشية من آلامها؟ وعليك أن توافقني على أن التغرير بفتاة أو بامرأة متعلقة بزوجها، مع الاعتقاد بأن المرء قد يلفظ أنفاسه وهو بين ذراعيها ليهوي على نحو مباغت في لجّة عذابات لا تنتهي، هو هذيان لا يُصدَّق.

-غير أن ذلك يقع يومياً.

-ذلك أن المرء بلا إيمان أبداً وأنه يتناسى.

-لأن آراءنا الدينية ذات تأثير ضئيل على أخلاقنا. ولكن، يا صديقتي، أقسم لك على أنك تتوجهين بخطى حثيثة نحو كرسي الاعتراف.

-الحق إن ذلك لأفضل ما يمكن أن أقوم به.

-ويحكِ، لقد أصبت بالجنون. ما زال أمامك عشرون عاماً لارتكاب أجمل الخطايا: لا تجعليها تفوتك. وتتوبين من بعد، فتتوجهين للتباهى بها عند أقدام الكاهن، إن كان ذلك يروقك... ولكن ها هو حديثنا يتخذ منحى جدياً. فخيالك غدا مظلماً بشدة، وذلك نتيجة لهذه العزلة المقيتة التي غرقت فيها مجدداً. قومي باستدعاء الكونت الصغير بأسرع ما يمكن، صدقيني، ولن تري من بعد من شيطان أو جحيم، فتعودين فاتنة كما في السابق. أنت تخشين أن ألومك على ذلك إذا ما عدنا يوماً إلى التسوية. لكننا، قبل كل شيء، قد لا نعود إلى التسوية. فأنت تحرمين نفسك من أعذب المتع بتأثير تصور ساذج لا يقوم على أساس. والحقيقة أن حرصك على أن تفضليني لا يستحق هذه التضحية.

-ما تقوله صحيح، لذا فليس ذاك ما يمنعني...

وقالا أيضاً أشياء أخرى كثيرة لا أتذكرها.

جاك- يا مضيفتنا، فلنشرب أيضاً: فذلك يبثّ النشاط في الذاكرة.

المضيفة- فلنشرب أيضاً... وبعد بضع جولات في المماشي صعدت مدام دولابومريه والمركيز إلى العربة. فقالت مدام دولابومريه: "كم يشعرني ذلك بالشيخوخة. فحين جاءت إلى باريس لم تكن بأطول من ملفوفة.

-تتكلمين على ابنة تلك السيدة التي صادفناها في الجولة؟

-أجل. فالأمر كما في الحديقة التي تفسح فيها الورود الذابلة المكان للورود اليانعة. هل أمعنتِ فيها النظر؟

-لم أتوان عن ذلك.

-فكيف وجدتها؟

-إنها أشبه بوجه العذراء التي رسمها رافائيل على جسد لوحته غالاتيه. مضاف إليها عذوبة في الصوت.

-وتواضع في النظر.

-ولياقة في المظهر.

-واحتشام في الكلام لم يؤثر في نفسي وقعه من أي فتاة أخرى مثلها. وذلك من فعل التربية.

-حين يكون على جمال السجيّة.

أنزل المركيز مدام دولابومريه على بابها. ولم تكن مدام دولابومريه في عجلة من أمرها إلا لتعرب للمرأتين التقيتين عن رضاها التام عن الطريقة التي أدّتا بها دورهما.

جاك- وإذا ما واصلتا على نحو ما بدأتا، فاعلم يا مركيز ديزارسي أنك لن تفلت منهما، حتى لو كنت إبليساً بعينه.

المعلم- كم أودّ أن أعرف ما هو مشروعهما.

جاك- أما أنا فيغيظني ذلك: فهو يفسد كل شيء.

المضيفة- منذ ذلك النهار أضحى المركيز أكثر مواظبة على منزل مدام دولابومريه التي لاحظت ذلك من غير أن تسأله عن السبب. وما كانت البادئة مرة في الكلام عن الورعتين. فكانت تنتظر أن يبدأ هو الموضوع:

وهذا ما كان يفعله المركيز دوماً بنفاد الصبر، مـــع لا مبـــالاة لا يجيـــد تمويهها.

المركيز- هل رأيت صديقتك؟

مدام دولابومريه- كلا.

المركيز- أتعرفين أن ذلك غير لائق؟ أنت غنية: وهما في العَوَز. ومـــع ذلك فأنت لا تدعينهما حتى لتناول الطعام أحياناً !

مدام دولابومريه- كنت أظن أن السيد المركيز يعرفني معرفة أفضـــــل بعض الشيء. فالحب فيما مضى وهبني الفضائل، والصداقة الآن تهبني النقائص. لقد دعوتهما عشر مرات من غير أن أحظى بهما مرة واحـدة. فهما ترفضان القدوم إلي بفعل أفكار غريبة، وحين أقوم بزيارتهما أكون ملزمة بترك عربتي عند أول الشارع وأن أتوجه إلى منزلــــهما بثـــوب بيتيّ بسيط من غير تبرّج ولا مجوهرات. وليس لنا أن نبـــــدي دهشـــة كبيرة حيال احترازهما: فعلاقة مشبوهة واحـــــدة، كفيلـــة بجعـــل روح الإحسان لدى عدد من المحسنين، تنحـــــرف عنـــهما فتحرمـــهما مـــن مساعداتهم. فالخير في الظاهر، يا مركيز، يكلف عناءً كبيراً.

المركيز- لا سيما للأتقياء.

مدام دولابومريه- ما دام أدنى مبرر كفيلاً بحرمانهما منه. فلـــــو علـــم الناس أني أوليهما اهتمامي، لقالوا عاجلاً: أخذتهما مدام دولابومريه فـــي كنفيها: فلم تعودا بحاجة لشيء... وتتوارى من بعد كافة الصدقات.

المركيز- الصدقات؟

مدام دولابومريه- أجل، يا سيدي، الصدقات.

المركيز- أنت تعرفينهما، وهما بحاجة إلى صدقات؟

مدام دولابومريه- وأرى مرة أخرى، يا مركيز، أنك لم تعد تحبني، وأن قسماً من ودّك قد ذهب بذهاب حنانك. فمن قال لك إنّ حاجـــــة هـــاتين المرأتين إلى صدقات أبناء الأبرشية، نتيجة لخطأ مني؟

المركيز– معذرة، يا سيدتي، وألف معذرة، فأنا على خطأ. لكن ما هو المبرر لرفض حسن التفات صادر عن صديقة؟
مدام دولابومريه– إيه يا مركيز، إننا لبعيدون كل البعد، نحن أبناء المجتمع، عن الإحاطة برهافة حِسّ النفوس الورعة وتشكّكها. فهي لا نظن أن بوسعها قبول العون من أي شخص كان دونما تمييز.
المركيز– إن ذلك لينزع من يدنا خير وسيلة للتكفير عن مظاهر فسقنا المجنونة.
مدام دولابومريه– غير صحيح مطلقاً. فأنا أرفض على سبيل المثال أن السيد المركيز ديزارسي، قد امتلأ عطفاً حيالهما. فلم لا يوصل إليهما معوناته عبر أيد أكثر أهلية؟
المركيز– وأقل ضماناً.
مدام دولابومريه– ذلك ممكن.
المركيز– هلاّ قلت لي، إذا ما بعثت إليهما بعشرين ليرة ذهبية، فهل تعتقدين أنهما ترفضانها؟
مدام دولابومريه– بل أنا واثقة من ذلك. وقد يبدو لكَ ذلك الرفض غير لائق من أم لديها بنت فاتنة؟
المركيز– أتدرين أن نفسي راودتني على الذهاب لرؤيتهما؟
مدام دولابومريه– أصدّق ذلك. ولكن يا مركيز، يا مركيز، كن على حذر. فتلك بادرة رحمة مباغتة جداً ومشبوهة جداً.
المركيز– مهما يكن من أمر، فهل كانتا ستستقبلانني؟
مدام دولابومريه– لا، بكل تأكيد. فبريق عربتك وموهو ملابسك، ومظهر جرسك، وفتنة شبابك، لا تحتاج لأكثر من ذلك لتجهيز العتاد لتنمية الجيران والجارات ولتودي بهما.
المركيز– أنك لتحزنيني. فذلك ليس ما أرمي إليه بكل تأكيد. فهل ينبغي التخلي إذن عن التفكير بمدّ يد العون لهما أو رؤيتهما؟
مدام دولابومريه– أعتقد ذلك.

المركيز– وما قولك في أن تصلهما معوناتي عن طريقك؟
مدام دولابومريه– لا أظن أن تلك المعونات طاهرة المضمون لأتولّى أمرها.
المركيز– ذلك موقف قاس.
مدام دولابومريه– بلى، قاس: إنها الكلمة المعبّرة.
المركيز– يا له من وهم ! إنك تسخرين، يا مركيزة. ففتاة لم أرها سوى مرة واحدة...
مدام دولابومريه– غير أنها من عدد ضئيل من اللواتي لا ينساهن المرء بعد أن يراهنّ.
المركيز– إنه لصحيح أن تلك الوجوه تظل تلاحقك.
مدام دولابومريه– يا مركيز، قلت لك احترز. فأنت ستجلب على نفسك المتاعب. وإنّي لأفضل أن أصونك منها على أو أواسيك بها. فلا يذهبن بك الأمر إلى الخلط بين هذه وبين اللواتي عرفتهن: الأمر هنا مختلف. فهي من اللواتي لا يسعى المرء إلى اختبارهن ولا إلى إغوائهن أو إلى مقاربتهن، لأنهن لا يصخن السمع فلا يصل وإياهن إلى مرامه."

تذكّر المركيز بشكل مباغت، على أثر ذلك الحديث، إنه على عجلة من أمره بسبب أحد شؤونه، فنهض على حين غرة وانصرف مهموماً.

وانقضت فترة زمنية لا بأس بها، لم ينقطع المركيز فيها عن القدوم إلى عند مدام دولابومريه يومياً. لكنه يصل فيجلس ويلوذ بالصمت. وتتكلم مدام دولابومريه وحدها. فينهض المركيز في غضون ربع ساعة وينصرف.

واحتجب من بعد ذلك احتجاباً دام قرابة شهر، ليعود إلى الظهور من بعد، غير أنه كان حزيناً وكان مكتئباً وكان على شحوب. وحين رأته المركيزة قالت له: "ما هذه التي أنت عليها بحال! من أين خرجت؟ وهل أمضيت كل هذا الوقت في دار للأمراض العقلية؟

المركيز- أقسم لك على أنه شيء من ذاك القبيل. فقد ارتميت بدافع القنوط، في هوة هائلة من الفجور.
مدام دولابومريه- كيف بدافع من القنوط؟
المركيز- أجل، من القنوط .."

وقام من بعد يقطع المكان جيئة وذهاباً من غير التلفظ بكلمة واحدة. فيذهب حتى النوافذ فينظر إلى السماء ثم يتوقف أمام مدام دولابومريه. فيذهب إلى الباب فيستدعي خدمه من غير أن يجد أوامر يصدرها إليهم فيصرفهم. فيدخل فيرجع إلى مدام دولابومريه، التي كانت تعمل من غير أن تقع عينها عليه. فيرغب في الكلام فلا يجرؤ عليه. وأشفقت عليه مدام دولابومريه في نهاية الأمر فقالت له:"ما بك؟ مرّ شهر من غير أن نراك. وظهرت بوجهٍ قائمٍ من بين الأموات، وها أنت تهيم مثل روح تعانى أشد العذاب.
المركيز- ما عدت بقادر على الصمود فينبغي أن أقول لك كل شيء. لقد شغفت شغفاً عنيفاً ببنت صديقتك. فعلت كل شيء، أقول كل شيء من أجل أن أنساها. وكلما بذلت جهداً أكبر تذكّرتها أكثر.لقد تلبّستني تلك المخلوقة الملائكية. فهلاّ أديتِ لي خدمة جليلة.
مدام دولابومريه- ما هي؟
المركيز- ينبغي أن أراها مجدداً مهما كلّف الأمر، وأن أكون مديناً لك بذلك. وضعت كافة خدمي في حالة تأهب. كان ذهابهما كلّه وإيابهما من بيتهما إلى الكنيسة ومن الكنيسة إلى البيت. اعترضت دربهما ماشياً عشر مرات. فلم تعيراني مجرد التفاته، وقفت لدى بابهما من غير ما فائدة. جعلتاني في البداية فاجراً مثل عجوز دميم كالقرد، ثم ورعاً مثل

ملاك. لم أتخلف عن القداس مرة واحدة منذ خمسة عشر يوماً. آه، يا صديقتي، يا له من محيّا! ألا كم هي جميلة!..."

كانت مدام دولابومريه على علم بكل ذلك. وقد ردت على المركيز قائلة: "أي أنك بعد ما فعلت كل ما وسعك لكي تشفى، لم تدخر وسيلة في سبيل أن تغدو مجنوناً، وإن ذلك الخيار الأخير هو الذي لاءمك؟
المركيز- بل ونجحت فيه. ولا يسعني أن أقول لك إلى أي حد. أفلا تأخذك بي الرحمة؟ ألا أدين لك مجدداً بالسعادة في رؤيتها؟
مدام دولابومريه- المسألة عويصة وسوف أوليها اهتمامي، لكن لي شرط واحد: أن تدع هاتين المنكودتي الحظ بسلام وأنت تكفّ عن تعكير صفو حياتهما. ولن أخفي عنك أبداً أنّهما كتبتا لي بمرارة على مضايقاتك المرهقة، وهذه هي رسالتهما..."

كانت الرسالة التي أعطيت للمركيز كي يقرأها قد كتبت بالتناغم فيما بينهن. وتبين منهما أن الفتاة ديسنون كتبتها بإيعاز من أمها: فضمّنت الرسالة النزاهة والعذوبة والشجن واللباقة ورهافة الحس، وكل ما من شأنه أن يذهب بعقل المركيز. وهكذا فما من كلمة قرأها إلا وأرفقها بالتعجب. وما من عبارة إلا وكررها. لقد بكى فرحاً وهو يقول لمدام دولابومريه: "عليك أن تعترفي معي يا سيدتي، بأنه لا يسع المرء أن يكتب ما هو أكثر روعة.
-أوافقك الرأي.
-وبأننا نشعر مع كل سطر بالإعجاب والاحترام حيال نساء من هذه الطينة.
-لا بد من ذلك.

-سوف أقطع لك عهدي. لكني أتوسّل إليك أن تتذكري الوفاء بعهدك.
مدام دولابومريه- أنا في الحقيقة، يا مركيز، على نفس درجة جنونك. ولا بدّ أن تكون احتفظت بهيمنة رهيبة عليّ. وإن ذلك ليفزعني.
المركيز- متى سأراها مجدداً؟
مدام دولابومريه- لست أدري. فينبغي أن نهتم بادئ الأمر بوسيلة لتسوية المسألة، وتفادي كل شبهة. فلا يسعهما تجاهل مراميك. فأنظر فيما ستكون عليه مسايرتي في أعينهما، إذا ما تراءى لهما أني أعمل بالتنسيق معك... ولكن يا مركيز، ولننقل ذلك فيما بيننا، ما حاجتي أنا وذلك الإرباك كله؟ وما همّني أن تقع في الهوى أو لا تقع؟ وأن تصاب بالهوس؟ اقتلع أشواكك بيديك. فالدور الذي أسندته إليّ لأدائه على درجة فائقة من الغرابة.
المركيز- يا صديقتي، إن تتخلّيْ عني يُقْضَ علي. ولم أحدّثك عن نفسي أبداً ما دمتُ أسيء إليك، لكني أستحلفك بهاتين المخلوقتين الجذابتين والكريمتين، واللتين لهما مكانة عالية لديك. فأنت تعرفين من أنا، فوفّري عليهما كل الحماقات التي من شأني ارتكابها. فسوف أذهب إلى عندهما. أجل، سأذهب. وأعلمك بذلك مسبقاً. سأكسر بابهما فأدخل رغماً عنهما فأجلس، ولا أدري ما سأقوله أو أفعله. فكم عليك أن تتخوّفي من حالة العنف التي صرت إليها؟..."

قالت المضيفة: أنتم لاحظتم، يا سادة، منذ بداية هذه المغامرة وحتى الآن أن المركيز ديزارسي لم يتفوّه بكلمة واحدة من غير أن تشكل طعنة خنجر موجهة إلى قلب مدام دولابومريه. فكانت تختنق سخطاً وتتحرّق غيظاً. لذا فقد ردت على المركيز بصوت مرتعش ومتقطع:

"غير أنك على حق. إيه! ألا ليتني كنت محبوبة على ذلك النحو، فلربما... لكن فلنتجاوز ذلك... ليس ما سأقوم به من أجلك أنت، لكني آمل على الأقل، يا سيدي المركيز، أن تدع لي ما يكفي من الوقت.
المركيز- إلى أدنى حد، إلى أدنى حدّ أستطيعه.

جاك- آه، يا مضيفتنا، أية امرأة إبليسية هي تلك المرأة؟ ليس لوسيفير[1] شرّاً منها. لقد سببت لي رعدة في أوصالي: ولا بد من أن أشرب كأساً ليهدأ روعي... فهل ستدعينني أشرب وحدي؟

المضيفة- أنا لست خائفة... كانت مدام دولابومريه تقول :"إنـي أتـألم، لكني لا أعاني وحدي. أيها الرجل القاسي! أنا أجهل كم سيدوم عذابي، لكني سأجعل عذابك أبدياً..." وأبقت على المركيز قرابة شهر في انتظار اللقاء الموعود، أي أنّها أفسحت أمامه المجال كاملاً ليتعذّب فينتشي في عذابه، وأنها تحت ستار التلطيف من طول المدى، سمحت له بأن يحدثها عن شدة لوعته:

المعلم- وأن تزيده فيها رسوخاً بالكلام عنها.

جاك- يا لها من امرأة! يا لها من امرأة إبليسة! يا مضيفتنا، إن فزعي لَيتَضاعف.

المضيفة- كان المركيز يأتي إذن كل يوم ليتحدث مع مدام دولابومريه التي تفقده صوابه بإثارته وتقسيته وتضليله بالأحاديث الأكثر خداعاً. فيستعلم عن موطن المرأتين الأصلي، وعن نبل محتدهما وعن تربيتهما وثروتهما ونكبتهما. ويعود إلى ذلك مجدداً، فلا يحسب نفسه عرف ما فيه الكفاية البتة. فتلفت المركيزة انتباهه إلى التصاعد المتدرج لعواطفه، وتزيده وإياها أُلفة، تحت ستار من إثارة فزعه منها. فتقول لـه :"إنـي أحذّرك، يا مركيز، فسوف يمضي ذلك بك بعيداً. ويمكن أن يأتي علينا يوم لا تعود فيه صداقتي، التي تستغلها بإسراف غريب، بقادرة على إيجاد العذر لي ولك. وليس الأمر في أن المرء قد يرتكب يومياً مثل تلك الحماقات. وإني لأخشى كثيراً، يا مركيز، أن لا تنال تلك الفتاة إلا بشروط ما كان لها حتى اليوم أن تخطر منك على بال."

وحين اقتنعت مدام دولابومريه بأن المركيز غدا معداً تمام الإعداد لتنفيذ مرامها، اتفقت مع المرأتين على القدوم للغداء عندها. ومع

[1] زعيم الأبالسة.

المركيز على خداعهما بأن يباغتهما على أنه قادم لتوّه من الريف. وذلك ما جرى تنفيذه.

كانوا في التبديل الثاني للأطباق حين أُعلن عن قدوم المركيز. وقد أدى المركيز ومدام دولابومريه والمرأتان ديسنون دور الشعور بالحرج أداءً رائعاً. قال المركيز لمدام دولابومريه :"سيدتي، إني قادم من منطقة حقولي. وفات أوان وصولي إلى منزلي، حيث لا ينتظرونني قبل المساء، وأملت في أن أجد لنفسي مكاناً على مائدة غدائك..." وتناول كرسياً وهو يقول ذلك فجلس إلى المائدة. وكان ترتيب المقاعد على نحو يجعله يجلس بجوار الأم ومواجهة الفتاة. فشكر بغمزة مدام دولابومريه على لفتتها الكريمة. وعادت الطمأنينة إلى نفس صديقتينا الورعتين من بعد اضطراب. فدار الحديث وكان مرحاً. وأبدى المركيز اهتماماً كبيراً بالأم وتهذيباً وتحفظاً حيال الفتاة. وكانت تسلية ضمنية ممتعة جداً للنساء الثلاث، تمثّلت في حرص المركيز على أن لا يتفوه أو يقوم بكل ما من شأنه أن يتسبّب في تجفيلهما. وبلغت بهنّ البربريّة حدّ إلزامه بالكلام عن التديّن والتقوى طيلة ثلاث ساعات ونصف على التوالي، فقالت له مدام دولابومريه :"تتضمن أحاديثك إطراءً رائعاً لوالديك. فالدروس الأولى التي نتلقاها على أيديهما لا تمحّي أبداً. وأنت تحيط بكافة الأفكار الدقيقة المتعلقة بالحب الإلهي، وكأنك تلقيت تربيتك بكافة مراحلها في مدارس القديس فرانسوا دوسال. فهل اعتنقت الطمأنينية[1] يوماً.
-لا أذكر .."

من نافلة القول أن تضمّن صديقتانا الورعتان حديثهما كل ما تتمتّعان به من فتنة وذكاء وإغراء ورقة. وقد مروا في طريقهم بفصل العواطف، فادعت الآنسة دوكينوا (وتلك هي شهرتها) بأنه لا يتضمن سوى واحدة خطرة فقط. فأيدها المركيز في رأيها. وقامت المرأتان فانصرفتا ما بين السادسة والسابعة من غير أن يقوى أحد على التمسك

(1) مذهب تصوّفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكون الروح. ـم ـ

بهما أكثر. فأكّدت مدام دولابومريه والسيدة دوكينوا أنّ من الأفضل التوجه لأداء الواجبات، وإلا فلن يمرّ يوم من غير أن تعكّر الندامة صفو عذوبته. وانصرفنا مخلّفتين شعوراً بالأسف لدى المركيز الذي عاد إلى جلسته الانفرادية مع مدام دولابومريه.

مدام دولابومريه- طيب، يا مركيز، ألست أنا في منتهى الطيبة؟ حاول أن تجد في باريس امرأة أخرى يمكن أن تفعل مثل ما فعلت.

المركيز- وهو يجثو أمامها- هذا صحيح، فليس لك من قرين. وطيبتك تربكني: أنت الصديقة الحقيقية الوحيدة في الدنيا.

مدام دولابومريه- هل أنت واثق أيضاً من إحساسك على الدوام بقيمة فعلي؟

المركيز- سوف أكون هَوْلة من الجحود إذا ما انتقصت منها.

مدام دولابومريه- فلنغيّر البحث. ما هي حال قلبك؟

المركيز- هل أقولها بكل صراحة؟ لا بدّ لي من أن أنال تلك الفتاة أو أن أهلك بسببها.

مدام دولابومريه- سوف تنالها دون شك، لكن ينبغي أن نعرف على أي أساس.

المركيز- سوف نرى.

مدام دولابومريه- مركيز، يا مركيز- أنا أعرفك وأنا أعرفهما: فكل شيء واضح.

أمضى المركيز قرابة شهرين من غير أن يظهر لدى مدام دولابومريه. وهذه هي المساعي التي قام بها أثناء تلك الفترة. فقد تعرّف على معرّف الأم وابنتها. وهو صديق لرئيس الدير السابق الذي كلمتكم

عليه من قبل. فبعد أن وضع ذلك الكاهن كافة العراقيل الخداعة التي يمكن تحميلها لمكيدة غير شريفة، وباع بأغلى ثمن ممكن قدسية رتبته الكهنوتية، تطوع لتنفيذ كل ما يطلبه المركيز.

فكانت الدناءة الأولى التي قام بها رجل الله ذاك، سعيه إلى تحويل عطف الخوري، عن طريق إقناعه بأن هاتين المرأتين في كنف مدام دولابومريه، وتحصلان من الأبرشية على صدقة فتحرمان منها المعوزين الذين هم بحاجة ماسّة إليها أكثر منهما. وكان هدفه أن يجتذبهما إلى حبائله عن طريق البؤس.

ثم عمل بعدئذٍ ضمن كرسي الاعتراف على بث الفرقة بين الأم وابنتها. فحين يسمع الأم تشكو من ابنتها، يبالغ في إظهار نقائص هذه ويزيد في ضغينة تلك. وإذا كانت البنت هي التي تشكو من أمها، يلمّح لها بأن سلطة الآباء والأمهات على أبنائهم سلطة محدودة، وإن اضطهاد أمّها لها إذا كان يبلغ حداً معيناً، فربما لا يغدو تخليصها من تلك السيطرة المستبدة أمراً مستحيلاً. ثم يطلب تكفيراً عن ذنوبها أن تعود للاعتراف مجدداً.

ويكلّمها مرة أخرى عن مفاتنها، لكن بحذق: فهي من أخطر الهبات التي استطاع الله أن يهبها للمرأة. وعلى الأثر الذي تركته في نفس رجل شريف لن يسميه لها، لكن لا يشق عليها أن تخمّن من هو. فينتقل من بعد إلى رحمة السماء اللامتناهية وتساهلها حيال أخطاء تتطلّبها بعض الظروف. وإلى ضعف الطبيعة البشرية حتى أن كل واحد يجد لها العذر في قرارة نفسه. وإلى عنف بعض الرغبات وشموليتها، حتى لا يخلو منها أكثر الناس قداسة. ويسألها بعدئذٍ إن كانت لديها رغبات، وإن كانت الشهوات تتراءى لها في أحلامها، وإذا كانت تشعر بحضرة الرجال بشيء من الاضطراب. ويتناول من بعد قضية المرأة وهل عليها أن تستجيب لرغبة رجل مشغوف بها، أو أن تقاومه، وهل لها أن تقضي بالموت أو العذاب على رجل، سكب المسيح دمه من أجله: من غير أن

يجرؤ على جعلها تتخذ القرار. ويطلق بعدئذٍ زفرات وتنهدات فيرفع عينيه إلى السماء ويصلي من أجل أن تحل الطمأنينة في النفـــوس المعذبــة... وكانت الفتاة ترخي له العنان. فتقترح عليها أمها ومدام دولابومريه، وهي التي تنقل إليهما بأمانة كافة توجيهات معلم اعترافها، جميع أشكال المسارة الكفيلة بتشجيعه.

جاك- إنّ صاحبتكِ، مدام دولابومريه، امرأة سيئة النية.

المعلم- حسبك، يا جاك، فالقول أسهل من الفعل. فمن أين جاء سوء نيتها؟ من المركيز ديزاسي. ردّه إلى ما كان عليه يوم أقسم، وإلى ما ينبغي أن يكون عليه، وحاول من بعد أن تجد عيباً ما لـــدى مـــدام دولابومريـــه. هاجمها بعد أن نستأنف طريقنا وسوف أتولى الدفاع عنـــها. أمـــا ذلـــك الكاهن الدنيء والمغوي، فدونك إياه.

جاك- إنه رجل على درجة من اللؤم وسوء النية، حتى بتُّ اعتقد، مـــن بعد تلك الواقعة، أنّي لن أتوجه إلى كرسي الاعتراف أبداً. فماذا عنـــك، يا مضيفتنا؟

المضيفة- أما أنا فسوف أواصل زياراتي لكاهننا المســـن الـــذي ليـــس فضولياً، فلا يسمع إلا ما يقال له.

جاك- ألا نشرب نخب صحة كاهننا؟

المضيفة- أعطيك الحقّ هذه المرة. لأنه إنسان صـــــالح. فـــهو يســـمح للفتيات والفتيان بالرقص أيام الآحاد والأعيـــاد. كمـــا يســـمح للرجـــال والنساء بالقدوم إلى حانتي على شرط ألا يخرجـــوا ســـكارى. فنخـــب كاهننا.

جاك- نخب كاهنكم.

المضيفة- لم يخامر النساء شكٌّ في أن رجل الله سيخاطر بتسليم رســـالة إلى الفتاة النادمة على خطاياها: وذلك ما حصل. لكنه فعل ذلك بمـــداراة كبيرة. فهو يجهل بادئ الأمر من أرسلها. ولا يشك في أنـــه ذو نفـــس محسنة ورحيمة، اكتشف مدى بؤسها فعرض تقديم مساعداته. وأنه غالباً

ما يسلّم رسائل مماثلة. "وأنت من بعد عاقلة والسيدة والدتك حكيمة، فأفرض أن لا تفتحيها إلا بحضورها." وقبلت الآنسة دوكينوا باستلام الرسالة فسلمتها لأمها، التي أوصلتها على الفور إلى مدام دولابومريه. فقامت هذه، وقد أضحت مزودة بالرسالة، فأحضرت الكاهن لتوجه إليه توبيخاً عنيفاً، وهددته برفع الشكوى إلى رؤسائه، إذا ما سمعت مجدداً أي كلام عليه.

وبعد أن لقنت مدام دولابومريه الكاهن درسه، استدعت المركيز لتريه إلى أي حدّ يخالف بسلوكه غير اللائق سلوك رجل رقيق الحاشية، وإلى أي حد يمكن أن يكون مشبوهاً. ثم أرته رسالته، وقالت باحتجاج إنها لا تستطيع، رغم ما بينهما من صداقة، أن تحول دون عرضها على المحكمة القانونية أو أن تضعها بين يدي السيدة دوكينوا، إذا ما لحق بابنتها أي عارض مفاجئ. وقالت له: "آه منك يا مركيز، فالهوى يفسدك. فأنت منحرف بطبيعتك، ما دام صانع الأشياء العظيمة لا يلهمك إلا الدناءات. وما الذي فعلته حيالك هاتان المرأتان لتحاول أن تضيف العار إلى بؤسهما؟ فهل عليك، إذا كانت تلك الفتاة جميلة، ورغبتْ في أن تظلّ متمسكة بالفضيلة، أن تغدو معذِّباً لها؟ وهل عليك أنت أن تجعلها تزدري إحدى أجمل الهبات التي تمنحها السماء؟ وكيف استحقيتُ أنا أن أكون متواطئة معك؟ تعال يا مركيز فاركع أمامي واطلب الصفح مني واحلف لي يميناً على أن تدع صديقتيّ المسكينتين بسلام." فوعدها المركيز على أن لا يباشر أمراً من غير موافقتها. لكن لا بدّ له من أن ينال تلك الفتاة مها يكن الثمن.

لكنّ المركيز لم يكن وفياً لعهده على الإطلاق. وعلمت الأم بالأمر. فلم يتردّد في التوجه إليها. فاعترف لها بجرم مشروعه، وعرض عليها مبلغاً طائلاً، وآمالاً يمكن أن تتحقّق مع الزمن، وارفق برسالته علبة مجوهرات ثمينة.

وعقدت النساء الثلاث مجلساً للتشاور. فمالت الأم والبنت إلى القبول. لكن ذلك لم يكن في حسبان مدام دولابومريه. فذكّرتهما بما قطعتاه لها من وعد. وهدّدت بالكشف عن كل شيء. ورغم الأسف الشديد الذي أبدته الورعتان، وأسف الفتاة على قرطين ماسيين انتزعتهما من أذنيها مع أنّهما لاءماها كثيراً، رُدّت علبة المجوهرات والرسالة مرفقتين بجواب يطفح بالزهو والسخط.

تشكّت مدام دولابومريه للمركيز من أن عهوده أضحت لا رصيد لها. واعتذر المركيز من أنه يستحيل عليه أن يكلفها بوساطة غير لائقة. فقالت له مدام دولابومريه: "يا مركيز، يا مركيز، سبق لي أن حذّرتك وأكرّر عليك تحذيري: لن تبلغ هنا مرامك. لكنّ أوان إسماعك المواعظ قد فات، وكل هذا الكلام بلا طائل: ليس في الأمر من حيلة."

فاعترف لها المركيز بأنه من رأيها، وطلب منها الإذن بالقيام بمحاولة أخيرة. فهو يتعهد بتأمين إيراد كبير وثابت للاثنتين، وبأن يتقاسم ثروته مع المرأتين وأن يجعلهما مالكتين لإحدى دوره في المدينة وأخرى في الريف مدى الحياة. فقالت له المركيزة:"حاول. فأنا لا أمنع سوى الإكراه. لكن آمن بقولي، يا صديقي، إن الشرف والفضيلة، حين يكونان حقيقيين، ليس لهما من ثمن بتاتاً عند الذين سعدوا بامتلاكهما. فعروضك الجديدة لن تلقى من إذن صاغية أكثر من السابقة: أنا أعرف هاتين المرأتين وأنا الضامنة لهما."

قدّمت العروض الجديدة. فعقد مجلس آخر للتشاور بين النساء الثلاث. وانتظرت الأم والبنت قرار مدام دولابومريه بصمت. فتجولت هذه الأخيرة في المكان لبعض الوقت متجهمة، لتقول: "كلا. فذلك ليس بكاف لقلبي المتقرّح..." ثم جاء الرد بالرفض. فأجهشت المرأتان بالبكاء على الفور، وارتمتا عند قدميها تتوسّلان، وتبيّنان كم يرعبهما رفض ثروة طائلة على ذلك النحو، مع أن بوسعهما القبول بها دون أية عاقبة سيئة. فردت مدام دولابومريه عليهما بجفاء: "وهل تظنان أني أفعل كل

ما أفعل من أجلكما؟ فمن أنتما؟ وبم أدينُ لكما؟ وماذا يحول بيني وبين إعادتكما معاً إلى مقمرتكما؟ إذا كان ما عرضه عليكما فائق الضخامة لكما فهو فائق الضحالة بالنسبة لي. اكتبي، يا سيدة، الجواب الذي سأمليه عليك، وليرسل أمام ناظري." وعادت المرأتان إلى بيتهما في حالة من الهلع تفوق حزنهما.

جاك- أعتقد أن تلك المرأة في حالة اهتياج شديد، فما الذي تريده حقاً؟ ألا ترضيها التضحية بنصف ثروة طائلة تعويضاً عما اعترى الحب من برود؟

المعلم- أنت يا جاك، لم تكن امرأة قط، ناهيك بامرأة شريفة، وتحكم على الأمور وفقاً لطبعك أنت، لا لطبع مدام دولابومريه. فهل تريد أن أقول لك ما أفكر فيه؟ أخشى أن يكون زواج المركيز من عاهرة مكتوباً فوق.

جاك- إن كان مكتوباً فوق فسوف يتم.

المضيفة- لم يتأخر المركيز عن الظهور مجدداً في بيت مدام دولابومريه. فقالت له: "طيب، ما حال عروضك الجديدة؟"

المركيز- قدّمت فرُفِضت. وأنا يائس من جراء ذلك. بودّي أن أنتزع ذلك الشغف الشقي من قلبي. بودي أن أنتزع قلبي دون أن أقوى. فانظري إلي، يا مركيزة. ألا ترين بين تلك الفتاة وبيني بعضاً من وجوه الشبه؟

مدام دولابومريه- لم أقل لك شيئاً بشأنها، غير أني لاحظتها. لكن ذلك ليس هو المقصود: فعلام عقدت العزم؟

المركيز- لست بقادر على اتخاذ قرار. فتراودني الرغبة في أن ألقي بنفسي داخل عربة بريد، وأن أمضي بعيداً ما امتدت بي الأرض. ويأتي وقت من بعد تخور فيه عزيمتي. فأشعر أني أتلاشى ويتشوّش فكري: فأغدو بليداً، لا أدري ما أنا صانع.

مدام دولابومريه- لا أنصحك بالسفر. فليس ما يدعوك للذهاب حتى فيلجويف لتقفل راجعاً."

في اليوم التالي كتب المركيز يقول للمركيزة إنه متوجه إلى أراضيه في الريف ليمكث فيها على قدر ما يستطيع، ويتوسّل إليها أن تتوسط له عند صديقتيها، إذا ما سنحت لها الفرصة. وكان غيابه قصيراً: لقد عاد عاقداً العزم على الزواج.

جاك- إن ذلك المركيز المسكين ليثير شفقتي.
المعلم- أما أنا فلا يؤثر فيّ كثيراً.
المضيفة- نزل أمام باب مدام دولابومريه، فكانت خارج البيت. وحين عادت وجدت المركيز مسترخياً فوق أريكة مغمض العينين وغارقاً في حلم يقظة عميق. "هذا أنت يا مركيز؟ أرى أن الريف لم يجتذبك بسحره طويلاً. فأجابها: -كلا، فلست على ما يرام أينما كنتُ. وقد جئت مصمماً على ارتكاب أعظم حماقة يمكن لرجل في مكانتي وسنّي وطبعي أن يرتكبها. لكن الزواج أفضل من العذاب. سأتزوج.
مدام دولابومريه- المسألة خطيرة، يا مركيز، وهي تتطلب التفكير.
المركيز- إن تفكيري لراسخ: لا يسعني أبداً أن أكون أكثر شقاء مما أنا عليه.
مدام دولابومريه- يمكن أن تكون مخطئاً.
جاك- يا لها من غادرة!
المركيز- هذه إذن، يا صديقتي، مفاوضات أستطيع على ما أرى، أن أكلّفك بها بكل نزاهة. قابلي الأم والفتاة. اسألي الأم واسبري أغوار قلب الفتاة وقولي لهم قصدي.

مدام دولابومريه- على رسلك، يا مركيز. أظن أني أعرفهما معرفة تكفي ما يتوجب عليّ عمله. أما وقد أصبح المقصود الآن سعادة صديقي، فسوف أنظر في الأمر بترو أكثر. سوف أجمع معلومات من منطقتهما، وأعدك بأن أتابع مسيرتهما خطوة فخطوة طيلة فترة إقامتهما في باريس.

المركيز- أعتقد بأن لا طائل وراء تلك الاحتياطات. فنساء مثلهما في البؤس ويصمدن أمام المغريات التي قدّمتها هنّ مخلوقات نادرات. كان ما قدمته من عروض كفيلاً بأن يمكنني من دوقة. ناهيك بأنك قلت لي بنفسك...

مدام دولابومريه- أجل، قلت كل ما يروقك. لكن اسمح لي، فوق كل ذلك، أن أرضي حاجة في نفسي.

جاك- الكلبة! السافلة! المسعورة! وكيف للمرء أن يتعلق بمثل تلك المرأة؟

المعلم- ولِم يقوم بإغوائها ثم ينفصل عنها؟

المضيفة- ولِمَ يكفّ عن حبّها دون سبب وجيه أو مبرّر؟

جاك- *مشيراً بإصبعه نحو السماء*- آه، يا معلمي!

المركيز- ولم لا تتزوجين، أنت أيضاً، يا مركيزة؟

مدام دولابومريه- ومن عساي أتزوج بحق الله؟

المركيز- الكونت الصغير. فهو ذكي وذو أصل كريم وذو ثروة.

مدام دولابومريه- ومن يكفل لي إخلاصه؟ ربما أنت؟

المركيز- كلا. ولكن يمكن الاستغناء تماماً عن إخلاص الزوج وبكل يسر.

مدام دولابومريه- لا بأس. لكن إذا لم يكن زوجي وفياً. فقد أكون على درجة من الغرابة إذا ما استأت من ذلك. هذا وأنا انتقاميّة.

المركيز- لا بأس! سيكون بوسعك الانتقام فذلك مسلّم به. آنذاك نستطيع أن نسكن قصراً مشتركاً لنؤلف نحن الأربعة واحداً من أعذب المجتمعات.

مدام دولابومريه- كل ذلك جميل جداً. غير أني لن أتزوج. فالرجل الوحيد الذي كان بودي أن أتزوّجه...

المركيز- هو أنا؟

مدام دولابومريه- بوسعي أن أبوح لك بذلك الآن دون عاقبة.

المركيز- لِمَ لم تخبريني بذلك من قبل؟

مدام دولابومريه- بفعل الواقعة، وحسناً فعلت. لكن التي ستنالها الآن تلائمك من كافة النواحي أكثر مني.

المضيفة- وضعت مدام دولابومريه في معلوماتها كل ما رغبت فيه من دقّة وخفّة. وأثّرت على المركيز بكافة البراهين المخادعة. فمنها ما جاءت به من باريس ومنها من المقاطعة. واستمهلت المركيز خمسة عشر يوماً أخرى لتعيد تفحّص المعطيات مجدّداً. وبدت له تلك المهلة بلا نهاية. واضطرت المركيزة في النهاية لأن تنزل عند إلحاحه وتوسّلاته. فجرى اللقاء الأول في بيت صديقتيها، حيث جرى الاتفاق حول كل شيء. فنشرت الإعلانات عن الزواج وكتب العقد. وقدّم المركيز ماسة ثمينة هدية لمدام دولابومريه ثم عُقِدَ القران.

جاك- يا لها من حبكة ويا له من ثأر!

المعلم- ذلك أمر يصعب فهمه.

جاك- أنقذيني من همّ الليلة الأولى للعرس. فلم أرَ في كل ما جرى حتى الآن من ضير.

المعلم-اخرس أيها الغبي.

جاك- حسبت...

المضيفة- أحسبْ ما قاله لك معلمك لتوّه.. "

قالت ذلك وهي تبتسم، وفيما هي تبتسم مسحت بكفها على وجه جاك وضغطت على أنفه.

"أما المسألة فكانت في اليوم التالي ..

جاك– لم يكن اليوم التالي كالأمس.

المضيفة– ليس تماماً. ففي اليوم التالي، كتبت مدام دولابومريه بطاقة للمركيز تدعوه فيها للتوجّه إليها على جناح السرعة لمسألة هامة. فلم يتأخر المركيز عن الحضور.

استقبلته بوجه ارتسم عليه السخط بكامل قسوته. ولم يكن الخطاب الذي وجهته إليه طويلاً. قالت: "تعلّم يا مركيز أن تعرفني. ولو كان تقدير النساء الأخريات لأنفسهن كافياً للشعور بمثل حقدي، لكان أمثالك قليل. لقد فزتَ بامرأة شريفة لكنك لم تحسن الاحتفاظ بها. وأنا هي تلك المرأة. فانتقمتُ منك. بجعلك تتزوج واحدة تليق بك. اخرج من بيتي فتوجّه إلى شارع ترافرسير عند قصر هامبور، وهنالك يخبرونك بالمهنة القذرة التي كانت تمارسها زوجتك وحماتك طيلة عشر سنين تحت اسم ديسنون."

لم يكن ممكناً وصف دهشة ذلك المركيز المسكين وذهوله. ولم يدرِ كيف يحكم على الأمر. لكن حيرته لم تدم إلاّ طول وقت انتقاله من طرف المدينة إلى الطرف الآخر. فلم يرجع إلى بيته طيلة النهار بل هام على وجهه في الشوارع. وتولّى نفس حماته وزوجته شيء من الريبة فيما حصل. فهرعت الحماة إلى شقتها لدى سماعها أول طرقة على الباب وأغلقت على نفسها بالمفتاح. وانتظرته زوجته وحدها. وحين اقترب زوجها قرأت على وجهه ما كان يتملكه من غيظ. فارتمت على قدميه ووجهها على الأرض من غير أن تتفوّه بكلمة. فقال لها: "انصرفي من هنا، يا ساقطة! ابتعدي عني..." وسعت لأن تنهض، لكنها سقطت مجدداً على وجهها، وذراعاها مبسوطتان على الأرض بين

قدمي المركيز. فقالت له: "سيدي، طأني بقدميك، اسحقني، فأنا أستحق ذلك، اصنع بي كل ما يروقك، لكن اعفُ عن أمي..." فقال المركيز:
-انصرفي، قلت انصرفي. حسبي العار الذي وصمتني به. وفّري علي ارتكاب جريمة."

ظلت المخلوقة المسكينة على وضعها فلم تردّ عليه بشيء. كان المركيز جالساً في كنبة، يلف رأسه بذراعيه، وينحني بجسده قليلاً نحو أسفل السرير، وهو يزمجر على فترات من غير أن ينظر إليها: "انصرفي!..." وأدهشه صمت الشقيّة وسكونها. فكرّر القول بصوت أكثر شدة أيضاً: "فلتخرجي من هنا. هل تسمعينني؟..." وانحنى بعد ذلك فدفعها بقسوة، لكنه أدرك أنها فقدت وعيها وتكاد تلفظ أنفاسها، فحملها من خصرها ومددها على أريكة، وسلط عليها لبعض الوقت نظرات ارتسمت فيها الشفقة مع السخط على التوالي. ودقّ الجرس: فدخل الخدم واستدعوا الوصيفات فقال لهن: "احملن سيدتكن المصابة بوعكة انقلنها إلى شقتها وأسعفنها..." وبعد برهة قصيرة بعث سراً بمن يسأل عنها. فقيل له إنّها صحت من إغمائها الأول. لكن إغماءاتها تتوالى بسرعة، وهي متسارعة وطويلة حتى لا يمكن الجزم بشأنها. وبعث سراً بعد ساعة أو ساعتين ليستعلم عن حالها. فقيل له إنها تكاد تختنق، وقد انتابها نوع من الفواق حتى ليمكن سماع شهقاتها من الباحة الخارجية. وأرسل في المرة الثالثة، وقد طلع الصباح، فقيل له إنها بكت كثيراً وإنّ الفواق هدأ، وإنها على وشك أن تهدأ.

في اليوم التالي أسرج المركيز خيوله إلى عربته وتوارى عن الأنظار طيلة خمسة عشر يوماً، من غير أن يعرف أحد ما حلّ به. غير أنه حرص، من قبل أن يبتعد على تأمين كل ما يلزم للأم وابنتها، مع الأمر بإطاعتها كإطاعته هو نفسه.

لبثت المرأتان، طول هذه الفترة معاً، تواجه إحداهما الأخرى، من غير كلام تقريباً، والفتاة تنشج وتعول أحياناً وتشدّ شعرها وتلوي

ذراعيها، من غير أن تجرؤ أمها على الاقتراب منها ومواساتها. فكانت تظهر على واحدة أمارات اليأس وعلى الأخرى علائم التصلّب. قالت البنت لأمها مراراً وتكراراً: "أماه. فلنخرج من هنا، ولنهرب بعيداً". فتعارضها الأم في كل مرة وتردّ عليها قائلة: "كلا، يا ابنتي، علينا أن نبقى. فينبغي أن نرى إلام سيصير ذلك: فهذا الرجل لن يقتلنا..." فتجيب البنت بقولها: "اواه! ألا ليت الله قدّر، وليته هو قد فعل..." فترد الأم مجدداً: "خير لك أن تصمتي من أن تقولي قول حمقاء."

ما إن رجع المركيز حتى اعتكف في مكتبة ليكتب رسالتين، واحدة لزوجته والأخرى لحماته. فرحلت هذه الأخيرة في اليوم نفسه ومضت إلى دير الكرمليات في المدينة التالية، حيث توفيت منذ أيام قلائل. أما البنت فارتدت ملابسها وجرّت نفسها إلى شقة زوجها حيث رغب على ما يبدو أن توافيه. فما إن دخلت، حتى ارتمت جاثية. فقال لها المركيز: "انهضي"...

وبدلاً من أن تنهض، تقدّمت إليه تسعى على ركبتيها. كانت كافة أوصالها ترتعد: فشعرها أشعث، وجسدها منحنٍ بعض الشيء، وذراعاها مسبلتان على جنبيها ورأسها مرفوع، وعيناها في عينيه ودموعها تنساب على خديها. قالت له والنحيب يفصل بين كل كلمة تقولها وأخرى: "يبدو لي، أن قلبك الذي اغتاظ بحقّ قد هدأ، وأنني قد أحظى مع مرور الوقت بعطفك. سيدي، رحماك، لا تستعجل بصفحك عني. فالعديد من الفتيات الشريفات صرن نساء ساقطات، وربما أصير أنا مثالاً مخالفاً. لست جديرة بعد بأن تقاربني. فأنتظر، ودع لي أملاً في الصفح فقط. ابقني بعيدة عنك وانظر في سلوكي، ثم احكم: سوف تغمرني السعادة الفائقة، سعادة فائقة ستغمرني إذا ما تفضّلتَ أحياناً بمناداتي! عيّن لي الركن الأكثر عتمةً وانزواءً في دارك حيث ستسمح لي بأن أقيم، وسوف أمكث فيه دون أن أنبث ببنت شفة. ويلي! ليتني أستطيع أن أنزع عني الاسم واللقب اللذين جعلوني أتعدّى عليهما، وأن

أموت من بعد، لتغدو راضياً. لقد انسقت ضعفاً وبالإغواء والتسلّط والتهديد إلى فعل رديء. لكن لا تظن، يا سيدي، أني سيئة النية: لست كذلك، ما دمت لم أتردد في الظهور أمامك حين استدعيتني، وما دمت أجرؤ الآن على النظر في عينيك والتحدُّث إليك! آه ! ألا ليتك تستطيع أن تقرأ في أعماق قلبي وأن ترى كيف أضحت زلاّت الماضي بعيدة عني، وكم هي غريبة عليّ أخلاق مثيلاتي! لقد حطّ الفساد فوقي غير أنه لم يلتصق بي مطلقاً. فأنا أعرف نفسي، وأعترف لها بحقها. فقد ولدت بميولي ومشاعري وطبعي جديرة بشرف انتمائي إليك. أوّاه! ألا ليتني كنت حرّة في أن أراك، لما كان لدي سوى كلمة أقولها وأحسب أني كنت ملكت الجرأة على قولها. سيدي. تصرّف بي كما يطيب لك. أدخل رجالك فلينزعوا ثيابي وليلقوا بي في ظلمة الشارع: أنا موافقة على كل شيء. ومهما يكن المصير الذي أعددته لي فأنا خاضعة لأمرك: يمكن لمكان قصيّ في الريف، أو لظلمة أحد الأديرة، إبعادي عن ناظريك إلى الأبد: قل أنفذ، فسعادتك ليست قاصرة على الإطلاق وبوسعك أن تنساني...

فقال لها المركيز بعذوبة: انهضي، قد سامحتك: ففي لحظة الإهانة احترمت زوجتي فيك. ولم تنطق شفتاي بكلمة تنتقص منها، أو إني على الأقل نادم عليها. وأوكّد بشدة على أنّها لن تسمع من قول يمتهنها أبداً، ولتتذكر أن المرأة لا يسعها أن تشقي زوجها من غير أن تغدو شقية. انهضي، أرجوك يا زوجتي أن تنهضي فتعانقيني. سيدتي المركيزة انهضي فلستِ في موقعك، يا مدام ديزارسي، انهضي..."

ولبثت ساكنة، ما دام يتكلّم، ووجهها مخبّأ بكفيها ورأسها مسند إلى ركبتي المركيز. وحين سمعت قوله يا زوجتي، يا مدام ديزارسي، نهضت على حين غرة لتندفع إلى المركيز فتعانقه بحرارة، وهي لا تقوى على التقاط أنفاسها حزناً وفرحاً. ثم أرخت ذراعيها فارتمت على الأرض وقبلت قدميه:

قال لها المركيز: "إيه! قلت لك إني صفحت عنك. وأرى أنك لا تصدقين ذلك." فقالت:

-ينبغي لذلك أن يكون وأن لا أصدقه أبداً."

فأضاف المركيز: "أعتقد في الحقيقة أنّي لست نادماً على شيء. وأن مدام دولابومريه قد أدّت لي، بدلاً من أن تثأر، أعظم خدمة. يا زوجتي، سوف ترتدين ملابسك، فيما هم يهتمون بإعداد حقائبنا. سوف نتوجّه إلى أرضي، فنلبث هناك إلى حين يغدو بوسعنا أن نعود للظهور هنا من غير أيّة تبعةٍ بالنسبة لك أولي. ."

وأمضيا قرابة ثلاثة أعوام بعيدين عن العاصمة.

جاك- وأراهن على أن هذه الأعوام الثلاثة! انقضت كأنها يوم واحد وأن المركيز ديزارسي كان من خيرة الأزواج وأنه حظي بواحدة من خيرة نساء الدنيا.

المعلم- أشاركك الرأي مناصفة. لكني لست أدري لماذا، في حقيقة الأمر، فأنا لم أكن راضياً عن تلك الفتاة طيلة فترة المكائد التي حبكتها مدام دولابومريه وأمها. فلم تعرف الفزع في لحظة ولا ظهرت عليها علامة من علامات الشك، ولا أبدت من ندامة. ورأيتها تشارك، دون نفور، في ذلك الشيء الرهيب الطويل. فلم تتردّد البتّة في تنفيذ كل ما طلب منها. فهي تذهب إلى كرسي الاعتراف وتتقدم لتناول القربان وتستهزئ بالدين وكهنته. ولقد بدت لي غشّاشة ووضيعة وسيئة النيّة على قدر المرأتين الأخريين... فيا مضيفتنا، أنت تجيدين السرد، غير أنك لم تتعمّقي بعد في الفن الدرامي. فلو شئت لتلك الفتاة أن تثير الاهتمام لكان عليك أن تمنحيها الصراحة، وتظهريها لنا ضحيّة بريئة ومقهورة من قبل أمها ومدام دولابومريه، وكان ينبغي للمعاملات القاسية أن تجرها، رغم ما أصابها منها، لأن تتحمل سلسلة من الآثام المستمرة طيلة عام، وكان ينبغي على ذلك النحو إعداد المصالحة بين تلك المرأة وزوجها. فحين نقوم بإدخال شخصية على خشبة المسرح،

ينبغي لدورها أن يكون واحداً: وعليه أسألك، يا مضيفتنا الفاتنة، هل الفتاة التي تتآمر مع امرأتين آثمتين هي حقاً المرأة المتوسّلة نفسها التي شاهدناها عند قدمي زوجها؟ لقد خالفتِ القواعد التي اعتمدها كل من أرسطو وهوراس وفيدا والبوسّو[1].

المضيفة- لا أعرف الأحدب[1] ولا منتصب القامة: قلت لكم الأشياء مثلما جرت، دون أن أقتطع منها أو أضيف عليها شيئاً. ومن يدري ما كان يعتمل في قلب الفتاة، ففيما تبدو أمامنا وهي تتصرف بكل استخفاف، قد يكون الحزن ينهش قلبها سرّاً؟

جاك- يا مضيفتنا، عليّ في هذه المرة أن أقف إلى جانب معلمي الذي سيعذرني، لأن ذلك لا يقع لي إلا نادراً. وأن أكون من رأي صاحبه البوسّو الذي لا أعرفه مطلقاً، وأولئك السادة الذين ذكرهم، والذين لا أعرفهم كذلك. فلو أن الآنسة دوكينوا، الوارد ذكرها أعلاه باسم ديسنون، كانت بنتاً جميلة، لظهر ذلك.

المضيفة- أن تكون بنتاً جميلة أم لا، المهم أنها زوجة رائعة، وأن زوجها يعيش بصحبتها هانئاً كالملوك وأنه لا يباد بها أخرى.

المعلم- إني لأهنئه على ذلك: فقد كان سعيداً أكثر منه حكيماً.

المضيفة- وأنا أتمنى لكما ليلة هانئة. فالوقت تأخر، وعليّ أن أكون آخر من يرقد وأول من ينهض. فيا لها من مهنة شاقة! طابت ليلتكم، يا سادة، طابت ليلتكم، وعدتكم، ولم أعد أدري ضمن أي سياق، بقصة زواج تثير الضحك، واحسبني وفيت بوعدي. لا أظنك، يا سيد جاك، ستلقى عناء في أن تغفو، لأن عينيك مغمضتان أكثر من نصف إغماضة. فطابت ليلتك يا سيد جاك.

المعلم- ليس من وسيلة، والحال هذه يا مضيفتنا، أن نعرف مغامراتك؟

المضيفة- كلا.

[1] لفظة البوسّو تعني الأحدب، والمقصود الأب روبيه لوبوسر (1631-1780) مؤلف "بحث الشعر الملحمي".

جاك- لديك ميل شديد نحو الحكايات!

المعلم- ذلك صحيح. فهي تزيدني علماً وتسلّيني. والقصّاص الممتاز إنسان نادر.

جاك- وذلك بالضبط ما يجعلني لا أحب الحكايات، إلا إذا كنت أنا أحكيها.

المعلم- أنت تفضّل أن تسيء الكلام على أن تصمت.

جاك- ذلك صحيح.

العلم- وأنا أفضل سماع سيئ الكلام على أن لا أسمع شيئاً.

جاك- وذلك ما يؤمّن لنا راحتنا، نحن الاثنين."

لست أدري أين وضعت المضيفة وجاك ومعلمه فكرهم حتى لم يعثروا مرة واحدة على أشياء تقال في صالح الآنسة دوكينوا. ألم تفهم تلك الفتاة شيئاً من ألاعيب مدام دولابومريه قبل الخاتمة؟ ألم تكن تفضّل لو قبلت بعروض المركيز بدلاً من يده، فاتخذته عشيقاً بدلاً من زوج؟ ألم تكن بصورة دائمة عرضة لتهديدات المركيز واستبداده؟ وهل يمكن أن نلومها على نفورها الرهيب من وضع شائن؟ وإذا ما وقفنا إلى جانب تقديرها أكثر، فهل نتطلّب منها الكثير من اللطافة والحيرة في اختيار الوسائل للتخلص من ذلك الوضع؟

وهل تظن أيها القارئ، إن من الصعوبة بمكان كَيْل المديح لمدام دولابومريه؟ قد يمتعك أكثر سماع ما يقوله جاك ومعلمه في ذلك الصدد. لكن لديهما ما يقولانه عن أشياء أخرى كثيرة أكثر إمتاعاً حتى أنهما، على الأرجح، قد أهملا تلك الأخيرة. فاسمح لي إذن بأن أهتم بها لبعض الوقت.

فأنت تستشيط غضباً لذكر مدام دولابومريه، فتصرخ قائلاً: "يا لها من امرأة رهيبة! يا لها من منافقة! يا لها من أثيمة!... فلننحّ العجب،

ولننحِّ الغضب، ولنضعِ التحيّز جانباً: ولنناقشْ بتعقّل. إذ تقع في كل يوم أفعال أكثر شؤماً، من دون أية عبقرية. فبوسعك أن تكره مدام دولابومريه. كما بوسعك أن ترهب جانبها: غير أنّك لن تزدريها. فثأرها كان فظيعاً. لكنه خالٍ من المصلحة فلا تشوبه منها شائبة. ولم يقل أحد إنها قذفت في وجه المركيز بالماسة الجميلة التي أهداها إياها. لقد فعلت ذلك: فأنا علمت بالأمر من مصادر موثوقة جداً. فلم يكن المراد زيادة حجم ثروتها، ولا اكتساب بعض ألقاب الشرف. عجباً! لو أن هذه المرأة فعلت ما فعلته من أجل أن تحصل لزوجها على مكافأة مقابل خدماتها، أو أنها منحت نفسها لوزير أو حتى لمعاون وزير مقابل أن ينال زوجها ترقية أو قيادة كبيبة، أو للمؤتمن على بيان الأرباح لدى دير غني، لبدا لك ذلك غاية في البساطة وضمن ما هو متعارفٍ عليه في نظرك. أمّا وهي تثأر من غدرٍ لحق بها، فتثور ثائرتك عليها، بدلاً من أن ترى أن غِلّها لا يثير حفيظتك إلا لأنك عاجز عن الإحساس بمثل عمقه، أو لأنك لا تقيم كبير وزن مطلقاً لفضيلة النساء. هل فكرت قليلاً فيما قدمته مدام دولابومريه للمركيز من تضحيات؟ لن أقول لك إنّ كيس نقودها كان مفتوحاً أمامه في كل مناسبة، وإنه لم يُقِمْ طيلة سنوات عدة إلا في بيتها ولم يجلس إلى مائدة سوى مائدتها: أنت تهز رأسك بالموافقة. لقد كيّفت نفسها وفق كافة نزواته وطبقاً لجميع أذواقه. فقلبت مخطط حياتها إرضاءً له. كان تحتل في المجتمع أسمى مكانة اعتباراً، بسبب نقاء أخلاقها: فانحدرت لتصير على المستوى العام. لقد قيل عنها، حين قبلت ولاء المركيز ديزارسي: "ها هي في النهاية، تلك الرائعة مدام دولابومريه، قد أضحت مثل واحدة منا..." فلاحظت البسمات الساخرة من حولها، وسمعت كلام المزاح، فكانت تحمرّ خجلاً وتغضّ من طرفها. لقد تجرّعت حتى الثمالة كأس المرار المعدة للنساء اللواتي شكل سلوكهن المستقيم لزمن طويل، حقل نقد لذوات السلوك المنحرف اللواتي يحطن بهن. كما تحمّلت كل الدويّ الفاضح الذي يُثار ثأراً من الطائشات

المتعفّفات اللواتي يتصنّعن النزاهة. كانت معتدّة بنفسها. فالموت ألماً أيسر عليها من أن تتجوّل في المجتمع، بعد العار الذي أصاب الفضيلة المخذولة والاستهزاء بامرأة مهجورة. لقد بلغت المرحلة التي يغدو فيها هجر الحبيب خسارة لا تعوض أبداً. كان ذلك طبعها حتى أن هذا الحدث قد حكم عليها بالسأم والعزلة. وقد يقوم رجل بطعن رجل آخر بسبب إيماءة أو تكذيب، أفلا يسمح لامرأة شريفة افتضحت وأغويت وخدعت أن ترمي بالغادر في أحضان غانية؟ آه منك أيها القارئ، فأنت شديد التساهل في مدائحك وشديد القسوة في ملامتك. لكنك تقول لي إنك تأخذ على المركيزة الطريقة أكثر من الفعل. وإنّك لا تألف غلاً على ذلك النحو من الطول، ونسيجاً من الاحتيالات والأكاذيب امتدّ قرابة عام. وأنا أيضاً لا آلفه، ولا جاك ولا معلمه ولا المضيفة. لكنك تصفح تماماً عن الغضبة الأولى. وأنا أقول لك، إذا كانت الغضبة الأولى قصيرة لدى الآخرين فهي طويلة لدى مدام دولابومريه، والنساء اللواتي من طبعها. فتظل نفسهن طيلة الحياة أحياناً، مثلما كانت في اللحظة الأولى من الإهانة. فأي ضير في ذلك وأيّ ظلم؟ لست أرى سوى خيانات أقل شيوعاً. وإني لأستحسن صدور قانون يلزم بالغانيات كل من يغوي امرأة شريفة أو يهجرها: فالرجل المبتذل للنساء المبتذلات.

بينما أنا أسهب في الكلام، كان معلم جاك يشخر كأنه أصغى إليّ، أما جاك، الذي لم تقدم له عضلات ساقيه الفائدة المرجوة، فكان يدور في الغرفة بقميص النوم حافياً فيتعثّر بكل ما يقع في طريقه، فيوقظ معلمه الذي يقول له من وراء الستائر :"يا جاك، أنت سكران.

-أو شيء من هذا القبيل.

-في أية ساعة قررت أن تنام؟

-بعد قليل، يا سيدي، فهناك... فهناك...

-ماذا هناك؟

-في تلك الزجاجة ثمالة سوف تفسد من الهواء. وأنا أستفظع الزجاجات التي توشك أن تفرغ. لأن حالها تشغل بالي حين أرقد. ولا يلزمني أكثر من ذلك حتى لا يغمض لي جفن. وأقسم على أن مضيفتنا امرأة رائعة، وأن نبيذ الشمبانيا عندها نبيذ فائق الجودة. وإنها لخسارة كبرى أن ندعه يفسد... ها هو الآن في مأمن... فلن يفسد أبداً..."

وفيما جاك يتلعثم وهو بقميص النوم وحافي القدمين كرع كأسين مترعتين أو ثلاثاً دون فاصل، وهو يتكلم، أي من الزجاجة إلى الكأس ومن الكأس إلى فمه. ثم تلت ذلك روايتان اثنتان بشأن ما جرى بعد إطفاء النور. فيدعي البعض أنه شرع يتلمّس الجدران طولاً وعرضاً بحثاً عن سريره فلا يجده فيقول: "أقسم على أنه ليس هنا، أو، إذا كان هنا، فمكتوب فوق أن لا أقع له على أثر، وأن علي في كلا الحالين أن أستغني عنه." وأنه اختار أن يتمدّد فوق المقاعد. فيما يدعي آخرون أنه كان مكتوباً فوق أن تتعثر قدماه بالمقاعد فيقع على الأرض فيظل هناك. ولك أن تختار غداً أو بعد غد، وأنت رائق المزاج الرواية التي تلائمك أكثر من بين هاتين الاثنتين.

إن صاحبينا المسافرين اللذين أويا إلى الفراش متأخرين وقد دارت الخمرة برأسيهما، ظلا نائمين حتى الضحى. كان جاك ممدداً على الأرض أو فوق الكراسي وفق الرواية التي فضّلتَها، ومعلمه ناعماً براحة أكبر في سريره. وصعدت المضيفة لتعلمهما أن النهار لن يكون رائقاً. وأن الطقس حين يسمح لهما بمواصلة السير فسوف يخاطران بعبور ساقية تعترض طريقهما أو يتوقفان عندها بسبب ارتفاع منسوب مياهها. وأن عدداً كبيراً من الخيالة الذين لم يصغوا لكلامها، وجدوا أنفسهم مرغمين على العودة من حيث أتوا. فقال المعلم لجاك :"ماذا تفعل يا جاك؟" أجاب جاك:"نتناول فطورنا بادئ الأمر بصحبة مضيفتنا: فمن شان ذلك أن يبصّرنا." فأقسمت المضيفة على أن ذلك هو

الحكمة بعينها. قُدّم الفطور. ولم تكن المضيفة ترغب إلا فيّ أن تبتـــهج. وكان معلم جاك على أتمّ استعداد أيضاً، لولا أنّ جاك بدأ يتــــألم. فقــد تناول طعامه وهو متجهّم الوجه وشرب قليـــلاً ولاذ بـــالصمت. وهـــذه العلامة الأخيرة تشغل البال، فهي نتيجة لليلة الســـيئة التـــي أمضاهـــا والسرير السيئ الذي رقد عليه. كان يشكو من وجع في أطرافـــه، أمـــا صوته الأجش فينم على ألم في حلقه. ونصحه معلمه بـــأن يعــود إلـــى سريره: فلم يشأ أن يصغي إليه. فأشارت المعلمة عليه بحساء البصـــل: فطلب بإشعال النار في الغرفة لأن أوصاله ترتعد، وأن يعدّوا له مغلـــي الزهورات ويأتوه بزجاجة من النبيذ الأبيض: فنُفّذت كافة طلباتـــه مـــن فورها. وخرجت المضيفة ليبقى جاك وحده مع معلمه. ويتوجه هذا إلـــى النافذة ليقول :"يا له من طقس سيّئ ." ثم ينظر إلى الوقت في ســـاعته، لأنها الوحيدة التي تنال ثقته، ثم يأخذ قبصته من النشوق، ليعود فيكـــرر ما قام به ساعة فساعة وهو يهتف في كل مرة:"يا له من طقس ســـيئ." ثم يلتفت صوب جاك ليضيف قائلاً: "لكم كانت مناسبة ملائمة لتســـتأنف قصة غرامياتك فتنهيها! لكن المرء لا يحسن الكلام عن الحـــب وغـــير الحب وهو ويتألم. هيا انظر، تفحّص نفسك. إن كنت قادراً على المتابعة فتابع. وإلا، فاشرب زهوراتك ونم."

فادعى جاك أن الصمت ضارٌ به. وأنه حيوان ثرثار، وأن الفـــائدة الرئيسة في وضعه، وهي التي تؤثر فيه كثـــيراً، تتمثّـــل فـــي حريـــة التعويض عن أعوام الكمّامة الاثني عشر التي أمضاها في بيت جـــده، تغمّده الله برحمته الواسعة.

المعلم- هيا تكلم، ما دام ذلك ممتعاً لنا نحن الاثنين. كنت لـــدى ذلــك الاقتراح المشبوه الذي لا أدري ماكنهه، وكانت زوجة الجراح تعرضـــه

عليك. كان المقصود على ما أعتقد، استبعاد الطبيب المقيم في القصر وتعيين زوجها بدلاً عنه.

جاك- ها أنذا. لكن أرجوك أن تتريّث قليلاً. فلنبلّل.

ملأ جاك كوباً كبيراً بمغلي الزهورات ثم أضاف عليه شيئاً من النبيذ الأبيض فكرعه. وقد أخذ تلك الوصفة عن رئيسه، فأخذها عنه السيد تيسّو[1] فأوصى بها في بحثه حول الأمراض الشعبية. فالنبيذ الأبيض، وفقاً لما يقوله جاك والسيد تيسو يسبّب التبوّل، فهو مدرّ للبول، ويعدّل من تفاهة مذاق الزهورات وينشّط عمل المعدة والأمعاء. فواصل جاك يقول وقد أتى على كوب الزهورات:

"وها قد خرجت من بيت الجراح فصعدت في العربة فوصلت إلى القصر لأجدَني محاطاً بالذين يقطنونه.

المعلم- وهل كنت معروفاً هناك؟

جاك- بكل تأكيد! هل تذكر امرأة ومعها جرة زيت؟

المعلم- تماماً.

جاك- كانت تلك المرأة تعمل في تلبية لطلبات الوكيل والخدم. وقد أشاعت جان في القصر حكاية فعل الإحسان الذي أديته لها. وبلغ فعلي الطيب مسامع سيد القصر: كما أحيط علماً بالركلات واللكمات التي كانت جزائي ليلاً على الطريق العام. فأمر بالبحث عني ونقلي إلى عنده. وها أنذا. فأخذوا ينظرون إلي فيستجوبوني فيجلّوني. أما جان فتعانقني وتشكرني. فقال السيد لرجاله: "فليعطَ مسكناً مع كل وسائل الراحة ولا ينبغي أن ينقصه من شيء." وقال لجراح القصر: "سوف تداوم على زيارته..." وجرى تنفيذ كل شيء نقطة فنقطة. طيب، يا معلمي، من يدري ما هو مكتوب فوق؟ وليقل أحد الآن إنّ تبرع المرء

[1] طبيب من لوزان، لاقت كتبه رواجاً كبيراً. (1728-1797).

بماله عمل صالح أو طالح، وإن تعرّض المرء للضرب مصيبة... فلولا هذان الحدثان، ما كان للمسيو ديغلان أن يسمع يوماً باسم جاك.

المعلم- المسيو ديغلان، سيد ميرمون؟ أنت في قصر ميرمون إذن؟ عند صديقي القديم، والد مسيو ديفورج، المعتمد العسكري لمنطقتي؟

جاك- تماماً. والصبية السمراء ذات القامة الهيفاء والعينين السوداوين...

المعلم- إنها دينيز، بنت جان؟

جاك- هي نفسها.

المعلم- أنت على حق فهي إحدى الفتيات الأكثر جمالاً والأكثر نزاهة ضمن دائرة قطرها عشرون فرسخاً. فقد بذلت أنا ومعظم الذين كانوا يترددون على قصر ديغلان قصارى جهودنا في سبيل إغوائها، لكن بلا طائل. وليس بيننا من لم يرتكب حماقات كبرى من أجلها، بشرط أن يجعل منها صويحبة له."

كفّ جاك هنا عن الكلام فقال له معلمه :"بمَ تفكّر؟ وماذا تفعل؟

جاك- أتلو صلاتي.

المعلم- وهل تصلي؟

جاك- أحياناً.

المعلم- وماذا تقول؟

جاك- أقول :"أنت يا صانع الملف الكبير، أياً تكن، والذي خطّيت بإصبعك كل الكتابة فوق، أنت عرفت منذ الأزل ما يلزمني. فلتكن مشيئتك، آمين."

المعلم- ألست تفعل خيراً أيضاً بأن تسكت؟

جاك- ربما نعم وربما لا. فأنا أصلّي في كافة الأحوال. ومهما يحدث لا أتهلّل له ولا أشكو منه، إذا تمالكت نفسي. أما وأنا متناقض ونزق، فإني أنسى مبادئي أو دروس رئيسي، فأضحك وأبكي كالأحمق.

المعلم- ألم يكن رئيسك يبكي البتة، ألم يضحك قط؟

جاك- نادراً... جائتني جان بابنتها ذات صباح. فتوجّهت إلي بكلامها أولاً فقالت لي: "سيدي، ها أنت في قصر جميل، حيث تكون في وضع أفضل قليلاً منه عند جراحك. وفي المرحلة الأولى بشكل خاص، إيه! سوف تكون موضع عناية فائقة. لكني اعرف الخدم، فمنذ زمن طويل وأنا أعمل عملهم. فحماسهم المتألّق يتباطأ شيئاً فشيئاً. فيكفّ السادة عن التفكير بك، وإذا ما طال مرضك فسوف تُنسى، بل سوف تنسى بصورة تامة وكاملة، حتى لتروادك نفسك على أن تموت جوعاً، ويكون ذلك ملائماً لك..." ثم التفتت صوب ابنتها فقالت لها: "اصغ إلي، يا دينيز، أريد منك أن تتفقدي هذا الرجل الشهم أربع مرات في اليوم: صباحاً، وساعة الغداء وفي حدود الخامسة وساعة العشاء. وأريد منك أن تطيعيه كما تطيعيني أنا. هذا كلامي فلا تتواني عنه."

المعلم- أتدري ما أصاب ذلك المسكين ديغلان؟

جاك- كلا، يا سيدي. لكن إذا كانت الأدعية التي وجّهتها من أجل رفاهيته لم تُستَجب، فليس ذلك لأنها ليست صادقة. فهو الذي سلّمني إلى آمر لا بولي، والذي قضى نحبه لدى مروره في مالطة. وآمر لابولي هو الذي سلّمني لأخيه الأكبر، الرئيس الذي ربما توفي الآن من الناسور. وهذا الرئيس هو الذي سلمني إلى أخيه الأصغر، المدعي العام في تولوز، والذي أصيب بالجنون فلجأت العائلة إلى الحجر عليه. والسيد باسكال هذا، المدعي العام في تولوز، هو الذي سلمني إلى الكونت دوتورفيل الذي سلمني إلى المركيزة دوبيلوا التي هربت إلى لندن بصحبة رجل غريب، والمركيزة دوبيلوا هي التي سلمتني إلى واحد من أبناء عمومتها، الذي أفلس بصحبة النساء فسافر إلى ما وراء البحار. وابن العم ذاك هو الذي سلمني إلى رجل يدعى هيريسان، مهنته المراباة، وكان يتاجر بأموال السيد دوروزي، الفقيه في السوربون، والذي أدخلني إلى عند الآنسة إيسلين التي كنت تقوم أنت بأودها، فوضعتني عندك، وأنا أتوقع بفضلها جعالة زهيدة في شيخوختي، لأنك

وعدتني بذلك إن بقيت وفياً لك: وليس ما يبدي أننا سنفترق. ذلك أن جاك خلق من أجلك وأنت خلقت من أجل جاك.

المعلم- غير أنك تنقلت بين بيوت كثيرة يا جاك، خلال مهلة قصيرة.

جاك- هذا صحيح، فقد كانوا يطردونني أحياناً.

المعلم- لماذا؟

جاك- ذلك أني ولدت مهذاراً، وأن أولئك الناس جميعاً يريدوننا أن نسكت. وليس كما الأمر معك، فأنت قد تشكرني في الغد إذا ما سكت. فأنا أتصف بالنقيصة التي تلائمك تماماً. ولكن ما الذي جرى للمسيو ديغلان؟ قل ذلك ريثما أعد جرعة من الزهورات.

المعلم- أقمت في قصره ولم تسمع كلاماً قط عن لزقته؟

جاك- كلا.

المعلم- سنبقي على تلك المغامرة للطريق. أما الأخرى فقصيرة. لقد أمّن ثروته عن طريق القمار. وتعلق قلبه بامرأة لا بدّ أنك رأيتها في القصر، امرأة ذكية وجادة، صموتة ومتفرّدة وصلبة. فقالت له تلك المرأة يوماً: "إما أنك تحبني أكثر من القمار، فأقطع لي في هذا الحال عهد شرف على ألا تقامر من بعد أبداً. أو أنك تحب القمار أكثر مني، وفي هذه الحال، لا تكلمني عن هواك أبداً، وقامر ما طاب لك. ." فقطع ديغلان على نفسه عهد شرف ألا يقامر أبداً-لا مقامرة كبيرة ولا صغيرة؟ -لا كبيرة ولا صغيرة. وانقضت قرابة عشرة أعوام وهما يعيشان معاً في القصر الذي تعرفه، حين استدعي ديغلان إلى المدينة لشأن من شؤونه، فشاء له سوء الطالع أن يلتقي عند كاتب بالعدل بواحد من معارفه القدامى على مائدة القمار، فاستجره للغداء في مقمرة، فخسر في جلسة واحدة كل ما يملك. ولم تتزحزح عشيقته عن موقفها، وكانت غنية، فخصصت لديغلان نفقة يسيرة، ثم انفصلت عنه إلى الأبد.

جاك- إنّ ذلك ليحزّ في نفسي. فهو رجل رقيق الحاشية.

المعلم- وكيف حال حلقك؟

جاك– سيئة.

المعلم– ذلك أنك تفرط في الكلام ولا تشرب ما يكفي.

جاك– ذلك أني لا أحب الزهورات وأحب أن أتكلم.

المعلم– لا بأس! ها أنت إذن، يا جاك، عند ديغلان، وبقرب دينيز، التي سمحت لها أمها بأن تزورك أربع مرات يومياً، على الأقل. يا لها من خبيثة. تفضّل واحداً مثل جاك[1].

جاك– واحداً مثل جاك! واحداً مثل جاك، إنه يا سيدي، رجل مثل غيره.

المعلم– أنت مخطئ يا جاك، فواحد مثل جاك ليس رجلاً مثل غيره قطعاً.

جاك– ذلك أنه أحياناً أفضل من غيره.

المعلم– يا جاك، أنت تنسى من أنت. فاستأنف قصة غرامياتك، وتذكّر أنك لست ولن تكون أبداً سوى جاك.

جاك– لو أن جاك لم يكن في النزل الذي قابلنا فيه اللصوص، أفضل من معلمه بقليل...

المعلم– أنت وقح يا جاك: فأنت تستغل طيبتي. وإذا ما ارتكبتُ حماقة إخراجك من وضعك، فأنا قادر على أن أعيدك إليه. جاك، هيّا احمل زجاجتك وقصعتك وانزل إلى الأسفل.

جاك– يسهل ذلك القول عليك، يا سيدي. فأنا هنا، على خير ما يرام، ولن أنزل إلى هناك.

المعلم– قلت لك إنّك ستنزل.

جاك– أنا واثق من أنك لا تقول الحقيقة. فكيف، يا سيدي، وقد عوّدتني طيلة عشر سنوات على عيشة الندّ للند...

المعلم– يروقني أن أكف عن ذلك.

[1] كان اسم جاك شائعاً في الريف الفرنسي حتى عداء في تلك الأيام، مرادفاً للفلاح الخشن والفظ، في نظر أهل المدن والنبلاء. ويذكّرنا ذلك بالتمرّدات الفلاحية التي انفجرت في أواخر القرن الرابع عشر، فقمعت بعنف على يد دوبافار. وقد دعيت بـ"الجاكيّات" لأن اسم جاك كان الأكثر شيوعاً .م.

جاك- وبعد أن تحمّلت كافة أشكال وقاحتي. .

المعلم- لم أعد أطيق أن أتحمل أكثر.

جاك- وبعد أن أجلستني إلى المائدة بجوارك ودعوتني صديقك. .

المعلم- أنت لا تعرف ما حقيقة كلمة صديق حين توجّه من رئيس لمرؤوسه.

جاك- حين يعلم الناس أن كافة أوامرك بلا طائل ما لم يوافق عليها جاك، وبعد أن قرنت اسمك باسمي، حتى لا يُذْكر أحدهما أبداً من دون الآخر، وأن الجميع يقولون جاك ومعلمه، يروقك أن تفصل بينهما على حين غرة! كلا يا سيدي، فذلك لن يكون. فمكتوب فوق على قدر ما يعيش جاك يعيش معلمه، وحتى من بعد أن يموتا، سيظلون يقولون جاك ومعلمه.

المعلم- وأنا أقول يا جاك، إنك ستنزل، وإنك ستنزل على الفور، لأنني أمرتك بذلك.

جاك- سيدي، مُرْني بأيّ شيء آخر، إذا ما شئتَ أن أطيعك.

عندها، نهض المعلم فأمسك بجاك من سترته وقال له بتجهّم:

"إنزل."

فأجابه جاك ببرود:

"لن أنزل"

فهزّه المعلم بعنف وقال له:

"انزل، يا حقير، نفّذ كلامي."

فرد عليه جاك ببرود أيضاً:

"حقير على قدر ما تشاء. لكن الحقير لن ينزل. اسمع يا سيدي، إن ما يجول في رأسي، كما يقولون، لا يجول في كاحلي. فثائرتك من غير ما فائدة، فسوف يظل جاك في مكانه ولن ينزل."

إلا أن جاك ومعلمه اللذين تجادلا حتى ذلك الحين باعتدال، استبد بهما الغيظ معاً فشرعا يصرخان صراخاً حاداً:

-سوف تنزل.

-لن أنزل.

-سوف تنزل.

-لن أنزل.

فصعدت المضيفة لتلك الجلبة واستعلمت عن حقيقة الأمر. فلم يردّ عليها للوهلة الأولى من أحد. وتوالى الصياح: "سوف تنزل. لن أنزل." بعدئذٍ أخذ المعلم يجول في الغرفة مغتمّاً وهو يجمجم قائلاً: "هل رأى أحد مثل هذا من قبل." فقالت المضيفة بذهول وهي واقفة: "ولكن، أيها السادة، ما حقيقة الأمر؟"

فردّ جاك على المضيفة، من غير أن يظهر عليه التأثر: "ذلك هو معلمي الذي فقد صوابه، لقد جُنّ.

المعلم- تقصد أن تقول إنه غبي.

جاك- مثلما يروقك.

المعلم، للمضيفة- هل سمعته؟

المضيفة- إنه على خطأ، لكن على رسلكما، على رسلكما. تكلما واحداً فواحداً، لأعلم ما واقع الحال.

المعلم، لجاك- تكلم، يا حقير.

جاك- تكلم أنت.

المضيفة، لجاك- هيّا، يا سيد جاك، تكلم، فمعلمك يأمرك. فالمعلم، في نهاية الأمر، معلم..."

فشرح جاك المسألة للمضيفة. فقالت المضيفة لهما، بعد أن أصغت للواقعة: "أيها السادة، هل تقبلون بي حكماً؟

جاك ومعلمه، في آن معاً- بكل طيبة خاطر، بكل طيبة خاطر، يا مضيفتنا.

جلست المضيفة عندئذٍ إلى الطاولة وقالت بكل ما في لهجة رجل القضاء وهيئته من وقار:

"من بعد سماعنا لتصريح السيد جاك، وحيث أن الوقائع تميل إلى إثبات أن معلمه معلم طيّب، بل طيّب جداً، بل فائق الطيبة، وأن جاك ليس بالخادم الطالح، رغم أنه معرّض لأن يخلط ما بين التملّك المطلق والثابت وبين التنازل العرضي والاعتباطي، فإني أحكم بإلغاء المساواة التي نشأت بينهما ردحاً من الزمن، ثم أعيدها على الفور. فجاك سوف ينزل، وبعد أن ينزل يصعد: فيعود إلى كافة الامتيازات التي تمتّع بها حتى اليوم. وسوف يمد معلمه يده إليه، فيقول له بمودة: "طاب يومك، يا جاك، ويسعدني أن أراك مجدداً..." فيرد عليه جاك قائلاً: "وأنا مغتبط يا سيدي، لأن ألقاك من جديد .." هذا وإني أحظّر أن تثار بينهما هذه المسألة يوماً أو يطرأ أي تغيير على امتياز المعلم والخادم مستقبلاً، فمشيئتنا أن يأمر الواحد فيطيع الآخر، وكل على خير ما يستطيع، وأن يُترك الغموض بين ما يستطيع الواحد وما ينبغي على الآخر، على مثل ما كان مسبقاً."

وما إن انتهت من ذلك النطق بالحكم، الذي سلبته من أحد المؤلفات الشائعة حينها، والذي نشر بمناسبة نزاع[1] مماثل تماماً، والذي سُمِعَ فيه المعلم، من أحد طرفي المملكة إلى طرفها الآخر، وهو يصرخ بخادمه:

[1] ليس النزاع الذي يلمّح إليه ديدرو سوى الاضطراب الناجم عن حلّ البرلمان من قبل المستشار موبيو، في كانون الأول 1770 وما تلاه من أمر الملك بنفي مئة وثلاثين من رجال القضاء المعاندين. وقد تولّت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها، باستثناء فولتير، الدفاع عن البرلمان م.

"سوف تنزل!" فيصرخ الخادم من جانبه: "لن أنزل!" حتى قالت لجاك: "تعال أنت، أعطني يدك من غير مناقشات أكثر..."

فهتف جاك متحسراً: "إذن كان مكتوباً فوق أن أنزل!..."

المضيفة، لجاك- كان مكتوباً فوق أن المرء ساعة يتخذ معلّماً، سوف ينزل ويصعد ويتقدّم ويتأخر ويتوقف، وذلك كله من غير أن يُسمح أبداً للأقدام بأن لا تستجيب لأوامر الرأس. فهات أعطني يدك، لأن أمري سينفذ..."

سلم جاك ذراعه للمضيفة. لكن ما كادا يتخطيان عتبة الغرفة حتى ارتمى المعلم على جاك فعانقه، ثم أرخى جاك ليعانق المضيفة، فيعود ليعانق ذاك وهذه ويقول: "مكتوب فوق أن لا أتخلّص أبداً من غريب الأطوار هذا، وأن يظل معلمي ما دمت على قيد الحياة وأن أظلّ خادمه..."

فأضافت المضيفة: "وأنكما لن تكونا في ضيق من ذلك على مرأى من الجميع."

بعد أن ساهمت المضيفة في تهدئة ذلك النزاع، الذي حسبت أنه الأول من نوعه، والذي لم يكن فقط ترتيبه المئة، وأعادت جاك إلى موقعه، انصرفت لتسيير شؤونها. وقال المعلم لجاك :"أما الآن وقد هدأت أعصابنا فصرنا في حالة تؤهلنا للحكم حكماً سليماً، ألا توافق على ذلك؟

جاك- أوافق على أن المرء حين يقطع على نفسه عهد شرف، ينبغي أن يلتزم به. أما وقد قطعنا لقاضينا وعد شرف بأن لا نعود إلى تلك المسألة، فلا ينبغي الكلام عليها.

المعلم- الحق معك.

جاك- لكن ألا يسعنا، من غير أن نرجع إلى تلك المسألة، أن نتـــدارك مئة واحدة أخرى عن طريق تسوية متعقلة؟

المعلم- أنا موافق على ذلك.

جاك-فلنشترط: أولاً- نظراً لأنه مكتوب فوق أني أساسي بالنسبة لـــك، وأني أشعر، أني أعرف أنك لا تستطيع أن تستغني عني، فسوف أفـرط في استغلال تلك المزايا كلما أتيحت الفرصة لذلك وأينما كان.

المعلم- ولكن، يا جاك، ما من أحد اشترط يوماً شيئاً مماثلاً.

جاك- أن يكون اشترط أم لم يشترط، فذلك وقع منذ أقدم العصور، ويقع اليوم، وسوف يقع ما دام العالم قائماً. ألا تعتقد أن الآخرين سعوا مثلـــك للتخلص من هذا المرسوم؟ تخلص من هذه الفكـــرة وأخضـــع لقـــانون الحاجة الذي ليس في مقدورك التنصّل منه؟

ولنشترط: ثانياً- نظراً لأنه يستحيل على جاك ألا يعرف مدى نفوذه وقوته لدى معلمه، على قدر ما يستحيل على معلمه أن يتجاهل ضعفـــه والتنازل عن تسامحه، ينبغي على جاك أن يكون وقحاً، وعلى معلمه ألا يلحظ ذلك حفاظاً على الوئام. سُوِّي كل ذلك على غير علم منا، وخُتِـــم على كل ذلك فوق، حيث صنعت الطبيعة جاك ومعلمه. كما تقـــرّر أن يكون لك اللقب وتكون لي التبعية. وإذا مـــا شـــئت أن تقـــاوم مشـــيئة الطبيعة، كنت كالقابض على الماء.

المعلم- يبدو ذلك قاسياً عليّ، بل قاسياً جداً.

جاك- يا معلمي، يا معلمي العزيـــز، إنـــه ليصعـــب عليـــك أن تقـــاوم المهماز[1]، لأنه سينخسك بحدة أكبر. ذاك إذن ما جرى الاتفاق عليه بيننا.

[1] قام ديدرو في مطلع شبابه بدراسات لاهوتية معمّقة. والمثال هنا وأصله يوناني : (يصعب عليك أن ترفس المهماز، أي مقاومتك لن تجدي نفعاً) مأخوذ من قصة (القديس بولس على طريق دمشق) حين ظهر له نور بهره فسقط أرضاً ليسمع صوت السيد المسيح يخاطبه قـــائلاً : ... لماذا تضطهدني؟ إنه ليصعب عليك أن ترفس المهماز...

المعلم– لكن نصيبك، وفق ذلك الحساب، ذو قيمة أكبر من نصيبي.
جاك– ومن يجادلك في ذلك؟
المعلم– ليس لي، بناء على ذلك، سوى أن آخذ موقعك وأن تأخذ موقعي.
جاك– أتدري ما سينجم عن ذلك؟ سوف تخسر اللقب ولن تنال القرار. فلنبقَ كما نحن، فنحن معاً على خير ما يرام. وأن يستخدم ما بقي من حياتنا لأن يذهب مثلاً.
المعلم– وأي مثل؟
جاك– جاك يقود معلمه. سنكون أول من يقال فينا ذلك. لكنه سيكرّر على آلاف الآخرين الذين يفضلوننا بكثير، أنا وأنت.
المعلم– وما أثر موافقتنا على قانون ملزم؟
جاك– أثر كبير. أتعتقد أنه لا طائل وراء معرفة المرء معرفة دقيقة وواضحة بأن يلتزم حدوده؟ فلم تنشأ نزاعاتنا كلها حتى اليوم إلا لأننا لم نتصارح حول أنك أنت تدعى معلمي وأنني أنا معلمك. لكن ها نحن قد تفاهمنا على ذلك، ولم يبق لنا سوى السير وفقاً له.
المعلم– ولكن من أين جئت بذلك، أستحلفك بإبليس؟
جاك– من الكتاب الكبير. إيه يا معلمي! فمهما فكّرنا مليّاً، وتأمّلنا، ودرسنا في كافة كتب الدنيا، لا نتعدى حدود متعلّم صغير ما لم نقرأ في الكتاب الكبير..."

راق الجو بعد الغداء. وأكد بعض المسافرين على أن الساقية قابلة للعبور. فنزل جاك. وسدّد معلمه الحساب للمضيفة بسخاء كبير. وتجمّع لدى باب النزل عدد كبير من المسافرين الذين احتجزهم فيه الطقس الرديء، وأخذوا يعدّون العدة لمواصلة السفر. وكان في عداد أولئك المسافرين جاك ومعلمه والرجل ذو الزواج المضحك ورفيقه. أخذ

الراجلون عصيّهم وحملوا أخراجهم، وسوّى آخرون قعودهم في عربات النقل أو استقروا في عربات السفر. وامتطى الخيالة صهوات جيـــادهم وشربوا كأس الرحيل. ووقفت المضيفة بمحياها الطلق تحمـــل زجاجـــة بيدها فتقدم الكؤوس وتعيد ملأها من غير أن تنسى كأسها. فتصغي لمـــا يقال لها من مجاملات فترد عليها بكياسة وانشراح. وهمـــزوا خيولـــهم فألقوا التحية فانطلقوا.

وكان أن سلك جاك ومعلمه، والمركيز ديزارسي ورفيقـــه الـــدرب نفسها. وليس بين أولئك المسافرين الأربعة من ليس معروفاً سوى هـــذا الأخير. لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر. وهو على درجة من الحياء ترتسم على محياه. ويظل رأسه مائلاً بعـض الشيء نحو كتفه الأيسر. وكان صموتاً ويدون خبرة تذكر فـــي شـــؤون الحياة. وإذا ما أدى التحية الرسمية، فكان يحني القسم الأعلى من جسمه من عير أن يحرك ساقيه. وتظهر عليه وهو جـــالس عـــادة الإمســـاك بطرفي سترته الطويلة وجرّهما على فخذيه والإبقاء على يديه في فتحتي السترة والإصغاء للذين يتكلمون وعيناه شبه مغمضتين. واستطاع جـــاك أن يفك رموزه، استناداً لتلك الهيئة المتفردة. فاقترب من معلمه ومـــال صوبه هامساً: "أراهن على أن هذا الشاب قد لبس ثوب الرهبنة!

-ولم تقول ذلك، يا جاك؟

-سوف ترى."

واصل مسافرونا الأربعة السير معاً، وهم يتبادلون الكلام عن المطر والطقس الحسن والمضيفة والمضيف والنزاع مع المركـــيز ديزارســـي بشأن نيكول. فما انفكت تلك الكلبة الجائعـــة الملطخـــة تـــأتي لتتمسّـــح بجواربه. وبعد أن طردها بمنشفته، مراراً وتكراراً، دونما طائل، انتـــهى به نفاد الصبر إلى توجيه رفسة عنيفة لها... وتحوّل الحديث مـــن بعـــد عن ذلك التعلّق الفريد الذي تبديه النساء حيال الحيوانات. وأدلـــى كـــل

واحد بدلوه. فتوجه معلم جاك إلى جاك قائلاً: "وأنت يا جاك، ما رأيك بذلك؟"

فسأل جاك معلمه إن كان لاحظ أن كافة الناس البسطاء، أياً كانت درجة بؤسهم، وهم لا يجدون لأنفسهم خبزاً، يقتنون الكلاب. وإن كان لاحظ أن تلك الكلاب، وقد أتقنت كلها أداء الأدوار من السير على قائمتين إلى الرقص فجلب الأشياء فالوثب تحية للملك والملكة فالتماوت، قد غدت بفعل ذلك التدريب أشقى حيوانات العالم. وخلص من ذلك إلى أن كل إنسان يرغب في توجيه الأوامر لآخر. وأن الحيوان يأتي في المجتمع مباشرة تحت أدنى طبقة من المواطنين الذين يأتون في أسفل درك كافة الطبقات الأخرى المأمورة، فيتخذونه ليتسنى لهم من يأمرونه. وقال جاك: "وواقع الحال أن لكل واحد كلبه. فالوزير كلب الملك. والوكيل الأول كلب الوزير. والمرأة كلب زوجها أو الزوج كلب امرأته. أن فافوري هو كلب تلك المرأة. وتيبو كلب الرجل الجالس في الزاوية. وحين يطلب إليّ معلمي الكلام وأنا راغب في الصمت، وذلك في واقع الأمر ما يحصل نادراً- هكذا واصل جاك كلامه- وحين يجعلني أسكت وأنا راغب في الكلام، وذلك تحقيقه عسير جداً. وحين يطلب مني قصة غرامياتي فيقطعها: فما عساي أكون سوى كلبه؟ الرجال الضعفاء كلاب الرجال الأقوياء.

المعلم- لكن ذلك التعلق بالحيوانات، يا جاك، لا ألحظه لدى الناس البسطاء فقط، بل أعرف سيدات نبيلات محاطات بإرهاط من الكلاب، ناهيك بالقطط والببغاوات والطيور.

جاك- إنها نقديّتهنّ ونقديّة الذي يحيطون بهن، فلا هنّ يحببن أحداً ولا يحبّهن من أحد: فيرمين للكلاب بعاطفة لا يدرين ما يفعلن بها.

المركيز ديزارسي- محبة الحيوانات أو إلقاء القلب للكلاب، إنها لنظرة فريدة.

جاك- فهل يدهشك ذلك الآن؟

المعلم- كلا.

التفت المركيز صوب جاك فابتسم لأفكاره. ثم توجه إلى معلمه فقال له: "الديك خادمٌ خارج عن المألوف.

المعلم- خادمٌ، أنت في غاية الكياسة: ذلك أني أنا خادمه. ولم يعوزه الأمر كثيراً ليبرهن لي على ذلك، صباح هذا اليوم."

ودام حديثهم لحين وصولهم إلى مكان المبيت فاختاروا نزلاً واحداً. فتعشى معلم جاك والمركيز ديزارسي معاً. بينما جلس جاك والشاب إلى مائدة على حدة. وسرد المعلم على المركيز، بكلمات مختصرة، قصة جاك وإيمانه بالقدر. وتكلم المركيز عن الشاب الذي يصحبه. فقد كان كاهناً قانونياً. وقد تخلى عن ثوبه الكهنوتي على أثر مغامرة شديدة الغرابة. وتقدم أصدقاء فأوصوه به. فاتخذه أميناً للسر انتظاراً لما هو أفضل. فقال معلم جاك :"إن ذلك لأمر مضحك.

المركيز ديزارسي- وما الذي تجده مضحكاً في ذلك؟

المعلم- أتكلم عن جاك. فما كدنا ندخل النزل الذي غادرناه، حتى تقدم جاك ليقول لي بصوت خافت :"سيدي، انظر إلى ذلك الشاب، أراهن على أنه كان راهباً."

المركيز- جاء تخمينه في محله. ولست أدري علام اعتمد. هل تنام باكراً؟

المعلم- كلا، ليس من عادتي. ولست في عجلة من أمري هذا المساء، لا سيما أننا لم نسر سوى نصف يوم.

المركيز- إذا لم يكن هنالك ما يشغلك على نحو أكثر جدوى وأكثر إمتاعاً، فسوف أقص عليك حكاية مرافقي. فهي خارجة عن المألوف.

المعلم- سوف أصغي إليها بكل طيبة خاطر."

أنا أسمعك أيها القارئ: فأنت تقول لي: "وغراميات جاك؟..." وهل تحسب أني لست متشوّقاً مثلك لسماعها؟ وهل نسيت أن جاك يحب الكلام، ولا سيما الكلام عن نفسه، ذلك الهوس العام لدى الناس من أمثاله. إنه الهوس الذي يخرج بهم من وضاعتهم ليضعهم فوق منصّة الخطابة، فيحوّلهم على نحو مباغت إلى أشخاص يجتذبون الأنظار؟ فما الذي يجتذب الرعاع حسب رأيك إلى ساحات تنفيذ الإعدامات العامة؟ هل هي لا إنسانيتهم؟ أنت على خطأ: فالشعب ليس خالياً من الإنسانية مطلقاً. ولو كان بوسعه لأنتزع ذلك الشقي، الذي يتجمّع حول منصة إعدامه، من أيدي العدالة. إنه يتوجّه إلى الساحة ليأتي منها بمشهد يستطيع أن يحكيه لدى رجوعه إلى الضاحية. ولا فرق لديه في أن يكون هذا المشهد أو ذاك، حسبه أن يؤدي دوره، فيجمع جيرانه ليجعلهم يصغون إليه. أقم في الشارع حفلاً مبهجاً ترَ ساحة الإعدامات خالية. الشعب متعطش للفرْجة، فيهرع إليها، لأنه يتسلّى حين يستمتع بها، ويتسلّى أيضاً بسردها حين يرجع منها. والشعب رهيب في سخطه، لكنه لا يدوم. فبؤسه الخاص جعله رحيماً. فتراه يحوّل ناظريه عن مشهد الهول الذي سعى إليه. فيرق قلبه فيرجع منه باكياً... كل ما أتلفّظ به أمامك هنا، أيها القارئ، أخذته عن جاك، وأنا أصرح لك بذلك، لأني لا أحب أن أدّعي لنفسي أفكار الغير. وما كان جاك يعرف اسم الرذيلة ولا اسم الفضيلة. وكان يدعي أن المرء يولد سعداً أو نحساً. فحين يسمع من ينطق أمامه بكلمات الثواب والعقاب ينهز بكتفيه. فالثواب في رأيه تشجيع الصالحين. والعقاب فزع الطالحين. ويقول: "أمن شيء آخر، إن لم يكن هناك حرية وكان مصيرنا مكتوباً فوق؟" ويعتقد أن الإنسان يمضي نحو العز أو نحو الذل بمثل الضرورة التي تسلك فيها كُرةٌ واعية لذاتها، منحدراً جبلياً. وإذا كان تشابك الأسباب والعلل التي تشكل حياة الإنسان منذ اللحظة الأولى لولادته حتى النسمة الأخيرة من حياته معروفاً، فنظل مقتنعين من أنه لم يفعل سوى ما كان ضرورياً أن يفعله.

وعارضته أنا مراراً وتكراراً، لكن دون فائدة ولا ثمرة. وما ردّك في الواقع على من يقول لك: "مهما تكن كمية العناصر التي أتكوّن منها، فأنا واحد. وواقع الحال أن لكل علة معلول واحد. فلم يكن لي قط أن أصنع سوى معلول واحد. وليست ديمومتي إذن غير سلسلة من المعلولات الضرورية." كان جاك يحاكم الأمور على ذلك النحو وفقاً لتعاليم رئيسه. وكان التمييز بين العالم الفيزيائي والعالم الأخلاقي يبدو له فارغاً من كل معنى. وكان رئيسه قد حشا دماغه بتلك الآراء كلها التي استقاها من سبينوزا، فقد كان يحفظه عن ظهر قلب. ويسعنا، وفقاً لهذا المنهج، أن نتخيل أن جاك ما كان يبتهج أو يكتئب من شيء. لكن ذلك ليس صحيحاً. فهو يتصرف مثلك ومثلي تقريباً. فيشكر من يحسن إليه، من أجل أن يحسن إليه أيضاً. وتثور ثائرته على الإنسان الظالم. وحين يأخذ أحد عليه بأنه أشبه بالكلب الذي يعضّ الحجر التي أصابته، يجيب قائلاً: "كلا، ثم كلا، فالحجر التي يعضها الكلب لا تنصلح، أما الرجل الظالم فيُقوَّم بالعصا." وغالباً ما كان متناقضاً مثلك ومثلي، وعرضة لنسيان مبادئه، باستثناء بعض الظروف التي تسيطر فيها فلسفته عليه سيطرة حتمية. عندئذٍ يقول: "كان لذلك أن يحدث، لأنه مكتوب فوق." ويسعى لتوقي الشر. فتراه حذراً مع ازدرائه الكبير للحذر. وحين يقع الحادث يرجع إلى لازمته فيشعر بالعزاء. وهو فضلاً عن ذلك، رجل طيب وصريح ونزيه وجريء وعطوف ومخلص، وعنيد جداً وثرثار كبير، ويغتمّ مثلك ومثلي حين يبدأ قصة غرامياته دون أي أمل في إنهائها. وعليه فإني أنصحك أيها القارئ أن تتخذ قرارك، فترضى بمغامرات سكرتير المركيز ديزارسي، لعدم توفّر مغامرات جاك. وأنا أرى، من ناحية أخرى، ذلك المسكين جاك وقد لفّ عنقه بمنديل عريض. أما قربته المترعة بالنبيذ الفاخر، فلا تحتوي إلا مغلي الزهورات. وهو يسعل فيكيل الشتائم للمضيفة التي غادروها،

ولنبيذ الشمبانيا عندها، وما كان له أن يفعل ذلك لو تذكّر أن كل شيء مكتوب فوق، حتى زكامه.

أما بعد أيها القارئ فحكايا الحب هي المتداولة أبداً. فحكاية حب، فاثنتان فثلاث فأربع رويتها أنا لك. وثلاث وأربع حكايات حب أخرى تعتادك أيضاً: إن ذلك لفيض كبير من حكايا الحب. وواقع الأمر من جهة أخرى، أننا نكتب من أجلك أنت، فينبغي إما الاستغناء عن إعجابك وتهليلك، أو أن يُقدَّم لك ما يروقك، وأنك تكون أنت قد اخترت حقاً حكايا الحب. فكافة قصصك شعراً أم نثراً حكايات عشق. وقصائدك كلها تقريبا، من مراثي ومدائح، وغزليات عفيفة وغنائيات وملاحم وملاهي ومآسي ومسرحيات للأوبرا، هي حكايات عشق. وليست رسوماتك جميعاً ومنحوتاتك تقريبا سوى حكايات عشق. وليس لك غير حكايات العشق من زاد، مد أن صرت على وجه البسيطة، ولا تراك تملّها أبداً. ولسوف تلزم بتلك الحمية، بل سوف تلزمون بها لزمن طويل أيضاً، رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً ولا تراكم تملّونها. وإن ذلك في حقيقة الأمر لرائع. ولكم أودّ أن تكون قصة سكرتير المركيز ديزارسي إحدى حكايات العشق أيضاً، غير أنى أخشى أن لا تكون كذلك وأن يصيبك الضجر. وليكن ما يكون بشأن المركيز ديزارسي ومعلم جاك، وشأنك أنت، أيها القارئ وشأني أنا.

"يأتي على كافة الفتيات والفتيان تقريباً، حين من الدهر، يصابون فيه بالكآبة. فيفضّ مضاجعهم قلق غامض بجوب دنياهم كلها ولا يجد ما يخفّف من غلوائه. فيسعون وراء العزلة. ويبكون. ويلمس صمت الأديرة شغاف قلوبهم. وتسلب ألبابهم صورة السكينة التي تبدو ترفّ فوق دور العبادة. أما الجهود الأولى المتأتية عن مزاج ينمو ويتطور فيحسبونها صوت الله يدعوهم إليه: فحين تبدأ الطبيعة تحديداً تتوسّل إليهم بإلحاح، ينضوون تحت لواء نمط من الحياة مخالف لرغبة الطبيعة. ولا يدوم الغلط. فيغدو تعبير الطبيعة أكثر وضوحاً. فيتبيّنونه، ويقع الكائن الحبيس

فريسة الندامة والسأم والأبجرة والجنون أو اليأس...:" كانت تلك مقدمة المركيز ديرارسي. "وهكذا فإن ريشار، وهذا هو اسم السكرتير، الذي كرهت نفسه الدنيا وهو في السابعة عشرة، ولى هارباً من منزل والديه فارتدى ثوب كاهن قانوني.

المعلم- كاهن قانوني؟ أنا ممتن له. فهم بيض مثل طيور التمّ، ولم يهمل القديس نوربير، الذي أسّس رهبانيتهم، سوى شيء واحد في قوانينه...

المركيز ديزارسي- أن يخصّص مقابلاً لكل واحد من أتباعه.

المعلم- لو لم يكن من أعراف الملائكة أن يتجولوا عراة، لتنكّروا في أثواب كهنة قانونيين. فتسود في تلك الرهبانية سياسة فريدة. فهم يبيحون لك الدوقة والمركيزة والكونتيسة والرئيسة والمستشارة وحتى الوكيلة المالية، أما البورجوازية[1] فلا. فنادراً ما ترى كاهناً قانونياً في دكان، مهما تكن البائعة جميلة.

المركيز ديزراسي- ذلك ما قاله لي ريشار. وكان بوسع ريشار أن ينذر نذوره بعد عامين من الترهب، لو لا أهله الذين عارضوا ذلك. ففرض عليه أبوه أن يعود إلى المنزل، حيث سيسمح له بامتحان دعوته عن طريق التزامه بقواعد الحياة الرهبانية جميعاً طيلة عام. وكان اتفاق التزم به الطرفان بكل أمانة. وبعد أن انقضى عام التجربة على مرأى من الأهل، طلب ريشار أن ينذر نذوره. فرد عليه أبوه قائلا :"منحتك عاماً حتى تتخذ قرارك الأخير، وآمل أن لا ترفض طلبي عاماً آخر للهدف نفسه. وأوافق على أن تمضيه في المكان الذي يروقك." وكان أن استلحقه رئيس دير الرهبانية به، بانتظار انتهاء المهلة الثانية. وكان أيضاً أن تورّط أثناء تلك المهلة بواحدة من المغامرات التي لا تقع إلا في الأديرة. كان على رأس أحد أديرة الرهبانية آنذاك رئيس ذو طبع

[1] كانت البرجوازية قبل الثورة الفرنسية طبقة بلا هوية: فما يملكه البرجوازيون من مال يضعهم في مرتبة أعلى من عامة الشعب. لكنهم بلا حقوق، فهم أدنى من النبلاء والاكليروس م.

خارق للعادة: يدعى الأب هدسون. والأب هدسون من ذوي الوجوه الأكثر ملاحة: جبين عال ووجه مستدير وأنف أقنى، وله عينان كبيرتان زرقاوان وخدّان جميلان سابلان، وفم جميل وأسنان ناصعة وابتسامة غاية في العذوبة، ورأس تغطيه غابة من شعر أبيض، فتسبغ على ملاحة الوجه المهابة. ناهيك بالذكاء وسعة المعارف والمرح والوقار والكلام الأكثر استقامة وحب النظام وحب العمل. غير أنه يتميز بأكثر الأهواء جموحاً، وميل عربيد لا يرتوي من الملذات والنساء، مصحوب بعبقرية لتدبير المكائد تبلغ الذروة، وأخلاق من الأكثر تحلّلاً، وطغيان مطلق داخل ديره. فحين أوكلت إليه الإدارة، كانت تنخر هيكل الدير روح جنسينية جاهلة. فلا الدروس تسير سيراً حسناً، والشؤون اليومية في حالة من الفوضى، والفروض الدينية غارقة في مستنقع الإهمال، والقداديس الإلهية تقدم بطرق غير لائقة، والمساكن الزائدة يشغلها مستأجرون متحلّلون من كل أخلاق. باشر الأب هدسون بهداية الجنسينيين أو إبعادهم، وتولى بنفسه الإشراف على الدروس، فأعاد النظام للحياة اليومية، وأقرّ القوانين السائدة، وطرد المقيمين السفلة، وأدخل إلى خدمة القداديس النظام واللياقة وجعل من رهبانيته نموذجاً للتقوى يقتدى به. غير أن ذلك الزهد الذي ألزم به الآخرين تحلّل هو منه. وذلك النير الذي أخضع له كافة مرؤوسيه، لم يكن هو مغفّلاً إلى حد مشاطرتهم عبئه. وهكذا صار يعتمل في نفوسهم حيال الأب هدسون حقد دفين من النوع الأكثر عنفاً وخطورة. فكان كل واحد عدواً له وجاسوساً عليه، يسعى سراً إلى خرق حجب سلوكه. فما إن يبدأ بمسعى إلا وتبدأ ملاحقته فيه. ولا ينصب من مكائد إلا وتغدو معروفة.

وتعود لرئيس الرهبنة دار تلاصق الدير. وللدار بابان ينفتح أحدهما على الشارع والآخر على الدير. وكسر هدسون الأقفال فأمست كنيسة الدير خلوة ملاعبة الليلية، وسرير رئيس الدير خلوة مباهجه. فكان يتولى بنفسه، بعد هزيع من الليل إدخال نساء من كل صنف ولون إلى

شقته، عبر باب الشارع: فتمدّ من بعد موائد عشاء عامرة. كان لهدسون كرسي اعتراف، فاستطاع أن يغوي، من بين اللواتي يأتينه تائبات، كل من هي جديرة بذلك. وفيهن حلوانية فتيّة، داع في الحيّ صيت دلّها ومفاتنها. ولم يكن بوسع هدسون أن يتردّد عليها فاحتبسها في حريمه. ولا يمكن أن يمرّ ذلك النوع من الخطف دون أن يثير ريبة أهلها وزوجها الذين توجهوا لزيارته. فاستقبلهم هدسون بوجوم. وفيما كان أولئك القوم البسطاء يعرضون أمامه موضوع غمّهم. دقّ جرس الكنيسة فأوعز إليهم هدسون بالتزام الصمت، ورفع قبعته فنهض ورسم إشارة صليب كبرى وقال بلهجة مشبعة عطفاً: أنجيلوس دوميني نونسيافيت ماريا[1].. (ملاك الربّ يبشّرك يا مريم...) فاستولى الخجل على والد الحلوانية وأشقائها بسبب ظنونهم، فقالوا للزوج وهم يهبطون الدرج :"أنت أحمق، يا بني. ألا ينتابك الخجل يا أخي؟ إن رجلاً يتلو صلاة "أنجيلوس" لرجل قديس!"

وفيما كان عائداً إلى ديره، في إحدى أماسي الشتاء، تعرّضت له مخلوقة من اللواتي يتصدين للمارة. وبدت له مليحة فتبعها. وما كاد يدخل حتى وقع في الفخ. ومن شأن مغامرة من ذلك النوع أن نودي بصاحبها. غير أن هدسون رجل صمود ومجابهة، فعاد عليه ذلك الحادث بحسن التفات مفوض الشرطة وحمايته. فما إن اقتيد إلى حضرته حتى بادره بخطاب على نحو مايلي: "اسمي هدسون، وأنا رئيس الدير. حين جئت إليه كان كل ما فيه بحالة فوضى، فلا علم ولا نظام ولا أخلاق. كان الجانب الروحي فيه مهملاً إلى درجة فاضحة. وكان الخلل الدنيوي يتهدّد الدير بدمار عاجل. فأعدت كل شيء إلى نصابه. غير أني رجل. وقد آثرت أن أقصد امرأة متهتّكة على أن أغرّر بامرأة شريفة. ويسعك الآن أن تتصرّف بشأني وفق ما يروقك..." فأوصاه مفوّض الشرطة بأن يكون

[1] الجملة باللاتينية في النص الفرنسي. ANGELUS DOMINI NUNTIAVIT MARIAE

أكثر تبصّراً في المستقبل، ووعده بالتكتّم على المغامرة وأعرب له عن رغبته في أن يعرفه معرفة حميمة أكثر.

غير أن الأعداء الذين يحيطون به، قاموا في تلك الأثناء، كل من جانبه، بإرسال مذكرات إلى رئيس الرهبنة العام، عرضوا فيها كل ما يعرفونه عن سلوك هدسون السيئ. وكان من شأن المقارنة بين تلك المذكرات أن يزيد في قوتها. وكان الرئيس العام على المذهب الجنسيني، ومستعداً بالتالي لأن يثأر لذلك النوع من الاضطهاد الذي ألحقه هدسون باتباع مذهبه. وهو سيطرب لسماع مآخذ على الأخلاق الفاسدة لمدافعٍ عن القرار البابوي والسلوك المتهتّك للجماعة كلها. وعليه فقد وضع المذكرات المختلفة حول أفعال هدسون وحركاته بين أيدي مفوّضين اثنين وأرسلهم سراً، على جناح السرعة، مزوّدين بأمر اتخاذ الإجراءات للتحقّق منها وإثباتها قانونياً، فارضاً عليهما بشكل خاص إحاطة إجراءات هذه القضية بأكبر قدر من الحيطة والتبصر، لأنها الوسيلة الوحيدة لتجريم المذنب على نحو مباغت وإخراجه من تحت حماية البلاط والقائم على كاتدرائية ميربوا، الذي ينظر إلى الجنسينية على أنها أعظم الجرائم، وإلى الرضوخ للقرار البابوي، على أنه أسمى الفضائل. وكان سكرتيري ريشار واحداً من المفوّضين.

غادر الرجلان دار الرهبنة ليستقرا في دير هدسون ويباشرا بجمع المعلومات خفية. وقد جمعا في عضون وقت قصير قائمة من الآثام والكبائر تفوق ما يلزم لوضع خمسين راهباً في سجن الدير الأبوي. كانت إقامتهما طويلة، لكن مكيدتهما تميّزت بمهارة كبيرة حتى لم يرشح شيء منها. وعلى الرغم مما تمتع به هدسون من دهاء، فقد أضحت نهايته قريبة، لا سيما أن أدنى ريبة لم تراوده. يبقى أن قلة اهتمام القادمين الجديدين بتملّقه، وغموض سفرهما، واجتماعاتهما المتواترة مع الرهبان الآخرين. وخروجهما مجتمعَيْن تارةً ومنفصلين تارةً أخرى، ونوعية الناس الذين كانا يزورانهما أو يستقبلانهما، ما لبثت أن تسببت

له بشيء من القلق. فراقبهما بدقة وأمر بمراقبتهما. ليضحي موضوع مهمتهما بعد قليل واضحاً له كل الوضوح. فلم يتحيّر في أمره البتة. واهتم كل الاهتمام، لا بالإفلات من العاصفة التي تتهدّده، بل بجعلها تعصف برأسَيْ المبعوثين: وإليك القرار الخارق الذي صمّم على اتخاذه:

كان قد غرّر بفتاة أبقاها محتجبة عن الأنظار في مسكن صغير بضاحية سان ميدار. فهرع إليها وبادرها بالخطاب التالي :"يا بنيتي، انكشف كل شيء، وقُضي علينا. لن يمضي أسبوع قبل أن يحجر عليك، أما أنا فأجهل المصير الذي ينتظرني. لا تستسلمي لليأس ولا تعولي. حافظي على رباطة جأشك. أصغي إلي واصنعي ما أقوله لك، فأحسني صنعه، وأنا أتكفّل بالباقي. غدا أتوجّه إلى الريف. فاذهبي في غيابي للقاء راهبين سوف أسمّيهما لك. (وذكر لها اسمَيْ المبعوثين.) اطلبي أن تتحدثي إليهما سرّاً. وحين تصيرين وحدك معهما، ارتمي أمامهما، وتوسلي إليهما طلباً لعونهما، طلباً لعدلهما، طلباً لوساطتهما لدى الرئيس العام، الذي يستطيعان التأثير عليه على حد علمك. ابكي ونوحي وشدّي شعرك، قصّي عليهما حكايتنا كلها، واسرديها على النحو الذي يستدر الشفقة عليك ويستثير السخط عليّ...

-كيف، يا سيدي، أقول لهما...

-أجل، قولي لهما من أنت، وإلى من تنتسبين، وإني غررت بك أمام كرسي الاعتراف، فاختطفتك من بين أيدي والديك فاحتجزتك في البيت الذي تقيمين فيه الآن. وقولي إني بعد أن اغتصبت شرفك، وأسقطتك في هوة الإثم أهملتك في حمأة البؤس. قولي إنك لا تدرين ما مصيرك.

-ولكن، ابتاه ..

-نفّذي ما أمرتك به مع التعليمات التي سأصدرها لك، وإلا فاعقدي العزم على التفريط بنفسك والتفريط بي. فلن يتوانى هذان الراهبان عن التحنن عليك، وعزمهما على مدّ يد العون لك، وعن طلب لقاء ثان معك سوف تمنحينهما إياه. سوف يستعلمان عنك وعن أهلك، وبما أن كل ما

قلته لهما كان صحيحاً فلن تثيري أية شبهة لديهما. وبعد اللقاء الأول واللقاء الثاني، سوف أعلمك بما عليك أن تفعليه في اللقاء الثالث. فكري فقط في أن تؤدي دورك أحسن أداء."

وجرى كل شيء على نحو ما تصوّره هدسون. وقام برحلة ثانية. وأعلم المبعوثان الفتاة بالأمر، فرجعت لمقابلتهما في الدير. فطلبا إليها مجدداً أن تقصّ حكايتها الشقيّة. وفيما كانت تقصها على أحدهما كان الآخر يدون ملاحظات على دفتر مذكراته. فتأوّها لسوء طالعها، وأحاطاها علماً بحزن والديها، وكان حزناً حقيقياً، ووعداها بتأمين حمايتها الشخصية وبالثأر القريب من مغويها. لكن بشرط أن توقّع على ما صرحت به. وبدا الاقتراح أولاً كأنه أثار حفيظتها. فألحّا: فرضخت. ولم تعد المسألة تتعدّى تحديد اليوم والساعة والمكان، لكتابة ذلك التصريح الذي يتطلب وقتاً كافياً وشيئاً من الراحة.. "لا يمكن أن يتم ذلك هنا، لا سيّما إذا حضر رئيس الدير ورآني.. ولا أجرؤ على أن أعرض عليكما أن يكون في بيتي..." وافترقت الفتاة والمفوضين، متفقين على أخذ الوقت الكافي لتذليل تلك العقبات.

أحيط هدسون علماً، في اليوم نفسه، بكل ما جرى. ففاضت نفسه غبطة ورضى. فقد أشرف على ساعة النصر. وقريباً يُعلِمُ هذين الغرّبن أيّ رجل يواجهان. فقال للفتاة: "خذي الريشة واضربي لهما موعداً في المكان الذي سأحدده له. وأنا على يقين من أن ذلك الموعد سيلائمهما. فالمنزل غير مشبوه والمرأة التي تشغله، تتمتع ضمن جوارها وبين المستأجرين الآخرين بسمعة طيبة جداً."

غير أن تلك المرأة كانت واحدة من الماكرات الخفيات اللواتي يتظاهرن بالتقوى، فينلن حظوة في أفضل البيوت، لما يتميز به حديثهن من طلاوة وود وتملق، فيتوصلن إلي استغلال ثقة الأمهات والبنات، ليحرفنهن من بعد نحو الفوضى. وكانت تلك هي الفائدة التي يجنيها

هدسون من هذه المرأة. فقد كانت قوّادة له. فهل باح بسرّه لتلك الماكرة أم لم يفعل؟ ذلك ما أجهله.

والواقع أن مفوّضي الرئيس العام فلا بالموعد. وها هما يجتمعان بالفتاة. فتركتهما الماكرة وانسحبت. وبُدىء بتحرير المحضر، حين ارتفع صخب كبير في الدار.

"أيها السادة، من تطلبون؟ -نطلب السيدة سيمون. (ذلك هو اسم الماكرة.) -أنتم على بابها."

أصبح الطرق على الباب عنيفاً. فقالت الفتاة للراهبين: "هل أردّ، أيها السادة؟

-ردّي.

-هل أفتح؟

-افتحي...

كان الذي يتكلم على ذلك النحو مفوضاً في الشرطة تربطه بهدسون علاقة حميمة. فهل من لا يعرفه في واقع الأمر؟ لقد كشف له عن الخطر الذي يتهدّده وأملى عليه دوره. فقال المفوض وهو يدخل: "وي! وي! راهبان في خلوة مع فتاة! وهي لابأس بها." كانت الفتاة قد ارتدت ثياباً فاضحة، يستحيل على المرء معها ألا يسيء الظن بحالها وبما يمكن أن تبحثه مع راهبين لم يبلغ المسنّ فيهما الثلاثين من عمره. وتمسّك هذان ببراءتهما. وشرع المفوض يضحك هازئاً وهو يمسح بكفه تحت ذقن الفتاة التي ارتمت على قدميه تلتمس العفو. فقال الراهبان: "إنما نحن في مكان محترم."

فأجاب المفوض: "أجل، أجل، في مكان محترم."

-وإنهما قدما من أجل قضية هامة.

-نحن على علم بالقضية الهامة التي تقود إلى هنا. تكلمي، يا آنسة.

-سيدي المفوض. إن ما يؤكده لك هذان السيدان لهو الحقيقة بعينها."

وقام المفوض بتحرير محضر من جانبه، ولما لم يكن في محضره من شيء سوى عرض نزيه وبسيط للحقائق، فقد أصحى الراهبان مرغمين على التوقيع. ولدى نزولهما وجدا كافة المستأحرين على مصاطب مساكنهم، مع حشد من الرعاع عند باب الدار، وعربة وحرساً، فوضعوهما داخل العربة، وسط جلبة اختلطت فيها الشتائم بصيحات الاستنكار. فغطى كل منهما وجهه بقبّة معطفه وكانا في حالة حزن شديد. فقال المفوض المخادع: "ولِم، يا أبتيّ تألفان تلك الأماكن وتعاشران تلك المخلوقات؟ غير أنه لا ضير من ذلك. فلديّ أمر من الشرطة بأن أضعكما بين يدي رئيسكما، وهو رجل رقيق الحاشية ومتساهل، فلن يعلّق على ذلك ما يستحقه من أهمية. ولست أعتقد أنهم يستخدمون في أديرتكم، ما يستخدمه الكبوشيون، قساة القلوب. فلو كانت قضيتكما بين أيدي الكبوشيين، لقلت والله، يا ويلكما."

وفيما المفوض يتحدث إليهما، كانت العربة تسير نحو الدير، والحشد يزداد عددا، فيحيط الناس بها ويتقدمونها أو يتبعونها وهم يحثون الخطى. وكان يُسمع هنا: ما الأمر؟. . وهناك: إنهم رهبان. ماذا فعلوا؟ أمسكوا بهم عند بنات الهوى... كهنة قانونيون عند بنات الهوى! بلى، بلى، فهم يسيرون على هدي الكرمليين والفرنسيسكانيين. . وها قد وصلوا. ونزل المفوض فقرع الباب، وقرع أيضاً، ثم قرع مرة ثالثة، وأخيراً فتح الباب. فأعلموا الرئيس هدسون، فجعلهم ينتظرون نصف ساعة على الأقل، من اجل أن يثير مع الفضيحة دويّها الكامل. وظهر أخيراً. فتقدم المفوض يكلمه همساً. وبدا عليه أنه يتوسّط لديه بالقضية. فيرفض هدسون رجاءه بشدة. وفي النهاية اتخذ هدسون مظهرا قاسيا فقال له بلهجة حازمة: "ليس عندي في الدير من رهبان فاسقين مطلقا. فهذان الاثنان غريبان ومجهولان بالنسبة لي، وربما كانا سافلين متنكرين، فيسعك أن تفعل بهما ما يروقك."

بعد تلك الكلمات أُغلق الباب. فصعد المفوض إلى العربة، وقال لصديقينا التعيسين اللذين كانا أقرب إلى الموت منهما إلى الحياة: "بذلت كل ما في وسعي. وما كنت أحسب قط أن الأب هدسون على تلك الدرجة من الصلابة. وبعد كل شيء، فأيّ إبليس جعلكما تذهبان إلى بنات الهوى؟

-إذا كانت التي وجدتنا معها واحدة منهن، فليس الفجور هو الذي قادنا إليها.

-حقاً، حقاً، يا أبتيّ، إنكما تقولان هذا لمفوّض عجوز! فمن أنتما؟

-نحن كاهنان. والثوب الذي نرتديه إنما هو ثوبنا.

-تذكّرا أن قضيتكما ستنجلي خيوطها غداً. قولا لي الحقيقة. فقد أستطيع مساعدتكما.

-لقد قلنا لك الحقيقة... ولكن إلى أين نحن ذاهبون؟

-إلى القلعة الصغيرة.

-إلى القلعة الصغيرة! إلى السجن!

-يؤسفني ذلك."

والواقع أن ريشار ورفيقه قد أودعا هناك. لكن مخطط هدسون لم يقم على تركهما فيه. فقد ركب في عربة بريد فوصل إلى فرساي. فقابل الوزير وعرض عليه القضية بالشكل الذي يلائمه."ذلك، يا صاحب السيادة، ما يتعرض له المرء حين يدخل الإصلاح إلى دير وقع فيه الانحلال. ويقوم بطرد الهراطقة منه. بعد فترة قصيرة كان سيُقضى عليّ وتلوّث سمعتي. ولن تتوقف المضايقات عند ذلك الحد. بل سوف تسمع بكل الأهوال التي من شأنها أن تسوّد صفحة رجل صالح. لكن آمل، يا صاحب السيادة، أن تتذكّر أن رئيسنا العام...

-أعرف، أعرف، وأنا أرق لحالك. غير أن الخدمات التي أدّيتها للكنيسة ولديرك لن ننسى أبداً. فالذين وقع عليهم اختيار الرب، كانوا على الدوام عرضة للنكبات: فأجادوا تحمّلها. وينبغي أن نعرف كيف نقتدي

بجرأتهم. كن على ثقة من نِعم الملك عليك وحمايته لك. يا للرهبان! يا للرهبان! فقد كنت راهباً، وعرفت بالتجربة ما هم قادرون على فعله.

-إذا كان خير الكنيسة والدولة يقتضي أن يدعمني سموكم، فسوف أصمد دون خوف.

-ولن أتأخر عن إخراجك من هناك. فهيا.

-كلا، يا صاحب السيادة، كلا، فلن أبتعد من دون أمر جليّ...

-بإطلاقٍ سراح هذين الراهبين الطالحين؟ أرى أن شرف الدين وشوف نوبك يؤثر في نفسك إلى حد نسيان الإهانات الشخصية. تلك هي الروح المسيحية، وقد اهتديت بها من غير أن يدهشني صدورها عن رجل مثلك. ولن تحدث تلك القضية أي دويّ.

-إيه، يا صاحب السيادة، فقد أفعمتَ روحي غبطة! فذلك أكثر ما كنت أخشاه في هذا الوقت.

-سوف أعمل في ذلك الشأن."

في المساء نفسه حصل هدسون على أمر بإخلاء السبيل، وما أطل فجر اليوم التالي، إلا وكان ريشار ورفيقه على بعد عشرين فرسخا من باريس، بقيادة ضابط شرطة أوصلهما إلى دير الندور. وكان يحمل رسالة إلى الرئيس العام يطلب إليه فيها بالكفّ عن مثل تلك الدسائس وبأن يطبّق على الراهبين العقوبة المعمول بها في الدير.

وكان من شأن تلك المغامرة أن تبثّ الذعر في قلوب أعداء هدسون. فلم يعد في ديره من راهب إلا ويرتعد إذا وقع نظر هدسون عليه. ثم وهِبَ بعد عدة أشهر ديراً غنياً. فانتاب الرئيس العام من جراء ذلك غمّ قاتل. فهو متقدم في السن، وصار خائفا كل الخوف من أن يخلفه هدسون في منصبه. وكان يحب ريشار ويعطف عليه. فقال له يوما: "ماذا سيحل بك، يا صديقي المسكين، إذا ما وقعتَ تحت سلطة ذلك الفاسق هدسون؟ إن ذلك ليفزعني. أما وأنك لم ترتبط بالنذور بعد،

فاسمع كلامي واخلع الثوب..." وعمل ريشار بالنصيحة، فعاد إلى منزل والديه، الذي لم يكن بعيداً عن الدير الذي امتلكه هدسون.

وصار مستحيلاً على هدسون وريشار أن لا يلتقيا، فهما يترددان على الدور نفسها، وقد التقيا في واقع الأمر. كان ريشار يوماً ضيف سيدة قصر يقع بين شالون وسان ديزيبيه، غير أنه أقرب إلى سان ديزيبيه منه إلى شالون وعلى مرمى بندقية من دير هدسون. فقالت له السيدة: "يتردد علينا هنا رئيسك السابق: إنه لطيف المعشر، أما في الأعماق، فأي إنسان هو؟

-إنه أفضل الأصدقاء وأخطر الأعداء.

-ألا تراودك الرغبة في رؤيته مجدداً؟

-على الإطلاق ."

ما كاد ريشار يتلفّظ بذلك الجواب حتى سُمعت جلبة عربة تدخل باحة القصر، وشوهد هدسون يهبط منها، تصحبه امرأة من أجمل نساء المقاطعة. فقالت له سيدة القصر: "سوف تراه رغم أنك مغتاظ منه، فذاك هو."

ومشت سيدة القصر ومعها ريشار لاستقبال سيدة العربة ورئيس الدير هدسون. وتعانقت السيدتان: أما هدسون الذي تعرف على ريشار وهو يقترب منه فهتف قائلاً: إيه، هذا أنت يا عزيزي ريشار؟ لقد عزمت على أن تودي بي، غير أني سامحتك. اغفر لي فقط بسبب زيارتك للقلعة الصغيرة، ولننس ذلك كلّه.

-عليك أن تُقرّ معي، يا سيدي الرئيس، على أنك كنت أكبر خسيس.

-ذلك ممكن.

-وأن العدالة لو قالت كلمتها، لوقعت زيارة القلعة الصغيرة عليك أنت، لا عليّ أنا.

-ذلك ممكن .. أعتقد أن الخطر الذي تعرضتُ له آنذاك، جعلني أتخلّق بأخلاقي الراهنة. ألا ليتك تدري، يا عزيزي ريشار كم أنا تغيّرت!

-إن هذه المرأة التي جئت برفقتها لفاتنة حقاً.

-لم تعد لديّ عينان للنظر إلى تلك المفاتن.

-يا لقوامها الرشيق!

-ذلك بالنسبة لي سواء.

-يا لقدها الممتلئ!

-لا بد أن يتوب المرء إلى رشده من متعة لا تتحقق له إلا وهو في أعلى نقطة من السطح، معرضاً نفسه لأن يسقط لدى أقل حركة فتدقّ عنقه.

-إن يديها لهما أجمل ما في الدنيا.

-لم تعد لي في هاتين اليدين من رغبة. ومن يتمتع بعقل سليم لا تخطر على باله سوى السعادة الحقيقية.

-وهاتان العينان اللتان تختلس بهما النظر إليك اختلاساً. أصدقني القول إنك أنت الطويل الباع في هذه الميادين، لم نحدّد النظر قط في عينين أكثر ألقاً وأكثر عذوبة. فيا للسحر ويا للرشاقة ويا للأنفة في مشيتها وفي هيئتها!

-ما عادت تشغلني تلك الترهات. فأنا أعكف على الكتاب المقدس وسيرة الأنبياء.

-ومن حين لآخر، على محاسن تلك السيدة. فهل تقيم هي بعيداً عن مونسيه؟

وهل زوجها فتيّ؟..."

ونفد صبر هدسون من تلك الأسئلة، وهو على قناعة تامة من أن ريشار ليس مقتنعاً بقداسته، فقال له على حين غرة :"يا عزيزي ريشار، أنت تستهزئ بي[1]، ولك كل الحق في ذلك."

[1]انظر الهامش في الصفحة التالية.

ويا عزيزي القارئ، سامحني على المعنى الخاص بتلك العبارة[1]. وعساك توافقني الرأي على أن الكلمة النزيهة يمكن أن تشوّه كل شيء هنا، كما في عدد لا يُحصى من الحكايات الجيدة، مثل حكاية الحديث بين بيرون[2]، والمرحوم الكاهن فاتري على سبيل المثال. -وماكنةُ ذلك الحديث بين بيرون والكاهن فاتري؟ -امضِ فاسألِ عليه ناشر مؤلفاته، الذي لم يجرؤ على كتابته. غير أنه لن يتردد كثيراً أمام سرده على مسامعك.

اجتمع مسافرونا الأربعة في القصر. فتعدوا غداءً شهياً، في جوّ من البهجة، وافترفوا مساء على أمل التلاقي مجدداً.. وفيما كان المركيز ديزارسي يتجاذب أطراف الحديث مع معلم جاك، لم يكن جاك من ناحيته يلتزم جانب الصمت في صحبة السكرتير ريشار، وقدر رآه صريحاً ومتفرّداً، ويقع مثل هذا بين الناس كثيراً، ما لم تكن التربية أولاً، والزّحمة الكبرى للحياة وسط العالم، قد استهلكتاهم، على نحو ما يقع لقطع النقود الفضية، التي تنتهي بها كثرة التداول إلى زوال معالمها المميزة. وصار الوقت متأخراً، فأنذرت دقات الساعة المعلمين والخادمين بحلول ساعة الخلود للراحة فعملوا بتوصيتها.

قال جاك لمعلمه، وهو يعينه على خلع ملابسه: "هل تحب اللوحات، يا سيدي؟

المعلم- أجل، لكن بالحديث. لأن حكمي عليها بالألوان وعلى القماش، رغم أنه حكم هاوٍ وبالتأكيد، فأنا اعترف لك بأني لا أفقه شيئاً على الإطلاق، وأني أجد مشقّة في التمييز بين مدرسة وأخرى. فيسع أحدهم أن

(1) الصيغة الفرنسية تتضمن لفظاً نابياً بعض الشيء.

(2) بيرون (1689-1773) كاتب من مدينة ديجون، اشتهر بحكاياته. فاتري (1697-1769) أستاذ اللغة اليونانية في كولج دوفراس وعضو الأكاديمية.

يعطيني لوحة برشة بوشيه على أنها بيد روبنس أو رفائيل. وقد أنظر إلى نسخة سيئة على أنها رائعة أصيلة. وأخمن بألف إيكو لوحة رديئة بستة فرنكات، أو بستة فرنكات قطعة تساوي ألف إيكو. وأني لم أتدبر أمري في هذا الميدان إلا عند جسر نوتردام، في محل رجل يدعى ترامبلان، كان في أيامي مصدراً للبؤس أو الانحلال، ودمار الموهبة لدى تلاميذ فان لو[1] اليافعين.

جاك- وكيف ذلك؟

المعلم- ومالك أنت وذلك الشأن؟ أحك لي لوحتك وبإيجاز لأن النعاس استولى عليّ.

جاك- تخيّل نفسك أمام عين ماء الإينوسان أو قرب بوابة سان دوني. فهذان من المتمّمات التي ستغني اللوحة.

المعلم- أنا هناك.

جاك- انظر في وسط الشارع إلى عربة انكسرت دعامتها فانقلبت على جانبها.

المعلم- إني أراها.

جاك - لقد خرج منها راهب وفتاتان. فأطلق الراهب ساقيه للريح. وأسرع الحوذي في النزول من العربة. بينما جدّ كلب صغير من العربة في أثر الراهب فأمسك به من ذيل معطفه. وأخذ الراهب يبذل قصارى جهده للتخلص من الكلب. كانت إحدى الفتاتين بثياب مبتذلة، مكشوفة النحر، تلوذ بخاصرتيها من شدة الضحك. أما الفتاة الأخرى فأصيبت بكدمة في جبهتها، وهي تستند إلى الباب وتضغط على رأسها بيديها. وتجمّع الرعاع في تلك الأثناء، وهرع السوقة وهم يصيحون، وخرج الباعة والبائعات إلى عتبات حوانيتهم، بينما أطل مشاهدون آخرون من نوافذهم.

المعلم - يا للروعة، يا جاك ! فلوحتك حسنة التنسيق، غنية وممتعة،

[1] كارل فان لو (1705-1765) المصور الأول للملك ومدير الأكادمية الملكية للتصوير والنحت.

متنوعة ومفعمة بالحركة. فأحمل موضوعك هذا إلى فراغونار[2]، بعد رجوعنا إلى باريس، وسوف ترى ما هو كفيل بأن يصنع منه.
جاك- يسعني، من بعد ما بُحت لي بشأن طول باعك في عالم التصوير، أن أقبل إطراءك من غير أن أغض الطرف.
المعلم- وأراهن على أنها واحدة من مغامرات رئيس الدير هدسون؟
جاك- هذا صحيح."

أيها القارئ، فيما هؤلاء الناس الطيبون يخلدون للنوم، لدي مسألة اقترح عليك مناقشتها ورأسك على مخدتك: وهي ماذا سيكون عليه الطفل المولود من رئيس الدير هدسون ومدام دولابومريه؟
-قد يكون رجلاً شهماً. -وقد يكون نذلاً سامياً -سوف تقول لي ذلك صباح غد.

ها قد جاء ذلك الصباح وافترق مسافرونا، لأن المركيز ديزارسى لم يكن يسلك نفس الطريق التي مضى فيها جاك ومعلمه -سوف نستأنف إذن تتمة غراميات جاك؟ -آمل ذلك. لكن الشيء الأكيد هو أن المعلم عرف كم الوقت وأخذ قبصته من النشوق وقال لجاك: "طيب، يا جاك! أين غرامياتك؟"

وبدلاً من أن يجيب جاك على ذلك السؤال: "أليس شيئاً مزعجاً! فهم يذمّون الحياة من الصباح حتى المساء، ولا يستطيعون عقد العزم على مغادرتها! أيكون السبب أن الحياة الراهنة ليست في محملها بالشيء الرديء، أم أنهم يخشون حياة قادمة أسوأ منها؟

[2] فراغونار (1732-1806) تلميذ بوشيه، تميزت لوحاته بالأسلوب الخليع

المعلم- إنه هذا وداك. لكن بالمناسبة، يا جاك، هل تؤمن بحياة قادمة؟
جاك- لا أؤمن بها ولا أنكرها. فأنا لا أفكّر فيها. إني أتمتع ما وسعني بهذه التي مُنِحْناها كسُلْفة على الإرث.
المعلم- أما أنا فأنظر إلى نفسي كأنني نغفة. ويروقني إقناع نفسي بأن الفراشة أو روحي، التي سيأتي عليها يوم تثقب فيه شرنقتها، سوف تطير إلى العدالة الإلهية.
جاك- إن تصويرك لرائع.
المعلم- ليس لي. فقد قرأته، على ما أظن، لشاعر إيطالي اسمه دانتي، ألّف عملاً اسمه: *ملهاة الجحيم والمطهر والنعيم*.
جاك- يا له من موضوع ملهاة فريد.
المعلم- فيها والله أشياء جميلة، لا سيما جحيمها. فهو يحبس الهراطقة في قبور من نار ينفلت منها اللهيب حتى مسافة بعيدة. ويضع الجاحدين في حجيرات يسكبون فيها دموعاً تتجمّد على وجوههم. والكسالى في حجيرات أخرى. ويقول على هؤلاء إن الدم يتفجّر من عروقهم فتتلقفه ديدان مزرية.. ولكن بأي شأن غضبك المفاجئ من ازدرائنا لحياة نخشى أن تضيع منا؟
جاك- بشأن ما رواه لي سكرتير المركيز ديزارسي عن زوج المرأة الحسناء التي كانت في العربة.
المعلم- هل هي أرملة؟
جاك- لقد فقدت روحتها أثناء سفر قامت به إلى باريس، ولم يكن ذلك الرجل البائس يقبل الإصغاء لكلام على القرابين المقدسة. فجرى تكليف سيدة القصر، التي التقى ريشار بهدسون عندها، بأن تتولى مصالحته مع الطاقيّة.
المعلم- وماذا تقصد بالطاقية؟
جاك- إنها تلك التي توضع على رؤوس الأطفال الحديثي الولادة!
المعلم- فهمت قولك. فكيف فعلَتْ لتلبسه الطاقية؟

جاك- تحلّقوا حول النار. وجسّ الطبيب نبض المريض فوجده منخفضاً جداً، ثم جاء فجلس بجوار الآخرين. فاقتربت السيدة المقصودة من سريره وطرحت عليه عدة أسئلة. لكن من غير أن ترفع صوتها أكثر مما يلزم حتى لا تضيع على ذلك الرجل كلمة واحدة مما كانوا راغبين في إسماعه. ودار الحديث بعدئذٍ بين السيدة والطبيب وبعض الحضور الآخرين وفقاً لما سأقوله لك.

السيدة- وبعد، يا دكتور، هل تقول لنا ما أخبار مدام دوبارم؟

الدكتور- خرجت للتوّ من منزل أكّدوا لي فيه إنها على أسوأ حال، وإن كل أمل أضحى مفقوداً.

السيدة- لقد بقي الورع سمة ظاهرة على تلك الأميرة بصورة دائمة. فما إن شعرت بأنها في حالة خطر، حتى طلبت أن تعترف وأن تتناول القرابين المقدسة.

الدكتور- سيتوجه كاهن سان روك اليوم إلى فرساي حاملاً إليها ذخيرة مقدسة. لكن سيكون الأوان قد فات.

السيدة- ليست مدام انفانت وحيدة في ضرب تلك الأمثلة. فالسيد الدوق دوشفروز، الذي أصيب بمرض شديد، لم ينتظر أن يعرضوا عليه القرابين المقدسة، بل بادر إلى طلبها من تلقاء نفسه: وذلك ما أدخل بهجة كبيرة على أفراد أسرته ..

الدكتور- إن حاله أفضل بكثير.

واحد من الحضور- من المؤكد أن ذلك لا يسبّب الموت، بل العكس.

السيدة- ينبغي في واقع الأمر تلبية تلك الواجبات لدى ظهور أي خطر. ولا يدرك المرضى على ما يبدو، مدى قساوة الأمر على الذين يحيطون بهم، وكم هو ضروري أن يعرضوا عليهم!

الدكتور- قبل يومين، كنت خارجاً من عند مريض فقال لي: "كيف تجدني، يا دكتور؟

-الحمى، يا سيدي، شديدة، والنوبات تتوالى.

-ولكن هل تعتقد أن واحدة ستظهر بعد قليل؟
-كلا، ولكن أخشى فقط أن تأتي هذا المساء.
-أما والحال هذه فسوف أسعى للاتصال برجل لي معه شأن خاص، من أجل أن أضع له حلاً ما دمت محتفظاً بوعيي كاملاً..." فاعترف، وتناول كافة القرابين. وعدت مساء فلم أقع على مضاعفات. بالأمس كانت حاله أفضل. أما اليوم فأضحى خارج نطاق الخطر. ولقد شاهدت مراراً وتكراراً وأنا أمارس مهنتي مثل ذلك الأثر للقرابين.
المريض، يقول لخادمه-ائتني بفرّوجي.
جاك- فقُدّم إليه، فعزم على قطعه فلم يجد لديه القوة. فقطّعوا له الجناح إلى قطع صغيرة. وطلب خبزاً، فتناوله وبذل قصارى جده ليلوك منه لقمة، فلم يقو على بلعها فمجّها في منديله. وطلب نبيذاً نفياً فبلّ به شفتيه وقال: "أجدني في حال أفضل..." أجل، لكنه بعد نصف ساعة قضى نحبه.
المعلم- غير أن تلك السيدة تصرفت على كل حال تصرفاً لائقاً. . وغرامياتك؟
جاك- والشرط الذي قبلت به؟
المعلم- فهمت... استقرّ بك المقام في قصر ديغلان، وقد أمرت الوسيطة المسنّة جان، ابنتها دينيز بأن تزورك أربع مرات يومياً وترعى شؤونك. ولكن قل لي، من قبل أن تواصل، هل كانت دينيز محتفظة بعذريتها؟
جاك- وهو يسعل- أظن ذلك.
المعلم- وأنت؟
جاك- عذريتي أنا كان قد انتهى أمرها منذ زمن طويل.
المعلم- لأن المرء يهوى تلك التي يمنحها إياها، مثلما يكون محبوباً من تلك التي ينالها منها.
جاك- هذا صحيح أحياناً وغير صحيح أحياناً أخرى.

المعلم– وكيف فقدتها؟
جاك– لم أفقدها بل قايضتها مقايضة حقيقية.
المعلم– قل لي شيئاً على تلك المقايضة.
جاك– سيكون ذلك هو الفصل الأول من كتاب القديس لوقا، وسلسلة لا تنتهي من فلانة إلى فلانة[1]، بدءاً من الأولى، وحتى دينيز الأخيرة.
المعلم– التي اعتقدت أنها نالتها والتي لم تنلها البتة.
جاك– ومن قبل دينيز الجارتان الاثنتان عند كوخنا.
المعلم– اللتان اعتقدتا أنهما نالتاها واللتان لم تنالاها البتة.
جاك– كلا.
المعلم– ليس من المهارة في شيء أن يفوّت المرء العذرية على اثنتين.
جاك– هاك، يا معلمي، فأنا أتبيّن من زاوية شفتك اليمنى التي ترتفع، ومن منحرك الأيسر الذي ينكمش، أن من الأفضل أن أقوم بذلك عن طيب خاطر، بدلاً من أُرتحي. لا سيما وأنا أحسّ بألم حلقي يزداد، وأن تتمة غرامياتي ستكون طويلة، وأني لا أجد لديّ الجرأة على أكثر من حكاية صغيرة أو اثنتين.
المعلم– ولو شاء جاك أن يدخل سروراً كبيراً على قلبي .
جاك– فكيف يفعل؟
المعلم– يبدأ بفقد عذريته. أتريدني أن أقولها لك؟ كنت في شوق دائم لسماع حكاية ذلك الحدث العظيم.
جاك– ولم ذاك، من فضلك؟
المعلم– لأنه يظل، بين كافة الأحداث من ذلك النوع، الحدث الوحيد المثير. أما الأخرى فباهتة وتجارب شائعة ومكررة. وأنا على ثقة من أن المعرّف لا يولي انتباهه إلا لهذه، من بين كافة الخطايا التي تسودها حسناء تائبة.
جاك– يا معلمي، يا معلمي، أرى بوضوح أن رأسك قد دبّ فيه الفساد، وأن بوسع الشيطان أن يتراءى لك في ساعة الاحتضار تحت نفس

[1] الإشارة إلى شجرة النسب المذكورة في إنجيل لوقا والتي تنتهي بالسيد المسيح.

الشكل المعترض الذي تراءى فيه لغيراغوسس.

المعلم- ذلك ممكن. لكني أراهن على أنك فقدت براءتك على يد فاجرة عجوز من قريتك.

جاك- لا تراهن، كي لا تخسر.

المعلم- بواسطة خادمة كاهنكم؟

جاك- لا تراهن كي لا تخسر أيضاً.

المعلم- إنها إذن ابنة أخته؟

جاك- تكاد ابنة أخته تلفظ أنفاسها من تعكّر المزاج وشدّة التقوى، وهما صفتان تتلاءمان معاً، لكنهما لا تلائماني.

المعلم- أما هذه المرة فاحسبني وجدتها.

جاك- أما أنا فلا أحسب شيئاً.

المعلم- في يوم المعرض أو يوم السوق...

جاك- ما كان ذلك في يوم معرض ولا في يوم سوق.

المعلم- ذهبت إلى المدينة.

جاك- لم أذهب إلى المدينة.

المعلم- وكان مكتوباً فوق أن تلتقي في إحدى الحانات بمخلوقة ما من تلك المخلوقات المجاملة واللطيفة. وأن تشرب فتثمل...

جاك- كنت بلا فطور. أما ما هو مكتوب فوق فهو أن ترهق نفسك في هذه الساعة بتخمينات مغلوطة. وأنك ستقع في نقيصة شفيتني منها وهي هوس التخمين وبشكل فيه خطل واعوجاج على الدوام. وأنا على ما تراني يا سيدي، جرى تعميدي ذات مرة.

المعلم- إذا كنت عازماً على أن تباشر حكاية فقدان عذريتك، منذ خروجك من جرن المعمودية، فلن نبلغ النهاية قريباً.

جاك- كان لي إذن اشبين واشبينة. إنه المعلم بيْغر، وهو أشهر صانع عربات في القرية، وكان له ولد. كان بيغر الأب اشبيني وبيغر الابن صديقي. ولدى بلوغنا الثامنة عشرة أو التاسعة عشر، وقعنا نحن الاثنين

معاً في هوى خياطة فتيّة اسمها جوستين. ولم تشتهر بأنها قاسية القلب. غير أنها رأت من الملائم أن تتميّز بازدراء أوّلي فوقع اختيارها عليّ.

المعلم- تلك هي إحدى الغرائب لدى النساء، والتي لا تجد لها من تفسير.

جاك- كان مسكن اشبيني، المعلم بيغر صانع العربات، يتألف من دكان وسقيفة. كان سريره في آخر الدكان. أما بيغر الابن، صديقي، فينام على السقيفة، التي يصعدون إليها بسلم صغير موضوع على بعد متساو تقريباً من سرير الأب ومن باب الدكان.

وحين يغرق اشبيني بيغر في نوم عميق، يفتح صديقي بيغر باب الدكان بهدوء، فتصعد جوستين إلى السقيفة بواسطة السلم. وفي اليوم التالي، عند بزوغ الفجر، وقبل أن يستيقظ بيغر الأب، ينزل بيغر الابن من على السقيفة فيفتح الباب، فتمضي جوستين من حيث أتت.

المعلم- لتزور من بعد سقيفة ما، تخصُّها أو تخص شخصاً آخر.

جاك- ولم لا؟ كانت العلاقة بين بيغر وجوستين تسير على أعذب وجه. لكن كان لا بدّ من أن يتعكّر صفوها. فذلك مكتوب فوق. وقد صار.

المعلم- على يد الأب؟

جاك- كلا.

المعلم- على يد الأم؟

جاك- كلا، فالأم قد ماتت.

المعلم- على يد منافس ما؟

جاك- كلا ثم كلا! وحق جميع الأبالسة، كلا! يا معلمي، مكتوب فوق أن تظل هكذا حتى آخر أيامك. فسوف تظل تخمّن طول حياتك، وأكرر قولي لك، إنك ستخمّن على نحو مغلوط.

ذات صباح، كان صديقي بيغر، المتعب أكثر من العادة، إما من عمل الأمس أو من متعة الليل، يخلد للراحة بين ذراعي جوستين، حين سمع صوتاً رهيباً، يصيح به عند أسفل السلم الصغير: "بيغر، يا بيغر! أيها

الكسلان الملعون! قرع الجرس لصلاة السّحر، والساعة تقارب الخامسة والنصف، وأنت ما تزال في سقيفتك! هل قررت البقاء عندك حتى الظهر؟ أم ينبغي أن أصعد إليك لأجعلك تنزل بأسرع مما تريد؟ بيغر، يا بيغر!

–نعم يا أبي؟

–وهذا المحور الذي ينتظره ذلك المزارع العجوز الفظ. هل تريده أن يعود إلى هنا مجدداً ليكرّر مشاحناته؟

–محوره جاهز، وسوف يكون لديه قبل مرور ربع ساعة..."

وأدع لك أن تحكم على مدى الذعر الذي استولى على جوستين وعلى صديقي بيغر الابن.

المعلم– أجزم بأن جوستين قطعت على نفسها عهداً بألا تعود إلى السقيفة أبداً، وأنها رجعت إليها في المساء نفسه. ولكن كيف خرجت منها في ذلك الصباح؟

جاك– إذا ما تهيّا لك أن تخمن فسوف ألوذ بالصمت.. في تلك الأثناء اندفع بيغر الابن هابطاً من السرير، عاري الساقين، يحمل سرواله بيده ويتأبط سترته. وفيما هو يلبس، كان بيغر الأب يجمجم قائلاً: "مذ أن انشغف بتلك الفاجرة الصغيرة، وكل شيء لديه يسير مقلوباً. لا بدّ لذلك أن ينتهي، فلا يمكن له أن يدوم، وأنا بدأت أضيق بالأمر ذرعاً. ألا ليتها كانت فتاة تستحق ذلك العناء، ولكنها مخلوقة! يعلم الله أيّ مخلوقة هي! إيه! لو شاهدت المرحومة المسكينة، التي كان النزاهة ملء إهابها، كل ذلك، لقامت منذ زمن طويل بجلد الأول، واقتلاع عيني الثانية وهي خارجة من القداس، تحت رواق الكنيسة، من غير أن يحول شيء دونها: لكني إذا كنت شديد التساهل حتى الآن، وكانا يظنان أنني سأواصل ذلك، فهما على باطل."

المعلم– وكانت جوستين تسمع تلك الأقوال من السقيفة؟

جاك– لست في شك من ذلك. ومضى بيغر الابن قاصداً بيت المـزارع، حاملاً المحور على كتفه، فيما انكبّ بيغر الأب على عمله. وبعد عـــدة ضربات على إزميله، طلب إليه أنفه قبضة من النشوق. فبحـــث عـن علبة النشوق في جيوبه، ثم قرب سريره، من غير أن يجدها. فقال: "إنه ذلك الملعون، الذي استولى عليها كعادته. هيّا نرَ إن كان تركها فوق .." وها هو يصعد إلى السقيفة. وبعد ذلك بوقت قصير لاحظ فقدان عليوـــه ثم سكينه فصعد إلى السقيفة.

المعلم– وجوستين؟

جاك– لقد جمعت ثيابها على عجل واندستت تحت السرير، حيث كـــانت ترقد منبطحة على بطنها وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

المعلم– وصديقك بيغر الابن؟

جاك– ما إن أوصل المحور فوضعه في مكانه وقبض أجره، حتـــى جـــاء إليّ مسرعاً، ليحيطني علماً بالمأزق الرهيب الذي وقع فيه. وبعد أن تسلّيت بالضحك منه قليلاً، قلتُ له: "اسمع، يا بيغر، امضِ في القرية. تجوّل حيثمـــا يروقك، سوف أخرجك من ورطتك. ولا أطلب إليك سوى شيء واحد، ذلك أن تترك لي الوقت. " أراك تتبسّم، يا سيدي، ماذا هنالك؟

المعلم– لا شيء.

جاك– خرج صديقي بيغر. فارتديت ملابسي، لأني لم أكن نـــهضت بعـــد. ومضيت إلى عند والده، الذي ما إن لمحني، حتى أطلـــق صيحـــة دهشـــة وفرح وقال لي: "طيب، يا فليوني، هذا أنت ! من أين خرجت، وماذا جئـــت تفعل هنا منذ الصباح الباكر؟ .." كان اشبيبي بيغر يحمل لي وداً حقيقياً. لـــذا قلت له بصراحة: "ليست المسألة أن نعرف من أين خرجت، بل كيف أعـــود إلى بيتنا.

–آه منك، يا فليوني، لقد غدوت فاجراً. وإني لأخشى أن تصـــير أنـــت وبيغر فرسيْ رهان. لقد أمضيتَ الليل خارجاً.

–ووالدي لا يذعن للحق في هذا المجال.

-أبوك على حق، يا فليوني، بعدم الإذعان لذلك. لكن لنبدأ بتناول الفطور، فمن شأن الزجاجة أن ترشدنا جادة الصواب."

المعلم- ذلك الرجل، يا جاك، يلترم بالأصول.

جاك- فأجبته أن ليست بي من حاجة للطعام أو الشراب، ولا من رغبة فيهما، وأني أكاد أقع أرضاً من التعب والنعاس. فعقّب بيغر العجوز باستهزاء، وهو الذي ما كان ليتراخى في زمنه أمام صديق ما، قائلاً :"يا فليوني، كانت جميلة وأنت أرهقت نفسك. اسمع: بيغر قد خرج. اصعد إلى السقيفة والق بنفسك على سريره... لكن أصغِ لكلمة مني قبل أن يعود. إنه صديقك. فقل له حين نكونا معاً على انفراد إني مستاء، بل مستاء جداً. فتلك الضئيلة جوستين التي لا بد أن تعرفها (فمن هو العلاّم الذي لا يعرفها في القرية؟) قد أفسدت أخلاقه. وسوف تؤدي لي خدمة حقيقية، إن أبعدته عن تلك المخلوقة. كان يصح القول عليه، فيما مضى إنه فتىً وسيم، ولكن مذ أن بدأت تلك المعرفة المشؤومة غير أنك لا تصغي لكلامي فعيناك أغمضتا. اصعد، امضِ لترتاح.

صعدت فخلعت ملابسي ورفعت الغطاء والشراشف، فتلمّست كل مكان، لكن ليس لجوستين من أثر. كان اشبيني بيغر يقول في تلك الأثناء: "الأولاد ! اللعنة على الأولاد! أليس هذا ولد آخر يصيب أباه بالخيبة؟" أما وجوستين ليست في السرير فقد شككت في أن تكون تحته. كان المكان مظلماً تماماً. فانحنيت وحرّكت يديّ فعثرت على أحد ذراعيها فأمسكت به فسحبتها إليّ. فخرجت من تحت المرقد وهي ترتجف. فقبلتها وطمأنتها وأشرت إليها بأن تستلقي. فضمت يديها وارتمت على قدميّ وتشبثت بركبتيّ. وما كان لي أن أصمد أمام ذلك المشهد الصامت، لو كان هنالك نور. لكن حين لا تبث العتمة الوجل في قلبك فإنّها تجعلك جسوراً. كانت على كل حال مواقف ازدرائها القديمة راسخة في قلبي. وكان ردّي الوحيد عليها أن دفعت بها صوب السلم المؤدي إلى الدكان. فأطلقت صرخة فزع. ففال بيغر وقد سمعها: "إنه

يهذي..." وأغمي على جوستين، فقد خارت ركبتاها دون حملها، وأخذت تقول في هذيانها بصوت خافت: "سوف يأتي... إنه قادم. إني أسمعه يصعد.. لقد قضي عليّ" فأجبتها بصوت خافت: "كلا، كلا، تماسكي، اسكتي وتمدّدي .." وظلت على رفضها، فبقيت حازماً: فرضخت: وها نحن صرنا جنباً إلى جنب.

المعلم- أيها الحائن ! أيها السافل ! أتدري أي جريمة سترتكب؟ سوف تغتصب فتاة، إن لم يكن بالقوة، فبالرعب. ولو أنك لوحقت أمام المحكمة القانونية، لنلت كل العقاب الذي يستحقه المغتصبون.

جاك- لست أدري إن كنت اغتصبتها، لكني أعرف حق المعرفة أني لم أتسبّب لها بأيّ ألم، ولا هي أيضاً حيالي. أشاحت في البداية بفمها عن قبلاتي وهمست في أذني قائلة: "كلا، كلا، يا جاك، كلا .." عند تلك الكلمة تظاهرت بالخروج من السرير لأتوجّه صوب السلّم. فأمسكت بي، وهمست في أذني أيضاً: "ما كنت أحسب قط أنك شرير إلى هذا الحد. وأرى أن لا أتوقع منك أي رحمة، لكن عِدني على الأقل وأقسم لي...

-على ماذا؟

-على أن لا يعرف بيغر شيئاً."

المعلم- فوعدت وأقسمت وسار كل شيء على ما يرام.

جاك- تم على ما يرام أيضا.

المعلم- ثم على نحو رائع جداً أيضاً؟

جاك- إنه تماماً كأنك كنت هنالك. في تلك الأثناء عاد صديقي بيغر إلى عند والده، بعد نفاد صبره وقلقه ونصبه وهو يحوم حول الدار، فقال له بمزاح متعكر: "لقد تأخرت كثيراً من أجل أمر تافه..." فردّ عليه بيغر بمزاج حاد أكثر: "ألم يلزمني تصغير طرفَيّ ذلك المحور الملعون وقد كان ضخماً؟

-نبّهتك إلى ذلك. لكنك لا تتصرف أبداً إلا على هواك.

-ذلك أن الإنفاص منه أكثر يسراً من الزيادة فيه.
-خذ هذا الإطار وامضِ فطرّقه عند الباب.
-ولِمَ عند الباب؟
-لأن وقع المطرقة سيوقظ صديقك جاك.
-جاك!...
-أجل، جاك. إنه يأخذ قسطاً من الراحة فوق، على السقيفة. إيه ! كم الآباء جديرون بالشفقة. إن لم يكن لهذا السبب فلسبب آخر! طيب. هل ستتحرك؟ بدلاً من البقاء كالأبله، خافض الرأس، فاغر الفم، مرخي الذراعين، والعمل في انتظارك .." فاندفع صديقي بيغر ساخطا نحو السلم. لكن اشبيني بيغر أمسك به فقال له: "إلى أين أنت ذاهب؟ دع ذلك الولد المسكين ينام. فقد هدّه التعب. وهل يروقك، لو كنت مكانه، أن يقلق أحد راحتك؟"
المعلم- وكانت جوستين تسمع كل ذلك أيضاً؟
جاك- مثلما تسمعني أنت.
المعلم- وماذا كنت تفعل؟
جاك- كنت أغرق في الضحك.
المعلم- وجوستين؟
جاك- لقد انتزعت قبعتها. كانت تشدّ شعرها، وترفع عينيها إلى السماء، إني أفرض ذلك على أقل تقدير، وتلوي ذراعيها.
المعلم- أنت بربري، يا جاك. أما قلبك فأقسى من الصخر.
جاك- كلا يا سيدي كلا، فأنا على جانب من الحساسية. غير أني أحتفظ بها لمناسبة أفضل. فمبدّدو هذه الثروة أسرفوا في الإنفاق يوم كان عليهم أن يقتصدوا، حتى لم يتبق منها شيء حين توجّب على المرء أن يكون متلافاً... ارتديت ملابسي في تلك الأثناء ونزلت. فقال لي بيغر الأب: "كنت بحاجة لذلك، فعاد عليك بالنفع. حين جئت بدوت في هيئة خارج من القبر. وها أنت الآن نديّ ومتورّد كطفل ارتوى من ثدي أمه. فالنوم

شيء نافع جداً !. يا بيغر، انزل إلى القبو وهات زجاجة، من أجل أن نتناول فطورنا. والآن، يا فليوني، ستفطر عن طيب خاطر؟ -بكل طيبة خاطر .."أُحضرتِ الزجاجة فوُضعت فوق منضدة العمل. ونحن وقوف من حولها. ملأ بيغر الأب كأسه وكأسي، فأزاح بيغر الابن كأسه، قائلاً بلهجة خشنة: "أما أنا، فلست متلهّفاً للشراب منذ الصباح.

-لا تريد أن تشرب؟

-كلا.

-آه. أنا أعرف حقيقة الأمر. خذ، يا فليونى، هناك شيء من جوستين وراء هذا القرار. لابد أن يكون قصدها، فإما أنه لم يجدها، أو أنه باغتها مع آخر. فهذا الحَرد حيال الزجاجة ليس طبيعياً: إنه كما أقول لك. أنا- غير أنك يمكن أن تكون خمّنت الصواب.

بيغر الابن- كفّ عن المزاح، يا جاك، فأنا لا أحبه، ملائماً كان أم غير ملائم.

بيغر الأب- إذا كان لا يريد أن يشرب، فلا ينبغى أن يمنعنا ذلك نحن من أن نشرب. نخب صحتك يا فليوني.

أنا- نخب صحتك يا اشبيني. بيغر، يا صديقي، اشرب معنا. فأنت تكتئب من أجل شيء ضئيل القيمة.

بيغر الابن- قلت لكما إني لن أشرب.

أنا – طيّب، إن كان أبوك أجاد التقدير، فأنت سوف تلقاها، فيوضح كل واحد موقفه، وسوف نعترف بأنك كنت مخطئاً.

بيغر الأب- دعك منه. أليس عدلاً أن تعاقبه تلك المخلوقة على ما يتسبّب لي من عناء؟ هيا، لنشرب كأساً آخر ولننظر في قضيتك أنت. فهمتُ أن عليّ أن آخذك إلى بيت أبيك. لكن ماذا تريدنى أن أقول له؟

أنا- كل ما تريده، وكل ما سمعته يقول لك مئة مرة وهو بعيد اسك إليك.

بيغر الأب- هيا بنا..."

وخرج فتبعته فوصلنا إلى باب بيتنا. فتركته يدخل وحده. ودفعني الفضول لسماع الحديث بين بيغر الأب ووالدي، فاختبأت في زاوية وراء الحاجز بحيث لا تفوتني كلمة واحدة.

بيغر الأب- هلّم، يا شريكي[1]، فسوف تسامحه هذه المرة أيضاً.

-أسامحه، علام؟

-أنت تتجاهل الأمر.

-أنا لا أتجاهله، بل إني أجهله.

-أنت ساخط، ولك الحق في ذلك.

-لست ساخطاً أبداً.

-قلت لك أنت ساخط.

-إن كنت تريدني أن أكون ساخطاً فالأمر يسير. على أن أعرف قبلاً ما فعله من حماقة.

-لا بأس. قد يخطئ ثلاث مرات أو أربع، لكنها ليست مسألة عادة. يلتقون زمرة من الفتيان والفتيات. فيشربون ويهرجون ويمرجون. وتمر الساعات سريعاً. وفي تلك الأثناء ينغلق باب الدار...

وخفض بيغر صوته ليضيف :"إنهم لا يسمعوننا. لكن لنقلها بصدق، هل كنا أعقل منهم ونحن في مثل سنهم؟ أتعرف من هم الآباء الطالحون؟ الآباء الطالحون هم أولئك الذين نسوا أخطاء شبابهم. قل لي، ألم نكن نبيت خارج المنزل قط؟

-وأنت، يا شريكي بيغر، قل لي، ألم نكن نرتبط بعلاقات تثير سخط أهلنا؟

-لذا فأنا أصيح بصوت أعلى بكثير مما أتألم. فافعل مثلي.

-غير أن جاك لم يبت خارج المنزل قطعاً، وفي هذه الليلة على الأقل، وأنا متأكد من ذلك.

-طيب. إن لم تكن هذه فغيرها. ألست على كل حال مغتاظاً من ابنك؟

-كلا.

[1] كلمة تعبر عن المودّة من غير أن تكون بينهما شراكة ما .م.

-ألن توبخه بعد أن أمضي؟

-على الإطلاق.

-أتعطيني وعدك؟

-أعطيك وعدي.

-وهو وعد شرف؟

-أعطيك وعد شرف.

-لقد قلت قولي وها أنا منصرف..."

وحين وصل اشبيني بيغر إلى عتبة المنزل، ربّت والدي قليلاً على كتفه وقال له :"يا صديقي بيغر، أقول لك هنا إن وراء الأكمة ما وراءها، إنّ ابنك وابني لداهيتان ومحتالان. وأخشى أن يكونا اليوم قد خدعانا عامدين. لكن ذلك سيتضح مع مرور الوقت. فوداعاً يا شريكي."

المعلم- وكيف كانت خاتمة المغامرة بين صديقك بيغر وجوستين؟

جاك- كما ينبغي أن تكون. فقد سخط منها فكان سخطها منه أشد. ثم انفجرت باكية فرق لها قلبه. وأقسمتُ له على أني كنت خير صديق له. فأقسمتُ له على أنّها كانت أشرف فتاة في القرية. فصدقنا واعتذر إلينا وازداد حبه وتقديره لنا نحن الاثنين. وتلك كانت بداية الحكاية لفقدان عذريتي، ووسطها وخاتمتها... أما والآن فبودي، يا سيدي، أن تعلمني عن الهدف الأخلاقي لتلك القصة الوقحة.

المعلم- أن نعرف النساء بشكل أفضل.

جاك- وهل كنتَ بحاجة لتلك الأمثولة؟

المعلم- وأن نعرف الأصدقاء بشكل أفضل.

جاك- وهل كنت تحسب أن هنالك واحداً فقط يحمل في قلبه ضغينة لزوجتك أو ابنتك إذا ما نَوتْ أن تهزمه.

المعلم- وأن نعرف الآباء والأبناء بشكل أفضل.

جاك- دعك من ذلك، يا سيدي، فقد كانوا من غابر الزمان وسيظلون أبداً عرضة للخداع، بالتناوب، بعضهم على يد البعض الآخر.

المعلم- إن ما تقدمت بقوله لمن الحقائق الأبدية، لكن لا يسع المرء الإفراط في الإلحاح عليها. ومهما تكن القصة التي وعدتني بها من بعد تلك، فكن على ثقة من أنها لن تكون خالية من التعليم إلا بالنسبة لرجل أحمق. فتابع كلامك."

كان اليوم يوم عرس. فالأخ جان قام بتزويج ابنة أحد جيراننا. وكنت واحداً من القائمين بالحفل. فأجلسوني إلى المائدة بين اثنين من أشهر الساخرين في الأبرشية. وكانت تلوح على وجهي سمات غبيّ كبير. رغم أني لم أكن على درجة الغباء التي ظناها. فطرحا عليّ بضعة أسئلة حول ليلة العروس. فرددت بأجوبة فيها الكثير من العباء، وها هما ينفجران مقهقهين، وصاحت زوجتا هذين الساخرين من الطرف الآخر: "ولكن ماذا دهاكم؟ أنتم مغتبطون جداً هناك؟ فرد أحد الزوجين قائلاً لامرأته : إن الأمر لمضحك إلى حد الإفراط. ولسوف أقصّ عليك ذلك هذه الليلة. وألقت الأخرى، التي لم تكن أقل فضولاً، نفس السؤال على زوجها فردّ عليها بنفس الجواب. واستمرّ تناول الطعام، وتوالت الأسئلة تصحبها بلاهاتي فتثير ضحكاً صاخباً وعجب النساء. وتلا الطعام الرقص. وبعد الرقص نوم الأزواج، وهبة ربطة الساق، ورقدت في سريري،وصاحبانا الساخران في سريرهما وكل واحد يقصّ على زوجته الشيء الذي لا يفهم ولا يصدّق، ذلك أني وأنا في الثانية والعشرين ، وطويل القامة وقوي على نحو ما كنته، وذو وجه لا بأس به، ورشيق الحركة وغير غبي، كنت نقياً، بل نقياً وبريئاً كأني خارج لتوّي من بطن أمي، فتبدي المرأتان عجبهما العجاب وزوجاهما كذلك. لكن منذ اليوم التالي، أومأت لي سوزان وقالت: "يا جاك، أليس هناك ما يشغلك؟

-كلا، أيتها الجارة. فأية خدمة أسديها لك؟

-أودّ .. أودّ..." وفيما هي تقول أودّ أخذت تشدّ على يدي وترمقني بطريقة فريده. "أودّ أن تأخذ المشذب وتأتي إلى أراضي البلدة لتساعدني على قطع رزمتين أو ثلاث، فهو عمل شاق جداً عليّ وحدي."

-بكل طيبة خاطر، يا مدام سوزان."

أخذت المشذب ومضينا. كانت سوزان على الطريق ترخي برأسها على كتفي وتمسكني من ذقني وتشدني من أذنيّ وتقرصني في خاصرتيّ. ووصلنا. كان الموقع منحدراً. استلقت سوزان على الأرض بطولها في المكان الأعلى، مباعدة رجليها إحداهما عن الأخرى وواضعة ذراعيها تحت رأسها. كنت في الأسفل منها ألهو بالمشذب على الأخلاف[1]، فثنت سوزان ساقيها وقرّبت عقبيهما من ردفيها. فجعلت ركبتاها المرفوعتان تنورتها الداخلية قصيرة جداً، وأنا مستمر بالعبث بالمشذب من غير أن أنظر أبداً إلى أين أوجه ضرباني، وأضرب في الغالب مُطْرِفاً. أخيراً قالت لي سوزان :"يا جاك، ألن تنتهي بعد قليل؟..." فأجبتها: "حينما تريدين، يا مدام سوزان." فقالت بصوت خافت:

-ألا ترى أني أريدك أن تنتهي؟..

فانتهيت. والتقطت أنفاسي. ثم انتهيت أيضاً، وسوزان.

المعلم- انتزعت منك بكارتك التي لم تكن لديك.

جاك- ذلك صحيح. غير أن سوزان لم تنخدع بذلك، فابتسمت وقالت لي:

"لقد أوقعتَ رجلنا في وهم كبير، وإنك لمحتال.

-ماذا تقصدين أن تقولي، يا مدام سوزان؟

-لا شيء، لا شيء، فأنت تفهمني على كل حال. اخدعني أحياناً على ذلك النحو، فأنا أسامحك. ."

وربطت الرزم وحملتها على ظهري وعدنا أدراجنا، هي إلى بيتها وأنا إلى بيتنا.

[1] فراخ تمت في حرجة على أرومات الأشجار المقطوعة. TAILLIS

المعلم- من غير القيام بوقفة على الطريق؟

جاك- كلا.

المعلم- لم تكن المسافة بعيدة إذن ما بين أراضي البلدة والقرية؟

جاك- ليست أبعد مما بين القرية وأراضي البلدة.

المعلم- لم تساوِ المسألة أكثر من ذلك؟

جاك- قد تساوي أكثر بالنسبة لشخص آخر، وليوم آخر: فكل لحظة لها ثمنها."

بعد ذلك بفترة قصيرة، كان لدى السيدة مرغريت، وهي زوجة المستهزئ الثاني، شيئاً من القمح لنطحنه، ولا وقت لديها للذهاب إلى الطاحون. فجاءت تطلب من والدي ليقوم أحد أبنائه بذلك بدلا عنها. ولما كنت أنا الأكبر، فلم يخامرها أي شك في أن الاختيار سيقع علي، وذلك ما قد حصل. وخرجت السيدة مرغريت فتبعتها. فحملت الكيس على حمارها وقدته وحدي إلى الطاحون. وها قد طُحن الحب، فعدنا من هنالك، أنا والحمار، مكتئبين، لأني ظننت أني سأنال مكافأة على سخرتي. لكني كنت مخطئاً. وكان بين القرية والطاحون حرج صغير لا بد من عبوره. فوقعت عيني فيه على السيدة مرغريت جالسة على حافة الطريق. والنهار آل إلى المغيب. فقالت لي: "ها أنت أخيراً، يا جاك! أتدري أني منذ أكثر من ساعة مُضنْية وأنا أنتظرك؟. "

أيها القارئ، أنت مفرط في محاسبتك. صحيح أن الساعة المضنية وقف على سيدات المدينة، والساعة الطويلة من قول السيدة مرغريت.

جاك- ذلك أن الماء هابط، فالطاحون تدور ببطء والطحان مخمور، وأياً كانت الهمّة التي بذلتها، فأنا لم أستطع العودة أبكر.

مرغريت– تعال اجلس نتحدّث قليلاً.

جاك– بكل طيبة خاطر، يا مدام مرغريت...

وها أنا أجلس إلى جوارها لنتحدث إلا أننا لزمنا الصمت نحن الاثنين. عندئذٍ قلت لها: "ولكن أنت، يا مدام مرغريت، لا تقولين لي من كلمة، فنحن لا نتحدث.

مرغريت– ذلك أني أتفكّر فيما قاله لي زوجي عليك.

جاك– لا تصدقي شيئاً مما قاله لك زوجك. فهو متهكّم.

مرغريت– قال لي إنك لم تعشق قط.

جاك– آه، أما عن ذلك فقال الحق.

مرغريت– ماذا ! ولا مرة في حياتك؟

جاك– ولا مرة.

مرغريت– وكيف لا تعرف، وأنت في سنك، ما المرأة؟

جاك– معذرة، يا مدام مرغريت؟

مرغريت– فما هي المرأة؟

جاك–المرأة؟

مرغريت– بلى، المرأة.

جاك– المرأة .. رويدك.. إنها رجل له تنورة وقبعة ذات زوايا وثديان كبيران.

المعلم– إيه، يا لك من لص!

جاك– ذلك أن الأخرى لم تخطئ الظن، وكان في نيتي لهذه أن تخطئ. فانفجرت مدام مرغريت بضحكة مجلجلة، لدى سماعها جوابي، حتى لم تعرف كيف تنتهي منها. بينما سألتها أنا بذهول، عمّا دعاها لأن تضحك هكذا. فقالت لي السيدة مرغريت إنها تضحك من بساطتي ."كيف ذلك، فأنت كبير جداً ولا تعرف أكثر؟

بعدئذٍ سكتت السيدة مرغريت وأنا أيضاً. فقلت لها مجدداً: "يا مدام مرعريت، جلسنا لنتحدث، وها أنت لا تتفوهين بكلمة ونحن لا نتحدث. يا مدام مرغريت، ما بك؟ فأنت تحلمين.

مرغريت- أجل، أنا أحلم.. أحلم... أحلم ."

وفيما هي تنطق بتلك الـ"أنا احلم" المتكرّرة، أخذ صدرها يعلو ويهبط وصوتها يخفت وأطرافها ترتجف وعيناها تغربان. وكان فمها نصف مفتوح. وأطلقت زفرة عميقة، فتراخت، فتظاهرتُ أن ظننتها ماتت فأخذت أصيح بصوت مرتاع :"مدام مرغريت ! مدام مرغريت ! كلميني ! مدام مرغريت، هل أنت على غير ما يرام؟

مرغريت- كلا، كلا يا ولدي. دعني أرتاح قليلاً . لست أدري ما اعتراني... جاءني ذلك على نحو مباغت.

المعلم- كانت تكذب.

جاك- بلى، كانت تكذب.

مرغريت- ذلك أني أحلم.

جاك- وهل تحلمين كذلك ليلاً، وأنت بجوار زوجك؟

مرغريت- أحياناً.

جاك- لا بد أن يفزعه ذلك.

مرغريت- لقد تعوّد...

عادت مرغريت من غشيانها شيئاً فشيئاً، فقالت: "كنت أحلم كيف أن زوجي وزوج سوزان سخرا منك في العرس، قبل أسبوع. وقد أحزنني ذلك، فانتابني ما لا أدري كيف.

جاك- أنت طيبة للغاية.

مرغريت- لا أحب الاستهزاء. وفكرت في أنهما سيعاودان الكرّة وأكثر في أول فرصة سانحة، وسوف يغيظني ذلك مجدداً.

جاك- غير أن الأمر متوقف عليك حتى لا يغيظك ذلك مجدداً.

مرغريت- وكيف؟

جاك- بتعليمي.

مرغريت- ماذا؟

جاك- ما أجهله، وما أضحك زوجك وزوج سوزان كثيراً، فلا يعودان يسخران من بعد.

مرغريت- آه، كلا، كلا. فأنا أعرف أنك ولد طيب وأنك لن تقول لأحد. إلا أني لا أجرؤ.

جاك- ولماذا؟

مرغريت- ذلك أني لا أجرؤ.

جاك- إيه، يا مدام مرغريت. علميني، أرجوك. سأكون في غاية الامتنان لك، علّمبني..." وفيما أنا أتوسل إليها على ذلك النحو أخذت أشُدّ على يديها فتشد على يديّ أيضاً. فأقبلها على عينيها فتقبلني على فمي. وحل الليل تماماً في تلك الأثناء. فقلت لها: "أرى بوضوح، يا مدام مرغريت، أنك لا تريدين تقديم نفع لي فتعلميني. وأنا حزين جداً بسبب ذلك. فهيا ننهض لنعود . " وسكتت السيدة مرغريت، لكنها أخذت إحدى يدي، وذهبت بها لست أدري إلى أين، لكن الواقع أني هتفت قائلا: "لا شيء هنا! لا شيء هنا!"

المعلم- يا لك من فاسق. أنت فاسق وفاجر!

جاك- وواقع الأمر أنها خلعت الكثير من ملابسها وفعلت مثلها وأكثر أيضاً. وواقع الأمر أن يدي ظلت حيث لا شيء لديها، وأنها وضعت يدها حيث لم يكن الحال مماثلاً تماماً لديّ. وواقع الأمر أني وجدت نفسي تحتها وبالتالي فهي فوقي. وواقع الأمر أنه لزمها أن تتكبد كل العناء، لأنه ليس ما يخفف العناء عنها. وواقع الأمر أنها انصرفت إلى تعليمي بنوع من الإخلاص، خشيت معه لبرهة أن تلفظ أنفاسها. وواقع

الأمر أني كنت على اضطراب مثلها، ومن غير أن أدري مـــا أقــول، هتفت: "إيه، يا مدام سوزان، كم متّعتني!"

المعلم- قصدت أن تقوم مدام مرغريت.

جاك- كلا، كلا. فواقع الأمر أني نطقت بآخر بدلاً من آخر، فبدلاً مـــن أن أقول مدام مرغريت قلت مدام سوزان. وواقع الأمر أني بحت للسيدة مرغريت بأن ما ظنّنت أنها تعلمني إياه في ذلك النهار، قد علمتني إيـــاه السيدة سوزان، بشكل مختلف قليلاً في الحقيقة، قبل ثلاثة أيام أو أربعـة. وواقع الأمر أنها قالت لي: "ماذا! إنها سوزان ولست أنـــا؟.. " وواقـــع الأمر أني أجبتها: "لا أنت ولا هي." وواقع الأمر أنها، وهي تسخر مـــن نفسها، ومن سوزان، ومن الزوجيـــن، وتوجـــه إلـــي بعـــض الشـــتائم الصغيرة، وجدت نفسي فوقها وبالتالي هي تحتي، وفيما كانت تقول لـــي إن ذلك ممتع لها، لكن ليس كالطريقة الأخرى، وجدت نفســـــها فوقـــي وبالتالي أنا تحتها. وواقع الأمر أنه بعد فترة من الراحة والصمت، لـــم أجدني وهي تحت وأنا فوق، ولا هي فوق وأنا تحت. ذلك أننا كنا كلينـــا على الجنب. فرأسها مائل إلى أمام وردفاها لاصقان بفخـــذيّ. وواقـــع الأمر أني لو كنت أقل علماً، لكانت السيدة مرغريـــت الطيبـــة فمينـــة بتعليمي كل ما يمكن تعليمه. وواقع الأمر أننا لاقينا عنـــاء فـــي بلـــوغ القرية. وواقع الأمر أن ألم حلقي ازداد كثيراً، وأن الظاهر أني لن أقوى على الكلام قبل خمسة عشر يوماً.

المعلم- وما عدت رأيت هاتين المرأتين؟

جاك- رحماك، بل أكثر من مرة.

المعلم- الاثنتين معاً؟

جاك- الاثنتين معاً.

المعلم- ولم تتخاصما؟

جاك- إن ضرورة كل منهما للأخرى جعلتهما متحابتين أكثر.

المعلم- كان من شأن اللواتي عندنا أن يفعلن مثل ذلك، لكن كل عشيقة مع عشيقها. . أراك تضحك.

جاك- كلما تذكّرت الرجل القصير صارخاً، شاتماً، يرغي ويتخبّط برأسه ويديه ورجليه وجسمه كله، ويهمّ بإلقاء نفسه من أعلى أكداس القش، معرّضاً نفسه للموت، لا أتمالك نفسي من الإغراق في الضحك.

المعلم- ومن هو ذلك الرجل القصير؟ هل هو زوج السيدة سوزان؟

جاك- كلا.

المعلم- روح السيدة مرغريت؟

جاك- كلا... الحال هي نفسها دائماً: سترافقه ما دام حيا.

المعلم- إذن، من هو؟

لم يرد جاك على ذلك السؤال، فأضاف المعلم قائلاً:

-قل لي فقط من هو الرجل القصير.

جاك- كان ولد صغير جالساً ذات يوم، عند أسفل مبسط في دكان بائعة بياضات، وهو يصرخ بأعلى صوته. وضاقت البائعة ذرعاً بصراخه فقالت له: "لمَ تصرخ، يا صديقي؟

-لأنهم يريدون مني أن أقول ألفْ.

-ولم لا تريد أن تقول ألف؟

-لأني ما إن أقول ألفْ حتى يطلبوا مني أن أقول باء..."

وأنا لا أكاد أقول لك اسم الرجل القصير، حتى ينبغي أن أقول لك كل ما تبقى.

المعلم- ربما.

جاك- بل ذلك أكيد.

المعلم- هيا، يا صديقي جاك، قل لي اسم الرجل القصير. فأنت تموت شوقاً لذلك، أليس صحيحاً؟ خفّف عن نفسك.

جاك- كان أشبه بقزم أحدب متجمع على نفسه، عييّ، أعور، غيور، فاسق، عاشق لسوزان وربما كانت تهواه. إنه كاهن القرية.

كان جاك يشبه ابن بائعة البياضات، مثلما تتشابه قطرتان من الماء، مع الفارق في أنه مذ أصيب بألم في حلقه، أضحى من المشقّة جعله يقول ألف، لكن ما إن ينطلق حتى يمضي فيها من تلقاء نفسه حتى نهاية الأبجدية.

جاك- كنت في مستودع القش عند سوزان جالساً وحدي معها.

المعلم- ولم تكن هنالك هكذا؟

جاك- كلا. حين وصل الكاهن فتعكّر مزاجه وأخذ يجمجم، ويسأل سوزان بتسلط عمّ كانت تفعله في خلوة مع أكثر أبناء القرية فسقاً في أبعد مكان من الدار.

المعلم- ها قد صرت ذائع الصيت على ما أرى.

جاك- وذائعه عن جدارة. كان ساخطاً حقاً. فزاد على ما قاله، كلاماً لا يقل فظاظة. فاستبدّ بي الغضب. فتبادلنا الشتائم فتماسكنا. فقبضت على مذراة فأدخلها بين ساقيه، وحملته بها حتى أعلى الأكداس، مثل رزمة قش تماماً، بلا زيادة ولا نقصان.

المعلم- وكانت الأكداس عالية؟

جاك- لا تقل عن عشرة أقدام. ولو عامر الرجل القصير بالنزول لدُقّت عنقه.

المعلم- وبعد؟

جاك- أما بعد فأزحت وشاح سوزان فكشفت عن نحرها وصرت ألاطفها وهي تدافعني. وكانت هنالك بردعة حمار، راحتها مألوفة لدينا. فدفعت سوزان فوقها.

المعلم- ورفعت تنورتها؟

جاك- رفعت تنورتها.

المعلم- والكاهن يرى ذلك؟

جاك-مثلما أراك.

المعلم- وظلّ ساكتاً؟

جاك- كلا، من فضلك. ولم يكتف بالغضب فشرع يصرخ: "هلمّ..لمّوا... إلى... الجر...يمة! إلى الحر... حريـ... حريق!... الحرا... را... حرامي! .." وها هو الزوج الذي ظنناه بعيداً يقبل مسرعاً.

المعلم- لقد انزعجت: فأنا لا أحب الكهنة.

جاك- وكنت ستطرب بأني على مرأى من هذا الأخير...

المعلم- أوافقك الرأي.

جاك- وجدت سوزان الوقت الكافي للنهوض، فأصلحت أنا من شأني ووليت هارباً. وسوزان هي التي قصّت علي ما جرى من بعد. رأى الزوج الكاهن معلّقاً فوق أكداس القش فأغرق في الضحك. فقال له الكاهن :"إضحـ ..حك... اضحك جيداً.. يا... يا أحـ... أحمق يا أحمق.. " ويطيعه الزوج فيقهقه أكثر فأكثر. ثم يسأله عن الذي علّقه فوق- الكاهن :"ضع... ضـع... ضعنـي علـى الأر... أر .. أرض." فيضحك الزوج أكثر فأكثر ويسأله كيف عليه أن يفعل – الكاهن :"مثل .. مثل... مثلما أنا. صعـ... صعدت .. بالـ... بالمذ... مذراة... – قسماً إنك لعلى حق. وتلك هي منافع التعلّم . " وأخذ الزوج المدراة، فرفعها إلى الكاهن. فامتطاها هذا على نحو ما فعلت به من قبل. فدار به الزوج دورة أو اثنتين داخل المستودع وهو على طرف المذراة، مصاحباً دورانه بغناء وهتاف، فيما الكاهن يصيح: "أنز. أنز .. لني. . يا... يا... حقـ... حقير. ،. ألن... ألن. . تنز... تنز... لني؟..." فيقول له الروج: "ماذا يمنعني، يا حضرة الكاهن، من أن أدور بك، وأنت على هدا النحو، في كافة شوارع القرية؟ فلم يَرَ أحد من قبل مثل هذا الزيّاح الجميل." غير أن الكاهن لم يعانِ إلا من الخوف، ثم أنزله الزوج على

الأرض. ولا أدري ما قاله للزوج عندئذٍ، لأن سوزان ولّت مدبرة. لكني سمعت: "با... يا شقي! . .أنت... أنت . تضـ ..تضـ ..تضـرب... كا... كا... كاهنا!... سو... سو... سوف . أحـ... أحـ... أحرمـك، سو . سوف .. تهـ... تهـ... تهلك..." كان الرجل القصير يتكلم. فيما الزوج يوسعه ضرباً ويطارده بالمذراة. ووصلت مَع عدة آخرين. وحين رآني الزوج من بعيد، وضع المذراة جانباً وقال لي: "تعال، تعال"

المعلم- وسوزان؟

جاك- تخلّصت.

المعلم- بشكل سيئ؟

جاك- كلا، فالنساء يُحسِنَّ التخلّص دائماً، حين لا يباغتهن أحد بـالجرم المشهود. .

ممَّ تضحك؟

المعلم- مما سيضحكني، كما سيضحكك أنت، كلمـا تذكّـرت الكـاهن القصير محمولاً على طرف مذراة الزوج.

جاك- بعد فترة قصيرة من تلك المغامرة، التي بلغـت مسـامع أبـي فضحك منها كثيراً، تطوّعت في الجيش على نحو ما أخبرتك.. "

بعد فترة سادها الصمت، أو سعال جاك كما يقول البعض، أو بعـد مزيد من الضحك، كما يقول البعض الآخر، نوحه المعلـم إلـى جـاك يسأله: "وقصة غرامياتك؟" فهزّ جاك رأسه ولم يجب.

كيف لرجل ذي حس سليم وأخلاق حميدة، ويتباهى بالإلمام بالفلسفة، أن يتلهى فيهرب بحكايات فاحشة هكذا؟ -أيها القارئ، تلك أولاً، ليسـت بحكايات، إنها قصّة، ولا أشعر أنّي مذنب، وأنا أروي حماقات جـاك،

أكثر من سويتون، بل قد أكون أقل منه وهو ينقل إلينا حكايات فجور تيبيريوس. ومع ذلك فأنت تقرأ سويتون من غير أن تتوجه إليه بأيّ ملامة. فلم لا تعقد الحاجبين حيال كاتول ومارسيال وهوراس وجوفينال[1]، وبيترون ولافونتين وكثيرين غيرهم؟ لِمَ لا تقول للرواقي سينيكا: "ما حاجتنا لفسق عبدك ذي المرايا المقعّرة؟" ولم لا تبدي تساهلا إلا حيال الموتى؟ وإذا ما تفكّرت قليلاً في ذلك الانحياز، رأيت أنه ناشئ عن مبدأ معيب. فإن كنت بريئاً فلن تقرأني. وإن كنت منحلاً فسوف تقرأني دونما أهمية. أما إذا كان ما قلته لك لا يرضيك، فافتح مقدمة جان باتيست روسو لتعثر فيها على إطرائي. هل فيكم من تجرّأ على لوم فولتير لأنه ألّف"البكر"؟ لا أحد. لديكم إذن ميزانان لمعايرة أفعال البشر؟ سوف تقولون :"غير أن "البكر" رائعة من روائع فولتير!" –ما الهمّ، ما دام سيُقرأ أكثر فأكثر –أما كتابك "جاك" فليس سوى لُمامة باهتة من الأفعال، بعضها واقعي والبعض الآخر خيالي، مكتوبة من غير رونق، وموزعة من غير تنسيق –لا ضير في ذلك، فكتابي "جاك" لن يُقرأ إلا قليلاً. وأياً كان الجانب الذي تستديرون صوبه فأنتم على خطأ. إن يكن مؤلّفي حسناً فسوف يمتعكم. وإن يكن رديئاً فلن يصيبكم بأدنى سوء. فليس من كتاب أكثر براءة من كتاب رديء. وأنا ألهو بأن أكتب الحماقات التي ترتكبونها تحت أسماء مستعارة. فحماقاتكم تضحكني. وكتابتي تعكر مزاجكم. أما إذا تكلمت بصراحة معك، أيها القارئ، فأرى أني لست الأسوأ من بيننا، نحن الاثنين. وأني ساكون راضياً لو كان يسيراً عليّ ضمان حمايتي من قبائحكم، على قدر ما هي يسيرة حمايتكم مما قد يتسبب لكم مؤلّفي من سأم أو خطر ! أيها المراؤون البشعون، دعوني وشأني. تناكحوا مثل حمير شاردة. لكن اسمحوا لي بأن أقول لكم نـ...ح. سلمتكم الفعل فسلّموني الكلمة. فأنتم تقولون بكل جرأة : قتل، سرق، خدع، أما الآخر فلا تجرؤون على النطق به إلا

[1] من الشعراء اللاتين وقد كتبوا هجائيات ونقديات وقصائد ملحمية أما لافونتين فكاتب حكايات من القرن السابع عشر (1621-1695).

جمجمة بين أسنانكم؟ أليس أنكم كلما تذمّرتم مما تزعمون أنــــه أقــوال دنسة، ظلّت تلازمكم في أفكاركم؟ وبم يسيء الفعل التناسلي إليكم، وهــو الفعل الطبيعي جداً والضروري جداً والأكثر إنصافاً، فتستبعدون الإشارة إليه في أحاديثكم وتتوّهمون أن فمكم وعيونكم وآذانكم أضحــت نجســة منه؟ من النافع للعبارات الأقل استخداماً، والأقل كتابة، والمحاطة بــأكثر الكتمان، أن تكون الأكثر معرفة والأكثر تفهّماً. ذلك ينبغي أن يكـــون. أليست كلمة "ن. ك. ح."[1] أقل شيوعاً من كلمة خَبز، وليس مـــن ســـنّ يجهلها أو من اصطلاح تعبيري خالٍ منها ! إن لها آلاف المرادفات فـــي كافة اللغات، وهي متضمنة في كل منها من غير أن تنطق بها، أي بـــلا صوت ولا شكل، أما الجنس الأكثر استخداماً لها فقــد تعــود أن يلفّــها بالكتمان أكثر. وها أنا أسمعكم وأنتم تصيحون: "تبّاً لـــه، مـــن بـــذيء اللسان! تبّاً له من وقح! تباً له من سفسطائي.. " عوفيتم. هيـــا اشـــنموا كاتباً تقدّرونه، وهو بين أيديكم على الدوام، وما أنا هنا سوى مترجم له. فإباحيه أسلوبه بالنسبة لـــــي بمقـــام ضـــامن لطـــهارة أخلاقـــه. إنـــه مونتيني.Lascıva est nobıs pagina,vita proba.[2]

أمضى جاك ومعلمه تالية النهار من غير أن ينبسا ببنت شفة. كـــان جاك يسعل فيقول معلمه: "ذلك السعال عنيف!" فينظر إلى ساعته مـــن غير أن يعرف كم الوقت، ويفتح عليه نشوقه وهو في غفلة من أمـــره، فيتناول قبصة من النشوق من غير أن يستنشقها. أما دليلي علـــى ذلــك فهو أنه كان يؤدي تلك الأفعال ثلاث أو أربع مـــرات متواليـــة ضمـــن النسق نفسه. ويسعل جاك مجدداً بعد هنيهة فيقول معلمـــه: "أي إبليـــس يتسبّب بهذا السعال. ذلك أنك ظللت تكرع من نبيـــذ المضيفـــة حتـــى الامتلاء. ولم تدارِ حالك أكثر، مساء أمس، وأنت بصحبة السكرتير. فقد صعدت وأنت تترنح من غير أن تدري ما كنت تقوله . أما اليوم فقمت

[1] باللاتينية في النص الفرسي FUTUO

[2] من أقوال مارسيال في قصائده الهجائية: صحيفتي خليعة أما حياتي فطاهرة.

بعشر وقفات وأراهن على أنه لم يبق من قطرة نبيذ واحدة في قربتك..."
ثم جمجم بين أسنانه ونظر إلى ساعته وألقم منحريه.

فاتني أن أقول لك، أيها القارئ، إن جاك ما كان ليمضي قط إلا وقربته ملأى بأفخر نبيذ. ويحملها معلقة بخطّاف سرجه. وكلما قطع معلمه عليه قصته بسؤال طويل بعض الشيء، كان ينتزع قربته ليتناول جرعة زرنقة، فلا يعيدها إلى مكانها إلا حين يكف معلمه عن الكلام. كما فاتني أيضاً أن أقول لك، إن حركة جاك الأولى، في الحالات التي تتطلب التفكير، كانت في استجواب قربته. فإذ لزم حسمُ مسألة أخلاقية، او مناقشة حدث ما، أو تفضيل درب على درب آخر، أو مباشرة مسعى ما أو ملاحقته أو التخلّي عنه، أو الموازنة بين المحاسن والمساوئ لعملية سياسية أو مضاربة تجارية أو مالية، وبيان الحكمة لقانون ما أو خطله، أو التنبؤ بنهاية حرب، أو اختيار نزل ما، واختيار شقة داخل النزل، واختيار سرير داخل الشقة، فتكون كلمته الأولى: "لنستجوب القربة". أما كلمته الأخيرة فهي: "ذلكم هو رأي القربة ورأيي." وحين يلوذ القدر بالصمت داخل رأسه، يتكلّم عبر قربته، فهي أشبه بدلفية[1] محمولة، تلوذ بالصمت حين تفرغ. كانت الدلفية، في معبد دلف، تقعد مشمورة الثياب، عارية العجيزة على ركيزة المعبد. فتتلقى الوحي من الأسفل إلى الأعلى. أما جاك، وهو على ظهر حصانه رافعاً رأسه إلى السماء، وقربته مفتوحة وعنقها مائل باتجاه فمه، فيتلقى وحيه من أعلى إلى أسفل. وحين تنطق الدلفية وينطق جاك بنبوءاتهما، يكون الاثنان ثملين. وكان يدّعي أن الروح القدس نزل على التلاميذ في قربة. فيطلق على عيد العنصرة اسم عيد القِرَب. ولقد ترك بحثاً صغيراً حول كافة أشكال التّنبوءات، وهو بحث عميق يذكر فيه تفضيله لتنبؤ الزقّ (البقبوق BAKBUC) أو تنبؤ القربة. ورغم كل ما نحمل من تبجيل لكاهن مودون، فقد أخذ عليه أنه كان يستجوب البقبوق الإلهي بإحداث

[1] كاهنة، تخترع المعجزات وتتنبأ باسم أبولون في معبد دلف الإغريقي الشهير .م.

صدمة على بطنه. فيقول: "إنّي أحب رابليه، لكني أحب الحقيقة أكثر من رابليه." فيدعوه بالمهرطق المقماق[1]. ويتقدم بمئات البراهين، التي يفضل بعضها البعض الآخر، على أن تنبؤات البقبوق أو القربة الحقيقية، لا يمكن أن تُسمع إلاّ عبر العنق. ويحصي ضمن أشياع البقبوق المتميّزين عدداً من ملهمي القربة الحقيقيين في القرون الأخيرة. منهم رابليه ولافار وشابيل وشوليو ولافونتين وموليير وبانا وغاليه وفاديه. أما أفلاطون وجان جاك روسو اللذان أطريا النبيذ الفاخر من غير أن يشرباه، فهما في رأيه من أخوان القربة المغلوطين. وكان للقربة فيما مضى بعض المعابد المشهورة. مثل معبد كوز الصنوبر ومعبد الحانة الريفية. ويكتب تاريخ تلك المعابد بشكل منفصل. ثم يصوّر أروع تصوير الحماس والحرارة واللهيب التي كانت وما تزال في أيامنا تعتمل في صدور أنصار البقبوق أو القربة، وذلك حين يكونون جلوساً ومرافقهم على الموائد لدى انتهاء الطعام، وهم بانتظار أن يظهر لهم البقبوق أو القربة المقدسة، فتأتي لتوضع في وسطهم فتصغر وترمي بغطائها بعيداً عنها لتُفيض على عابديها زبدها التنبؤي. ويزين مخطوطه بصورتين نقرأ تحتهما: *أنا كريون ورابليه، واحد بين القدماء والآخر بين المحدثين، وكل منهما هو الحبر الأعظم للقربة*.

سوف تضيف قائلاً، إن ذلك كله حسن، ولكن ماذا عن غراميات جاك؟

-أما عن غراميات جاك، فليس من يعرفها سوى جاك نفسه. وها إن ألم حلقه يقصر نشاط معلمه على ساعته وعلبة نشوفه. وذلك عوز يشجيه على قدر ما يشجيك-إلى أين إذن نحن صائرون؟ -أقسم على أني لا أعرف عن الأمر شيئاً. وكان من المناسب هنا أن نسأل البقبوق أو القربة المقدسة. لكن شعائرها سقطت، وأضحت معابدها مقفرة. وعلى ذلك توقّفت نبوءات الوثنية مع ميلاد مخلصنا الإلهي. وعند وفاة غاليه

[1] المقماق: الذي يتكلم من بطنه.

أضحت نبوءات البقبوق صامتة. وعليه لم يعد من وجود لتلك القصائد العظمى، ولا تلك القطع الأدبية ذات الفصاحة السامية، ولا تلك المنتجات المطبوعة بزاوية النشوة والعبقرية. فكل شيء مدروس ومتكلّف وأكاديمي وسطحي. يا للبقبوق! يا للقربة المقدسة ! يا للآلهة جاك! عودي وحلّي بيننا!... وتتولاني الرغبة، أيها القارئ في أن أحدثك عن مولد البقبوق المحبوب والمعجزات التي رافقته والتي تلته، وعن روائع عهده ونكبات اعتكافه. وإذا كان ألم الحلق الذي يعاني منه صديقنا جاك سيطول، فينبغي أن ترضى بتلك الواقعة، التي آمل أن أطيل فيها لحين شفاء جاك واستئنافه قصة غرامياته

نقع هنا على ثغرة مؤسفة حقاً في الحديث بين جاك ومعلمه. وقد يأتي ذات يوم واحد من سلالة نودو، أو الرئيس دوبروس، أو فرينتسيميوس أو الأب بروتيه، فيتولى ملأها: أما أحفاد جاك أو أحفاد معلمه، وهم مالكو المخطوط فسوف يضحكون من ذلك كثيراً.

يبدو أن جاك المرغم على التزام الصمت بسبب ألم حلقه، قد علّق قصة غرامياته. وأن معلمه باشر بسرد قصة غرامياته هو. وليس ذلك سوى تخمين أسوقه لما يصلح له. فبعد بضعة أسطر منقّطة تشير إلى الثغرة، نقرأ ما يلي: "ليس من محزن في هذا العالم، يفوق الحزن في أن يكون المرء أحمق..." فهل هو جاك الذي يتفوّه بهذا القول المأثور؟ هل هو معلمه؟ قد يصلح ذلك موضوعا لمبحث طويل وشائك. ولو كان جاك على درجة من الوقاحة لتوجيه تلك الكلمات لمعلمه، فإن هذا الأخير على درجة من الصراحة تجعله يوجهها لنفسه. ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد، بل من المؤكد جداً أن المعلم هو الذي واصل الكلام.

المعلم- جرى ذلك عشية عيدها وليس معي مال. لكن صديقي الحميم الفارس دوسان وان، الذي لا يضيره شيء أبداً، قال لي:"ليس لديك مال البتة؟

-كلا.

-لا بأس! فما علينا سوى تأمينه.

-أنت تعرف طريقة لذلك؟

-دون شك.

ارتدى ملابسه فخرجنا، فقادني عبر عدة شوارع ملتوية إلى دار صغيرة معتمة، حيث صعدنا درجاً صغيراً قذراً، إلى طابق ثالث، فدخلنا شقة فسيحة فيها أثاث فريد. ومن جملة الأثاث ثلاث خزائن صغيرة مصفوفة معاً، وكل واحدة من الثلاث ذات شكل مختلف. ووراء الخزانة الوسطى مرآة كبيرة ذات تاج رأسي وكانت عالية على السقف فأنزلوا قسماً منها إلى ما وراء الخزانة. ووضعت فوق الخزائن سلع متنوعة من كافة الأصناف، وعلبتا نرد. واصطنعت على دائرة الشقة كراسٍ جميلة، من غير أن يكون واحد مشابهاً للآخر. ووضعت عند طرف سرير غير محاط بستائر، كنبة رائعة. وعلّق على نافذة قفص كبير خال من الطيور لكنه جديد تماماً. أما النافذة الأخرى فتتدلّى بقربها ثريا علّقت على عصا مكنسة ووضع طرفا العصا على مسندي كرسيين من القش عتيقين. وتوزّعت ناحية اليمين والشمال لوحات، بعضها معلق على الجدران وبعضها الآخر مكدّس.

جاك- ذلك مكان تفوح منه رائحة رجل أعمال ماهر ضمن دائرة قطرها فرسخ.

المعلم- أصبت في تخمينك. ثم ها هو الفارس والسيد لوبرين (إنه اسم البائع والوسيط بالربا) يرتمي كل منهما بين ذراعي الآخر "آه ! ذلك أنت يا سيدي الفارس؟

-أجل، ذلك أنا، يا عزيزي لوبرين.

-ولكن ماذا حل بك؟ مضى زمن طويل من غير أن نراك. لكن الأيام غدت كئيبة جداً. أليس كذلك؟

-إنها حقاً كئيبة، يا عزيزي لوبرين. لكن ليس المراد ذلك. اصغِ إليّ، فلدي كلمة أقولها لك..."

وقعدت. فيما انسحب الفارس ولوبرين إلى ركن وأخذا يتكلمان. ولا يسعني أن أنقل لك من حديثهما سوى كلمات التقطتها عن بعد.

-إنه حسن؟

-رائع.

-إنه راشد؟

-كامل الرشد.

-إنه الابن؟

-الابن.

-أتدري أننا في الصفقتين الأخيرتين؟...

-أخفض صوتك.

-والأب؟

-غني.

-عجوز؟

-ومتهافت.

فقال لوبرين بصوت عال: "اسمع يا سيدي الفارس، لم أعد راغباً في التدخل بشيء، فنتائج ذلك كانت سيئة على الدوام. إنه صديقك، فعلى الرحب والسعة! وملامح السيد تنمّ على أنه لطيف المعشر، ولكن..

-يا عزيزي لوبرين!

-ليس لدي مال على الإطلاق.

-ولكن لديك معارف؟

-كلهم صعاليك ولصوص حقيقيون. سيدي الفارس، أمَا أصابك الإرهاق من المرور بين تلك الأيدي؟

-للضرورة أحكام.

-إن الضرورة التي تلحّ عليك لضرورة مضحكة، فهي لعبة ورق أو جولة ترجيح أو فتاة ما.

-صديقي العزيز!.

-هذا أنا على الدوام، فأنا ضعيف مثل طفل. ومن ثم فأنت تجعلني أتساءل عن الذي لا تجعله يحنث بيمينه. هيا، دقَّ بالجرس لأعرف إن كان فورجو في بيته .. كلا، لا تدقّ، لأنّ فورحو سيأخذك إلى عند ميرفال.

-ولِمَ ليس أنت؟

-أنا! ذلك أني أقسمت على ألا يعمل ميرفال الدنيء ذلك، من أجلي أو من أجل أصدقائي أبدا. فعليك أن تكفل السيد الذي ربما هو، بل الذي هو رجل شهم دون شك. وأن أكفلك أنا لدى فورحو وأن يكفلني فورجو لدى ميرفال .."

دخلت الخادمة في تلك الأثناء لتقول :"إنه عند فورجو؟"

فقال لوبرين لخادمته: "ليس عند أحد... سيدي الفارس، لا أستطيع مطلقا، لا أستطيع "

فعانقه السيد ولاطفه: "عزيزي لوبرين ! يا صديقي العزيز !..."

واقتربت لأضم توسّلاتي إلى توسلات الفارس :"يا سيد لوبرين ! أيها السيد العزيز!...

وأخيراً رضخ لوبرين فاقتنع.

أما الخادمة التي كانت تراقب تلك المشادة الصبيانية وهي تبتسم فقد ظهرت في طرفة عين بصحبة رجل قصير أعرج، يرتدي السواد وبيده

عكاز، عييّ، ذو وجه جاف تعلوه التجاعيد، ونظرته متوقّدة. فاستدار الفارس صوبه وقال له: "هلّم يا سيد ماتيو دوفورجو، فليس لدينا وقت نضيعه، اصطحبنا بسرعة..."

وقام فورجو، من غير أن يبدو عليه أنه يصغي إليه، يفتح صرة نقود جلدية صغيرة.

فقال الفارس لفورجو: "أنت تسخر، فذلك من شأننا. ." واقتربتُ فأخذت قطعة نقود صغيرة أعطيتها للفارس فأعطاها للخادمة وهو يمسح بيده تحت ذقنها. فقال لوبرين لفورجو: "أنا أمنعك، لا تصطحب هذين السيدين أبداً.

فورجو- ولمَ يا سيد لوبرين؟

لوبرين- لأنه لص، لأنه صعلوك.

فورجو- أنا أعرف حقاً أن السيد دوميرفال... ولكن لكل خطيئة غفران. كما أني لا أعرف من أحد لديه مال حالياً سواه.

لوبرين- يا سيد فورجو، افعل ما يروقك. أيها السادة، أنا أغسل يديّ من هذه القضية.

فورجو- يقول للوبرين- يا سيد لوبرين، ألا تأتي معنا؟

لوبرين- أنا! معاذ الله. ذلك رجل سافل لن تقع عيني عليه طول عمري.

فورجو- غير أنّنا لن ننجز شيئاً من دونك.

الفارس- هذا صحيح. هيا، يا عزيزي لوبرين، فأداء خدمة لي هو المراد، والمقصود خدمة رجل لطيف المعشر يعاني من ضائقة. ولن تتمنع عليّ. سوف تأتي.

لوبرين- أن أذهب إلى عند ميرفال! أنا ! أنا !

الفارس- بلى، فأنت، سوف تأتي من أجلي..."

ومن فرط الترجّي استسلم لوبرين للانقياد، وها نحن معاً، لوبرين والفارس وماتيودوفورجو، وفي الطريق صفق الفارس يده بيد لوبرين

بمودة وهو يقول لي: "هذا أفضل إنسان، إنه أحسن رجل في المجتمع، وهو أفضل المعارف ..

لوبرين- أظن أن الفارس سيجعل مني مزوّراً للعملة."

وها قد وصلنا إلى عند ميرفال.

جاك- ماتيو دوفورجو ..

المعلم- طيب، وما قصدك؟

جاك- ماتيو دوفورجو . قصدي أن أقول إن الفارس دوسان وان يعرف أولئك الناس بأسمائهم وألقابهم: وإنه نذل ومتفاهم مع أولئك السفلة.

المعلم- يمكن تماماً أن تكون على حق يستحيل على المرء أن يلقى رجلاً أكثر لطفاً وأكثر تمدناً وأكثر استقامةً وأكثر تهذيباً وأكثر إنسانيةً وأكثر تحنّناً وأكثر نزاهةً من السيد دوميرفال. فبعد التثبّت من سنّ بلوغي ومن ملائي، اتّخذ السيد دوميرفال هيئة الحنان المتناهي والحزن الشديد وأخبرنا بلهجة الترصّن المصطنع أن حالة من اليأس قد استبدّت به. وأنه قد اضطر في صبيحة ذلك اليوم لأن يمد يدّ المساعدة لواحد من أصدقائه ألحّت عليه حاجة مستعجلة وأنه أمسى حالي الوفاض تماماً. ثم توجه إليّ فأضاف قائلاً: "سيدي، لا تأسف لأنك لم تقصدني في وقت مبكّر أكثر، لأني كنت سأعاني من أسف الرفض، غير أنّي كنت سأرفض: فالصداقة بالنسبة لي تتصدّر كل شيء . "

وكان أن استولت علينا الحيرة. وها هو الفارس ولوبرين نفسه وفورجو خاضعين أمام ميرفال متوسلين، فيما السيد ميرفال يقول لهم: سادتي، تعرفوني كلكم، أحب تقديم المساعدة ولا أسعى إلى إفساد ما أؤدّي من خدمات بجعلها تُرتجى مني: لكني أقول لكم قول رجل نريه، إن ليس في بيتي أربع ليرات ذهبية..."

أما أنا، فكنت وسط أولئك القوم، أشبه بمدنف سمع إدانته بأذنه. فقلت للفارس: "أيها الفارس، فلنمضِ في سبيلنا ما دام هؤلاء السادة قد أعوزتهم

الوسائل..." فسحبني الفارس على طرف قائلاً :"لا أظنك تنوي فاليوم عشية عيدها. وأنذرك بأني أحطتها علماً. وهي تتوقع ملاطفة من جانبك. وأنت تعرفها: فهي ليست نفعية. غير أنو الأخريات اللواتي لا يتوقّعن الخديعة وهنّ ينتظرن. ولا بدّ أن تك تباهت بذلك أمام أبيها وأمها وخالاتها وعماتها وصديقاتها. وإن من بعد ما تعرضه عليهم لأمر يضني القلب .." وعاد من بعد إلى بحثه بإلحاح أكبر. ومن بعد أن ارتجى ميرفال بما فيه الكفاية ق روحي لأغبى روح في العالم. إذ لا يسعني أن أرى الناس في ض أمعنت فكري فخطرت لي خاطرة.

الفارس- وأية خاطرة هي؟

ميرفال- لِمَ لا تأخذوا بضاعة؟

الفارس- وهل لديك بضاعة؟

ميرفال- كلا، غير أني أعرف امرأة تستطيع القيام بذلك. امرأة خدومة ومستقيمة.

لوبرين- أجل، لكنّها ستبيعنا خرقاً بالية بأثمان باهظة فلا نجني فائدة تذكر.

ميرفال- أنفي ذلك نفياً قاطعاً، بل ستكون أقمشة فاخر ومجوهرات من الذهب والفضة وبعض الحجارة الكريمة. ولن في تلك الأقمشة إلا النزر اليسير. كما أنها امرأة دمثة ترضى ب على أن تحصل على ضمانات. فالسلع من صفقات كلفتها أثماناً بها. يبقى أن تروها، فلن تكلفكم رؤيتها شيئاً. "

نبّهت ميرفال والفارس إلى أنّ ما أنا فيه لا يمكّنني من بالبيع. وأنّ وضعي، في تلك التسوية التي قد لا تثير نفوري، لا فسحة أمامي كي أحقّق فائدة منها. فقال الوسيطان لوبرين دوفورجو في آن معاً: "لا بأس، نحن نبيع بدلاً منك. إن هو نصف نهار..." ورفعت الجلسة إلى ما بعد الظهر عند ميرف

ربّت على كتفي وقال لي بلهجة عذبة كلها ثقة :"أنا مغتبط، يا سيدي، لأني سأخدمك، لكن صدّق كلامي، ولا تلجأ كثيراً لمثل تلك القروض. لأنها ستعود عليك يوماً بالإفلاس. وإنها لمعجزة حقيقية، في بلاد مثل بلادنا، أن تتاح لك فرصة التعاون أيضاً مع أشخاص شرفاء مثل السيدين لوبرين وماتيودوفورجو..."

فشكره السيدانِ لوبرين وفورجو دو ماتيو، أو ماتيودوفورجو بانحناءة، قائلين إنّ ذلك من طيبته، وإنّهما حرصا حتى الآن على أن تتحلى تجارتهما الصغيرة بالاستقامة وإنّ ذلك لا يحتاج لأي إطراء.

ميرفال- أنتما على خطأ، أيها السيدان، فمن عساه يتمتع بضمير حيّ في أيامنا؟ بل اسألا الفارس دوسان وان، الذي لا بد أن يعرف الشيء الكثير في ذلك الشان..."

وفيما نحن نغادر منزل السيد ميرفال، سألنا من أعلى السلم، إن كان يستطيع الاعتماد علينا، لكي يحيط صديقته البائعة بالأمر علماً. فأجبناه بالإيجاب. وتوجهنا جميعاً للغداء في حانة مجاورة ، بانتظار حلول الموعد المرتقب.

كان ماتيودوفورجو، هو الدي طلب الغداء، وقد حرص على أن يكون شهياً. وعند تناول الحلوى، بعد الطعام، اقتربت من مائدتنا ضاربتان على الأرغول. فدعاهما لوبرين للجلوس. فقدمنا إليهما الشراب وأصغينا لحديثهما وعزفهما. وبينما كان ضيوفي الثلاثة مستمتعين بمعابثة إحداهما، قالت لي رفيقتها وكانت تجلس بجانبي :"أنت هنا، يا سيدي، بصحبة رفاق سوء: فليس بين هؤلاء من واحد إلا واسمه مدون في الكتاب الأحمر[1]".

غادرنا الحانة في الموعد المحدّد وتوجهنا إلى بيت ميرفال. لقد فاتني أن أقول لك إن الغداء استنفد كل ما في حوزة الفارس وحوزتي من مال، وإن لوبرين، ونحن في الطريق، قد قال للفارس الذي قال لي

[1] سجل الشرطة.

بدوره إنّ ماتيودوفورجو يطلب عشر ليرات ذهبية مقابل وساطته، وإن ذلك هو الحد الأدنى الذي يمكن أن نعطيه إياه. وإنه لراضٍ عنّا، وإنّا سنحصل على البضاعة بالسعر الأفضل، وإننا سنحصل على ذلك المبلغ بسهولة من البيع.

ثم ها نحن عند ميرفال وقد سقتنا إليه البائعة وبضاعتها. لقد غمرتنا الآنسة بريدوا (وهذا هو اسمها) بكياستها وانحناءاتها المعبرة عن الاحترام، وبسطت أمامنا أقمشة وأنسجة من كتان قطعاً مخرّمة وخواتم ومجوهرات وعلباً ذهبية. فأخذنا من كل شيء. وتولّى لوبرين وماتيودوفررجو والفارس تحديد الأسعار، أما ميرفال فأمسك بالريشة. وبلغ المجموع تسعة عشر ألفاً وسبع مئة وخمساً وسبعين ليرة، وفيما كنت مزمعاً أن أحرّر بها سنداً، قالت لي الآنسة بريدوا، بعد أداء انحناءة احترام (لأنها لا توجّه من حديث لأحد قط ما لم يكن مسبوقاً بانحناءة احترام): "سيدي، هل أنت عازم على تسديد السندات عند استحقاقها؟" فأجبتها:

-بكل تأكيد. فردّت عليّ قائلة:

-لا فرق لديك، في هذه الحال، في أن تحرّر لي سندات أو كمبيالات."

وأصابني ذكر الكمبيالات بالشحوب. ولاحظ الفارس ذلك فقال للآنسة بريدوا: "كمبيالات، يا آنسة! غير أن هذه الكمبيالات يجري تداولها، وليس من يعرف في أية أيدي يمكن أن تقع.

-أنت تهزأ، يا سيدي الفارس. فنحن على دراية بالأصول التي ينبغي الالتزام بها حيال أناس من مصافكم..." وبعدها انحناءة احترام..."فالمرء يضع تلك الأوراق في محفظته ولا يظهرها إلا في أوانها. هاك، انظر..." وبعدها انحناءة احترام... وسحبت محفظتها من جيبها، فقرأت العديد من الأسماء العديد من الأسماء من كافة الأحوال والأوضاع. فاقترب الفارس مني وقال لي: "كمبيالات! ذلك جدّيٌ حقاً! انظر فيما

أنت صانع! فهذه المرأة تبدو لي نزيهة، ومن ثم، ستكون أنت قد حـزت على المال أو أكون أنا، قبل حلول الأجل.

جاك- ووقّعت على الكمبيالات؟

المعلم- ذلك صحيح.

جاك- تعوّد الآباء، حين يقصد أبناؤهم العاصمـة، أن يوجـهوا إليـهم موعظة صغيرة. لا تعاشروا رفاق السوء السوء أبـداً. حـوزوا علـى رضى رؤسائكم بالمواظبة على أداء واجباتكم. تمسكوا بشعائر العبـادة. ابتعدوا عن الفتيات المتهتكات وعن المحتالين واحرصوا بشكل خـاص على أن لا توقّعوا كمبيالات أبداً.

المعلم- ماذا تتوقع مني، لقد فعلت ما فعله الآخـرون. وكـان أوّلَ مـا نسيتّه، درسُ أبي. وها أنا غارق في بضائع للبيع، لكن المال هو الـذي كان ينقصنا. كانت هنالك بضعة أزواج من الأردان المزدانة بـالدانتلا والحميلة جداً: فاستولى عليها الفارس بسعر الكلفة قائلاً لي: "ها هو قسم من مشترياتك، لن تخسر فيه شيئاً." وأخذ ماتيودوفورجو ساعة وعلبتيـن ذهبيتين، ومضى على الفور ليأتيني بقيمتها. وأخذ لوبرين باقي البضاعة ليودعها عنده. فوضعت في جيبي زخرفة رائعة مـع الأردان. وكـانت إحدى أزهار الباقة التي سوف أقدمها. ورجع مـاتيودوفورجو سـريعاً حاملاً ستين ليرة ذهبية، فاقتطع عشراً منها لنفسه وحصلت أنـا علـى الخمسين الأخرى. فقال لي إنه لم يبع السـاعة ولا العلبتيـن بـل قـام برهنها.

جاك- رهنها؟

المعلم- أجل.

جاك- أعرف أين.

المعلم- أين؟

جاك- عند الآنسة ذات انحناءات الاحترام، البريدوا.

المعلم- ذلك صحيح. وأخذت أيضاً، مع زوج الأردان والزخرفة، خاتماً جميلاً مع علبة شامات موشاة بالذهب. وفي كيس نقودي خمسون ليرة ذهبية. فكنا أنا والفارس في غمرة من الابتهاج.

جاك- كل ذلك حسن جداً. لكن يبقى هنالك شيء واحد يثير حيرتي: إنها نزاهة السيد لوبرين. ألم ينل ذاك أية حصة من الغنيمة؟

المعلم- دع عنك ذلك يا جاك، فأنت تسخر. إنك لا تعرف السيد لوبرين. فقد عرضت عليه أن أكافئه على مساعيه الحميدة. فغضب وأجابني أني أعتبره على ما يبدو من أمثال ماتيودوفورجو. وإنه لم يمدّ يده لإنسان قط. فهتف الفارس قائلاً: "هاك، يا عزيزي لوبرين. إنه هو نفسه على الدوام. لكننا سنحمرّ خجلاً إن كان أكثر نزاهة منا " وأخذ على الفور من بضاعتنا دزينتين من المناديل وقطعة من الحرير، فجعله يقبلها لزوجته وابنته. فشرع لوبرين يتأمل المناديل، التي بدت له جميلة جداً، وقطعة الحرير فوجدها ناعمة جداً، وقد قدم له ذلك عن طيب خاطر، حتى أنه انساق لقبولها، لا سيما أنه أمام مناسبة قريبة ليعاملنا بالمثل عن طريق بيع الأعراض التي ظلت بين يديه. وهكذا انطلقنا بأقصى ما تستطيعه عربتنا من سرعة، نحو مسكن التي أحبّها والتي كانت مقصودة بالحلية والأردان والخاتم. ونجحت الهدية نجاحاً باهراً. فكانت من ناحيتها فاتنة. وقد جرّبت الحلية والأردان من فورها. أما الخاتم فبدا كأنه صيغ خصيصاً لإصبعها. وتناولنا العشاء في جو من البهجة على نحو م تعتقد تماماً.

جاك- ونمت هناك.

المعلم- كلا.

جاك- هل هو الفارس إذن؟

المعلم- أعتقد ذلك.

جاك- إن ليراتك الخمسين، وفق النمط الذي جعلوك تسلكه، لم تعمّر طويلاً.

المعلم- كلا. فبعد مرور أسبوع قصدنا لوبرين لـــنرى مـــا أنتجتـــه بقيـــة أغراضنا.

جاك- لم تنتج شيئاً، أو النزر اليسير. فانتابت لوبرين الكآبة، فصبّ جام غضبه على ميرفال والآنسة ذات انحناءات الاحـــترام، ناعتـــاً إياهمـــا بالصعاليك والسفلة واللصوص، مقسماً ثانية على ألاّ يتعامل معها أبـــداً، وسلّمك ما بين سبع مئة وثمان مئة فرنك.

المعلم- تقريباً. ثمان مئة وسبعون فرنكاً.

جاك- بناء على ذلك، وإذا كنتُ أجيد الحساب قليلاً فـــإن ثمـــان مئـــة وسبعين فرنكاً من لوبرين وخمسين ليرة من ميرفال أو فورجو، والحلية والأردان والخاتم، فلنقل أنها تساوي خمسين ليرة أيضاً، فذلك دخلك كله من بضاعة بلغت تسعة عشر ألفاً وسبع مئة وثلاث وسبعين ليرة. عجباً. فتلك هي النزاهة بعينها. وميرفال كان على حق، فلا يتاح للمرء دومـــاً أن يتعامل مع مثل أولئك الناس الشرفاء.

المعلم- نسيت الأردان التي أخذها الفارس بسعر الكلفة.

جاك- ذلك أن الفارس لم يكلمك عنها البتة.

المعلم- أوافقك على ذلك. وهنالك العلبتان الذهبيتان والساعة، وقد رهنها ماتيو. فأنت لم تأتِ على ذكرها.

جاك- لأني لا أدري ما أقول عليها.

المعلم- وفي تلك الأثناء حلّ أجل الكمبيالات.

جاك- ولم يحلّ أجل توفّر المال لديك أو لدى الفارس قطعاً.

المعلم- صرتُ مرغماً أن أتوارى عن الأنظار. فأحيط أهلي بالأمر علما. فجاء واحد من أعمامي إلى باريس. فقدّم مذكرة للشـــرطة ضـــد أولئـــك اللصوص كلهم. فأرسلت المذكّرة إلى مندوب مفوّض وكان ذلك المنـــدوب حامياً لميرفال بأجر. فجاء الردّ أن القضية مستكملة للشروط القانونية، فلا يسع الشرطة أن تفعل شيئاً. أما المفوض مقابل رهن والـــذي أودع لديـــه ماتيو العلبتين فقد استدعى ماتيو أمام القضاء. وتدخلتُ في القضية. فكانت

نفقات المحكمة باهظة جداً، حتى أنه من بعد بيع الساعة والعلبتين، ظل ينقصنا ما يقرب من خمس مئة فرنك أو ست مئة مما جعلنا في حاجة أكبر للتسديد.

قد لا نصدق ذلك، أيها القارئ. فكيف لو أخبرتك أن أحد باعة شراب الليمون توفي قبل زمن قصير في جوارنا، مخلفاً يتيمين فقيرين صغيري السن. فانتقل مفوض التركات إلى دار الفقيد فوضع الأختام. فرفعت الأختام فجردت التركة وبيعت. فبلغ ما بيع ثمان مئة إلى تسع مئة فرنك. فاقتطعت التكاليف من تلك الفرنكات التسع مئة، فبقي لكل من اليتيمين فلسان اثنان. فوضع فلس في يد كل منهما وجرى نقلهما إلى مأوى الأيتام.

المعلم- إن ذلك ليسبب الهلع.

جاك- وإن ذلك لمستمرّ.

المعلم- توفي والدي في تلك الأثناء. فسددت الكمبيالات وخرجت من مخبئي بعد أن صرّحت، حفاظاً على شرف الفارس وصديقتي، إنهما لازماني كرفيقين مخلصين.

جاك- وها أنت كَلفٌ، كما كنت من قبل، بالفارس وحسنائك. فيما تجعلك حسناؤك تدفع قيمة أماليك أغلى من أي وقت مضى.

المعلم- ولِمَ ذلك يا جاك؟

جاك- لم؟ ذلك أنه ينبغي، وقد صرت سيد نفسك وحائزاً على ثروة كبيرة، أن يجعلوا منك أحمق بكل معنى الكلمة، أي زوجاً.

المعلم- أعتقد جازماً أن ذلك كان مبتغاهم. غير أنه لم يتحقّق.

جاك- إما أنك سعيد الحظ أو أنهم تصرفوا بشكل أحرق.

المعلم- لكن يبدو لي أن صوتك أجش بدرجة أدنى، وأنك تتكلم بحرية أكبر.

جاك– ذلك ما يبدو لك، لكنه ليس كذلك.
المعلم– ألا يسعك إذن أن تستأنف قصة غرامياتك؟
جاك– كلا.
المعلم– ورأيك أن أواصل قصة غرامياتي أنا؟
جاك– رأيي أن نتوقف لنرفع القربة إلى أعلى.
المعلم– كيف ! لقد ملأت قربتك رغم ألم حلقك؟
جاك– أجل، لكني أُشْهد كافة الأبالسة على أنّها ملأى بالزهورات. لذا تراني بلا أفكار، فأنا غبي. وما دامت القربة ملأى بالزهورات فسوف أظلّ غبياً.
المعلم– ماذا تفعل؟
جاك– أفرغ الزهورات على الأرض. فقد صرت أخشى أن تجرّ علينا مصيبة ما.
المعلم– أنت مجنون.
جاك– لن أُبقي، عاقلاً كنت أم مجنوناً، على قطرة واحدة من الزهورات في القربة.

وبينما يفرغ جاك قربته على الأرض، كان معلمه ينظر في ساعته فيفتح علبة نشوقه ويتهيأ لمواصلة قصة غرامياته. أما أنا أيها القارئ فنفسي تراودني أن أسكته فأجعله يشاهد من بعيد، إما عسكرياً مُسِنّاً على حصانه وهو يمضي مقوس الظهر مسرعاً. أو فلاحة فتيّة تعتمر قبعة صغيرة من القش، وترتدي تنورة حمراء، وتسلك الدرب ماشية أو على حمار. ولم لا يكون العسكري المسنّ ولم لا تكون الفلاحة الشابة السيدة سوزان أو السيدة مرغريت أو مضيفة نزل "الوعل الكبير" أو الأم جان أو حتى بنتها دينيز؟ ما كان كاتب روايات ليتوانى عن ذلك. غير أني لا أحب الروايات، ما لم تكن روايات ريتشاردسون. إني أكتب قصة.

وسواء كانت هذه القصة ممتعة أم غير ممتعة: فذلك آخر ما يشغل بالي. فأنا أتوق إلى قول الحقيقة وقد فعلت. وعليه فلن أجعل الأخ جان يعود من ليشبونة أبداً. أما رئيس الدير الضخم ذاك، والمقبل صوبنا في عربة وإلى جانبه امرأة فتية وجميلة فلن يكون الرئيس هدسون قطعاً– لكن رئيس الدير هدسون قد مات؟ –هل تعتقد ذلك؟ هل حضرت جنازته؟ – كلا. أنت لم تره يُدْفن على الإطلاق؟ –كلا –إنه إذن ميت أو حيّ وفق ما يروقني. والأمر منوط بي أنا فقط، لأوقف تلك العربة, فأخرج منها رئيس الدير الشاب ورفيقة سفره، ومعهما سلسلة من الأحداث ينجم عنها أن لا تعرف عراميات جاك ولا غراميات معلمه. غير أني أزدري تلك الحيل كلها. وأرى فقط أن ليس ما هو أيسر من حبك رواية بشيء من الحيال والأسلوب. فلنظلّ في الواقع بانتظار أن يزول ألم الحلق عن جاك ولندع معلمه يتكلم.

المعلم– ظهر لي الفارس، ذات صباح، بوجه مكتئب جداً. كان ذلك غداة نهار أمضيناه في الريف، أنا والفارس وصديقته أو صديقتي أو ربما صديقة الاثنين معاً، والأب والأم والخالات وبنات الأعمام والأخوال. فسألني إن كنت أفشيت سراً يكتشف للأهل عن عاطفتي. وأنبأني أن الأب والأم، وقد تخوّفا من مواظبتي، طرحا أسئلة على ابنتهما. وأن نواياي إذا كانت شريفة فمن اليسر بمكان أن أبوح بها. وأنه يشوّقهم أن يستقبلوني ضمن هذه الشروط. لكن إذا لم أعرب عن مقاصدي بوضوح خلال خمسة عشر يوماً فهم يرجونني أن أوقف زياراتي التي أضحت ملحوظة، والتي بدأت تدور بشأنها الأحاديث والتي يمكن لها أن تسيء إلى سمعة الفتاة، فتبعد عنها طالبي زواج من سوية رفيعة، يمكنهم أن يتقدموا دون أن يخشوا الرفض.

جاك– طيب، يا معلمي، هل يتمتع جاك بالقدرة على الحدس؟

المعلم– وأضاف الفارس: "خمسة عشر يوماً! إن المهلة قصيرة جــــداً. فأنت تحبها وهي تحبك. فماذا ستفعل بعد خمسة عشر يومـــاً؟" فـــأجبت الفارس برد قاطع إني سوف انسحب.

"سوف تنسحب ! أنت لست بعاشق إذن؟

–بل عاشق كبير. لكن لي أهل ولي عائلة ووضع وتطلعات, ولا يسعني أبداً أن أدفن تلك المعطيات كلها في مخزن بورجوازية[1] صغيرة.

–وهل أصرح لهم بذلك؟

–إذا ما شئت. غير أن رقّة هؤلاء الناس، المباغتة والمتشكّكة، لتدهشني أيها الفارس. فقد سمحوا لابنتهم بأن تتلقى الهدايا مني. وتركونـــي فـــي خلوة معها عشرين مرّة. وهي تتردد على حفلات الرقص والاجتماعـات والمسارح المتنزّهات داخل المدينة وخارجها، بصحبة أول من يدعوهـــا إلى عربته الفاخرة. وهم يستغرقون في النوم بينما تســتقبل هـــي مـــن يعزف لها الموسيقى أو يجاذبها أطراف الأحاديث. وأنت تـــتردد علـــى المنزل طول ما يحلو لك، وحين يستقبلونك في منزلهم، أيها الفـــارس، والكلام بيننا، فمعنى ذلك أن بوسعهم أن يستقبلوا غيرك. هذا وابنتـــهم معروفة. فأنا لا أصدق ولا أنفي كل ما يقال عليها. لكنك توافقني علـــى أن أولئك الأهل، كان بوسعهم أن يظهروا غيرتهم على سمعة ابنهم في وقت مبكّر أكثر. وهل تريدني أن أكاشفك بالحقيقة؟ لقد نظروا إليّ علـى إني إنسان ساذج بوسعهم أن يجروه من أنفه ساعة يشـــاءون ليـــأخذوه فيمثل خاضعاً أمام كاهن الرعية. لقد أخطئوا في حساباتهم. إني لأجـــد الآنسة آغات فاتنة، وهواها قد تمكن من فؤادي: ويتجلـــى ذلـــك فـــي المصاريف الهائلة التي أنفقتها عليها. ولست أرفض الاســتمرار، لكـــن ينبغي أن أغدو متيقّناً من أن أجدها في المستقبل أقل تشدّداً حيالي.

وأنا لا أتطلّع لأن أظل إلى الأبد جاثياً أمامها أبدّد وقتـــي وثروتـــي وحسراتي، بينما يسعني أن أنتفع على نحو أفضل، في مكان آخر. أنقل

[1] كان البورجوازيون، في مجتمع الطبقات، قبل الثورة الفرنسية، أقرب إلى عامة الشعب.

هذه الكلمات الأخيرة إلى الآنسة آغات، وكل ما سبقها لأهلها... ينبغي لعلاقتنا أن تتوقّف، أو أن يقبلوا بي على أساس جديد، وأن تقوم الآنسة آغات حيالي بمبادرة أفضل مما قامت به حتى الآن. وتذكّر، أيها الفارس، أنك حين قدّمتني إليها، وعدتني بتسهيلات لم أقع عليها مطلقاً. لقد خدعتني بعض الشيء، أيها الفارس.

الفارس- أقسم على أني خدعت نفسي أولاً، إلى حدّ ما. فمن كان يظن أن تلك الفتاة، بهيئة الطيش التي عليها ولهجة الانعتاق والمرح، ستكون في حقيقة الأمر غولاً صغيراً من غيلان الفضيلة؟

جاك- واعجباه ! ذلك لا يصدق، يا سيدي. لقد كنت إذن حريئاً ذات مرة في حياتك؟

المعلم- تمرّ أيام على ذلك النحو. كنت أعاني من الضيق بسبب المغامرة مع المرابين، وكمبيالة الرجوع، في سان جان دولاتران، مع الآنسة بريدوا، ومشقة التعامل مع الآنسة آغات. فصرت مرهفاً من كل ذلك التسويف.

جاك- وماذا فعلت، من بعد ذلك الخطاب الجريء الذي وجّهته لصديقك الغالي الفارس دوسان وان؟

المعلم- كنت عند كلامي، فقطعت زياراتي.

جاك- *برافو ! برافو ! ميو كارو مايسترو* ![1] (حسناً فعلت ! حسناً فعلت ! يا معلّمي العزيز!)

المعلم- وانقضى زهاء خمسة عشر يوماً لم أسمع فيها شيئاً، باستثناء ما كان يحيطني به الفارس علماً، وبكل أمانة، حول الأثر الذي خلّفه غيابي داخل الأسرة، مما شجعني على الثبات في موقعي. فكان يقول لي: "بدأت الدهشة تظهر. هنالك تبادل في النظرات والكلام. وتساؤل حول الأسباب التي يمكن أن تكون أثارت استياءك. وتؤدي الفتاة من ناحيتها

[1] العبارة بالإيطالية في النص الفرنسي. BRAVO! BRAVO ! MIO CARO MAESTRO –م–

- دور الاعتزاز بالنفس. فتقول بلا مبالاة متكلّفة يلمح المرء من خلالها بكل يسر ما يعتمل في داخلها: "لم نعد نرى ذلك السيد. يبدو أنه ليس راغباً في أن نراه. فليفعل ما يروقه، فذلك شأنه هو .." ثم يبدو عليها انقلاب مفاجئ، فتبدأ تدندن بأغنية وتقصد النافذة، فتعود منها، لكنها تعود بعينين حمراوين. فيلاحظ الجميع أنها بكت.

-بكت !

-وتجلس من بعد، فتأخذ قطعة تطريز، وتهم بالعمل لكنها لا تفعل. ويتكلمون فتصمت. فيسعون لتسليتها فيتعكّر مزاجها. فيقترحون عليها لعبة أو نزهة أو مشاهدة عرض: فتقبل. وحين يغدو كل شيء جاهزاً، يتراءى لها شيء آخر يروقها ثم يعود فيكدّرها بعد قليل... آه ! ها أنا أرى الاضطراب بادياً عليك ! لن أقول لك شيئاً من بعد.

-ولكن، أيها الفارس، إذا ما عدت للظهور، حسب اعتقادك...

-أعتقد أنك ستكون أحمق. عليك بالصمود والتحلّي بالشجاعة. إذا ما رجعت من غير أن يستدعوك فوضعك ميؤوس منه. فعليك أن تلقن أبناء ذلك المجتمع درساً.

-وإذا لم يستدعوني؟

-سوف يستدعونك.

-وإذا ما تأخروا كثيراً في استدعائي؟

-سوف يستدعونك عما قريب. فاللعنة على الأبالسة !إن رجلاً مثلك لا يستبدل بسهولة. إن تعد من تلقاء نفسك يقاطعوك، فيجعلوك تدفع ثمن حماقتك غالياً، ويفرضوا عليك الشروط التي يريدونها. وعليك أن ترضخ، وعليك أن تركع. فهل تريد أن تكون السيد أم العبد، بل العبد الذي يسيئون معاملته؟ فاخترْ. والحقّ أقول لك إن طريقتك كانت خفيفة شيئاً ما. فلا يمكن الخروج منها بأنك رجل عاشق. لكنّ ما جرى قد جرى. وإذا كان الانتفاع منها بالمستطاع، فلا تتوانَ عن ذلك.

-لقد بكت !

-الحق أنها بكت! وخير لك أن تبكي هي من أن تبكي أنت.

-وإذا لم يستدعوني؟

-قلت لك إنهم سيستدعونك. حين أصل، لا أتكلم عنك، وكأنك غير موجود. يداورونني فأدور معهم. فيسألوني أخيراً إن كنت رأيتك، أجيب دونما مبالاة، بنعم أحياناً، وبلا أحياناً أخرى. ثم يدور الحديث على شيء آخر، فلا يلبث أن يعود إلى مسألة تغيّبك المفاجئ. وتأتي الكلمة الأولى من الأب والأم أو الخالة أو آغات فيقولون: "وبعد كل ما أبديناه حياله من مداراة ! والاهتمام الذي أوليناه لمشكلته الأخيرة! والصداقة التي ربطت ابنة أختي به! ومظاهر التأكيد على الترابط التي جاءتنا منه! والمجاملات التي أفعمته بها وتعال ضع ثقتك بالرجال! ... وتعال من بعد فافتح بابك في وجه القادمين... وأيْقِنْ بالأصدقاء! "

-وآغات؟

-مظاهر الوجوم تتجسّد فيها، فأنا أؤكد لك ذلك.

-وآغات؟

-آغات انتحت بي جانباً وقالت لي: "أيها الفارس، هل تتبيّن شيئاً من صديقك؟ لقد أكّدت لي مراراً أنه يهواني. وكنت تصدقه دون شك، بل كيف لا تصدقه؟ فأنا نفسي كنت أصدّقه كل التصديق..." ثم يتهدّج صوتها فتنقطع عن الكلام وتحضلّ عيناها.. طيب، ألست أراك تفعل مثلها ! لن أقول لك شيئاً من بعد، فذلك قرار. وأنا أرى ما أنت راغب فيه، غير أنه لن يقع، لن يقع مطلقاً. أما وقد ارتكبت حماقة الانسحاب مجانباً كل صواب، فلست أرغب لك في أن تضاعفها فتمضي لنرتمي أمامهم. عليك أن تحقق نفعاً من تلك الواقعة لتحرز تقدّماً في علاقتك بالآنسة آغات. وينبغي لها أن ترى أنها لا تمسك بك إمساكاً تاماً لا تخشى معه أن تفقدك، ما لم تفعل ما هو أفضل لتحتفظ بك. أمّا أنك لا تزال، بعد كل ما فعلته، في مرحلة تقبيل يدها ! ولكن قل لي، أيها الفارس، وأصدقني القول، فنحن صديقان، ويسعك من غير فضول من

جانبي، أن تكون واضحاً معي كل الوضوح. أحقاً إنك لم تنل منها شيئاً البتة؟

-كلا.

-أنت تكذب، وتتصنع الرهافة.

-قد أفعل ذلك لو كانت لدي المبرّرات. لكني أقسم لك إنه لا يسعدني أن أكذب.

-ذلك ما يصعب تصوّره، فلست في النهاية رجلاً أخرق. ولكن ألم تسنح أية فرصة تخادل ضئيلة؟

-كلا.

-ذلك أنها سنحت غير أنك لم تلحظها ففوتّها. بل أخشى أنك كنت ساذجاً بعض الشيء. فالناس الشرفاء الذين يمتازون برهافة الحس والرقة من أمثالك معرّضون لذلك. فقلت له:

-ولكن أنت، أيها الفارس، ما الذي تفعله هنالك؟

-لا شيء.

-ألم تكن لديك أية طموحات؟

-اعذرني، من فضلك، بل دامت طويلاً. غير أنك أتيتَ فرأيتَ فانتصرت[1]. ولاحظت أن الأنظار مسلطة عليك، ولم يعد من ينظر إليّ مطلقاً. فاعتبرته القول الفصل. وبقينا من خيرة الأصدقاء. فيُباح لي ببعض الأفكار الخاصة، ويُعْمل أحياناً بنصائحي. ورضيت، لعدم توافر الأفضل، بدور المرؤوس الذي أوكلته لي."

جاك- سيدي، لدي شيئان اثنان: الأول أني لم أتمكن قط من مواصلة قصتي إلا ونبق إبليس من هنا أو آخر من هناك فقطع علي كلامي، أما قصتك فتوالي سيرها حثيثاً. فذلك هو سياق الحياة. إذ يمضي أحدهم جرياً

(1) إشارة إلى الكلمات الثلاث الشهيرة التي قالها يوليوس قيصر أمام مجلس الشيوخ، وقد عاد إلى روما منتصراً على أعدائه: VICI, VENI, VIDI (فيني، فيدي، فيكي) أتيتُ فرأيتُ فانتصرت. فدهشت مثلاً ـ م ـ

بين العوسج دون أن يصاب بوخزة. وعبثاً ينظر الآخر إلى مواقع قدميه، فيقع على العليق في أفضل طريق، ليبلغ مأواه دامي القدمين مثخناً بالجراح.

المعلم- وهل نسيت لازمتك، والملف الكبير وما هو مكتوب فوق؟

جاك- الشيء الثاني، أني أظل مصرّاً على فكرتي بأن صديقك الفارس دوسان وان لص كبير. وأنه من بعد أن تقاسم أموالك مع المرابين لوبرين وميرفال وماتيو دوفوروجو دوماتيو والبريدوا، أخذ يسعى لأن يلصق بك عشيقته، تحت كافة مظاهر الشرف والنزاهة، أمام كاتب بالعدل وكاهن، لكي يشاطرك زوجتك أيضاً... ويلي ! يا لحلقي !...

المعلم- أتدري ماذا تفعل هنا؟ إنه شيء شائع جداً ووقح جداً.

جاك- أنا قادر على ذلك.المعلم- أنت تتظلّم بسبب من يقطع كلامك، وتقوم أنت بقطع الكلام.

جاك- تلك هي نتيجة المثال السيئ الذي أخذته عنك. فهنالك أمٌّ تريد أن تغدو مغناجة وتريد لابنتها أن تكون عاقلة. وأب يريد أن يصير مبذّرا ويطلب من ابنه أن يكون مقتصداً. ومعلم يريد...

المعلم- أن يقاطع خادمه، فيقاطعه ما شاء أن يفعل، وأن لا ينقطع كلامه بسببه.

ألا تخشى، أيها القارئ، أن ترى هنا المشهد الذي جرى في النزل يتكرّر، فتسمع الأول يصيح: "سوف تنزل" والآخر: "لن أنزل"؟ ما الذي يحول بيني وبين أن أجعلك تسمع: "سوف أقاطع، لن تقاطع"؟ من المؤكد أنه لا يلزمني سوى أن أستثير جاك أو معلمه قليلاً، لترى المشاجرة قد بدأت، وإذا ما جعلتها تبدأ فمن يدري متى تنتهي؟ أما في الحقيقة فقد أجاب جاك معلمه بكل تواضع: "سيدي، أنا لا أقاطعك. بل أتحدث إليك، ما دمت سمحت لي بذلك.

المعلم– دعك، فليس ذلك كل شيء.
جاك– وأية فظاظة أخرى قد أكون ارتكبتها؟
المعلم– أنت تمضي مستبقاً الراوي، فتحرمه من المتعة التي أعدّها ليدهشك بها، ذلك أنك بعد أن تبيّنت ما سيقوله لك، وتفاخرت بإظهار فطنة في غير موضعها، فلم تبق أمامه من مجال غير التزام الصمت، وها أنا أصمت.
حاك– إيه، يا معلمي !
المعلم– ألا فلتحلّ اللعنة على الناس الأذكياء.
جاك– لا بأس. غير أن قسوة القلب لا تبلغ بك ..
المعلم– وافقني على الأقل، على أنك تستحقّها.
جاك– أوافقك، لكنك من بعد ستنظر لترى كم الوقت في ساعتك، فتأخذ قبصة نشوقك، فتغدو رائق المزاج، فتواصل قصتك.
المعلم– هذا الماكر يتلاعب بي كما يشاء..."

بعد ذلك الحديث مع الفارس ببضعة أيام، جاءني بهيئة المنتصر ليقول لي :"طيب، يا صديقي، هل ستؤمن مرة أخرى بنبوءتي؟ لقد قلت لك من قبل، فنحن الأقوى، وها هي ذي رسالة من الصغيرة. أجل، رسالة، رسالة منها .."

كانت الرسالة غاية في الرقة، فيها شيء من اللوم والشكوى، وغير ذلك. وها أنا قد عدت أحتلّ موقعي في المنزل.

أراك، أيها القارئ تتوقف هنا عن القراءة. فما حكايتك؟ آه، أظنني فهمتك، فأنت راغب في رؤية تلك الرسالة. وما كانت مدام ريكوبوني لتتوانى عن إطلاعك عليها. وأنا على يقين من أنك أسفت على تلك التي

أملتها مدام دولابومريه على المرأتين الورعتين. ورغم أنها كانت علـ
نحو مغاير وأصعب كتابة من رسالة آغات، وأنا لا أعول كثيراً علـ
موهبتي، فأعتقد أني كنت سأتدبر أمرها، لكنها لن تكون أصيلـة. بـ
ستكون أشبه بتلك الخطب الرائعة التي أوردها تيت ليف في كتابه *تاريخ*
روما، أو الكاردينال بنتيغوليو في *حروب الفلانـدر*. فالمـرء يستمتع
بقراءتها، لكنها تدمّر التوهّم. فالمؤرخ الذي ينسب لأشخاصه أحاديث لـ
يقولوها، يمكنه أيضاً أن ينسب إليهم أعمالاً لم يفعلوها. أتوسّل إليـك إذ
أن تستعني عن هاتين الرسالتين وأن تواصل قراءتك.

المعلم- طلب إلي تبرير اختفائي، فقلت ما خطر ببالي. فجرى الاكتفـا
بما قلته وعاد كل شيء إلى سابق عهده.

جاك- ذلك يعني أنك واصلت عمليات الانفاق، وأن شؤونك الغرامية لـ
تحقّق أي تقدم.

المعلم- كان الفارس يستفسر مني حول ذلك الشأن، وبـدا عليـه نفـ
الصبر.

جاك- ربما نَفِد صبره حقاً.

المعلم- ولِمَ ذلك؟

جاك- لِمَ؟ لأنه...

المعلم- هيا، قل.

جاك- سأتجنّب ذلك بفوة. فينبغي أن تدع للراوي...

المعلم- دروسي أفادتك وذلك يبهجني. . عرض على الفارس يومـاً أ
نقوم بنزهة بمفردنا. فمضينا لقضاء النهار في الريف. انطلقنا في وقـ
مبكر. فتغدينا في النزل ثم تعشينا فيه. وكانت الخمرة لذيـذة، فشـربـ
فأكثرْنا، ونحن نتحدث في شؤون الحكم والدين والغزل. ولم يُبْـدِ لـ
الفارس قط مثل تلك الثقة، أو تلك المودة حيـالي. قـصّ علـيّ كافـ
مغامرات حياته بصراحة لا تصدّق، من غير أن يتكتّم على ما فيها مـ
خير أو من شر. كان يشرب فيعانقني فيبكي من شدة التـأثر. فأشـر

فأعانقه فأبكي بدوري. ولم يكن في سلوكه السابق كله سوى واقعة واحدة يلوم نفسه عليها. وسيحمل معه إلى قبره وزر الندم على فعلته.

"أيها الفارس، اعترف لصديقك، فذلك سيريحك. وما حقيقة الأمر، على كل حال؟ فعساها تكون هفوة، تساهم رقتك في تضخيم أهميتها؟"

فهتف الفارس وهو يحني رأسه ليستر وجهه بكفيه خجلاً:

-كلا، كلا. إنها وصمة، إنها وصمة عارٍ لا تغتفر. هل تصدق ذلك؟ فأنا الفارس دوسان وان، قمت مرّة بغشّ، أجل، بغشّ صديقي !

-وكيف جرى ذلك؟

-واأسفاه ! كنا وإياه في المنزل نفسه، مثلك أنت ومثلي. وكانت هنالك فتاة مثل الآنسة آغات. فكان هو يعشقها وكانت تحبني. وقد أرهق نفسه بالإنفاق عليها بينما أنا الذي كنت أستمتع بثمار وصلها. ولم تواتني الجرأة على أن أصرّح له بذلك. أما إذا التقينا معاً فسوف أقول له كل شيء. فذلك السرّ الرهيب الذي أحمله في أعماق القلب قد أضنى مهجتي، ولا بد لي بأيّ ثمن من أن أزيح عبأه عن كاهلي.

-حسناً تفعل، أيها الفارس.

-هل تنصحني بذلك؟

-أنصحك بذلك، بكل تأكيد.

-وكيف سيواجه صديقي الأمر حسب ظنك؟

-إذا كان صديقك، وكان سديد الرأي، فسوف يجد لك العذر في نفسه. وسوف تؤثر فيه صراحتك وتوبتك. سوف يحيط عنقك بذراعيه، فيفعل ما سأفعله لو كنت مكانه.

-أتعتقد ذلك؟

-أعتقد ذلك.

-وأنت على هذا النحو سوف تتصرف؟

-لست أشك في ذلك..."

فنهض الفارس من فوره، وتقدّم فاتحاً ذراعيه، والدموع في عينيه، قائلاً: "عانقني، إذن، يا صديقي."

فقلت له:

-ماذا، أيها الفارس! إذن أنتَ؟ إذن أنا؟ إذن تلك الخبيثة آغات؟

-أجل، يا صديقي. وأنا أُحِلُّك أيضاً من تعهدك، فلك الأمر في أن تتصرّف حيالي وفق ما يروقك. فإذا رأيت، مثلما أرى، أنّ إساءتي لا تغتفر فلا تغفر لي أبداً. بل انهض واتركني، ولا تنظر إليّ من بعد إلا بازدراء، وكِلْني لعذابي وعاري. آه يا صديقي! ليتك تعرف مدى السيطرة التي فرضتها تلك الصغيرة على فؤادي! لقد ولدتُ شهماً. فاحكم بنفسك على مدى عذابي بسبب الدور الدنيء الذي انحدرت إليه. وكم مرة حولت عينيّ عنها لأحدّق فيك وأنا أتأوّه لخيانتها وخيانتي! ولست بمصدّق أنك لم تلحظ ذلك البتّة..."

كنت في تلك الأثناء ساكناً كالميت، جامداً كالحجر. أكاد لا أسمع حديث الفارس. وهتفت :"يا للفعل الشائن! آه، أيها الفارس! أنت، أنت، صديقي !

-أجل، كنت صديقك، ولا أزال، ففي متناول يدي سرّ هو سرّها أكثر مما هو لي، لكي أحرّرك من ارتباطك بتلك المخلوقة. ويزيد في قنوطي أنك لم تنل منها ما يعوض شيئاً عن كل ما فعلته من أجلها." (هنا شرع جاك يصفر ويضحك.)

ولكن تلك هي "الحقيقة في الخمر"[1]، لكوليه... لستَ تدري، أيها القارئ ما تقول. ولفرط رغبتك في إظهار ذكائك، تثبت أنك غبي. فالحقيقة ضئيلة جداً في الخمر، بل بخلاف ذلك، إنه الغش في الخمر. ولقد تلفظتُ حيالك بكلمة سمجة، جعلتني ساخطاً، فأستميحك عذراً.

[1] إشارة إلى المثل اللاتيني: in vino veritas في الخمر الحقيقة. ومعناه أن المرء حين يشرب الخمر، يظهر على حقيقته، صالحاً أم طالحاً، أما القصد هنا فأن الفارس قد يضمر مكراً وشراً على عكس ما أبدى م.

المعلم– وأخذ غضبي يهدأ شيئاً فشيئاً. فعانقت الفارس. فجلس على كرسيه، معتمداً بمرفقيه على المائدة، واضعاً قبضتيه على عينيه، فيتّقي أن ينظر إليّ.

جاك– كان مغتمّاً جداً! ودفعتك طيبة قلبك لمواساته؟.. (وعاد جاك يصفر.)

المعلم– أما القرار الذي آثرت اتخاذه، فهو أن أنحو بالمسألة شطر المزاج. وصار الفارس يقول لي مرتبكاً، بعد كل كلمة مرحة :"ليس في العالم رجل مثلك. أنت نسيج وحدك. أنت تفضلني بمئة مرة. ويخامرني الشك في أن أتحلّى بالشهامة نفسها أو القدرة على الصفح عنك لإهانة مماثلة، وها أنت تواجه الأمر بالدعابة. إن ذلك ليس له مثيل. فيا صديقي ماذا يسعني أن أفعل على سبيل الاستدراك؟. . ويلي ! كلا، كلا، فذلك لا يمكن استدراكه. وأنا لن أنسى جريمتي أبداً، وأبداً لن أنسى تسامحك. هذان خطان انحفرا بعمق هنا. ولسوف أتذكر الأول حتى أزدري نفسي، وأتذكّر الثاني لكي أجلّك، وأضاعف من تعلّقي بك.

–هلم أيها الفارس، وحسبك ذلك، فأنت تبالغ في تضخيم فعلتك وتصرفي. تعال نشرب، نخب صحتك." واستعاد الفارس جرأته تدريجياً. فقصّ علي كافة تفاصيل خيانته، واصماً نفسه بأشدّ النعوت قسوة. فجل يقطّع إرباً إرباً، سمعة الفتاة والأم والأب والخالات والعمّات وكافة أفراد الأسرة. فيعرضهم أمامي على أنهم لُمامة من الحثالة، الذين لا يليقون بي، بل يليقون به هو. وتلك كانت كلماته بحذافيرها.

جاك– هذا ما يجعلني أنصح النساء بألا يضاجعن رجالاً يسكرون. لست ازدري صديقك الفارس على إفشائه الأسرار الغرامية بأقل منه على غدره بالصداقة. ويحه ! ليس له إلاّ... أن يكون شهماً فيكلمك بادئ الأمر... لكن اسمعني، يا سيدي، فأنا مصرّ على أنه صعلوك، إنه صعلوك حقير. لست أدري إلامَ سيؤول كل ذلك. فأنا أخشى أن يغشّك

وهو يسعى لأن يهديك. فاخرج بي واخرج بنفسك مسرعاً من ذلك المنزل ومن صحبة ذلك الرجل...

هنا تناول جاك قربته ناسياً أنها خاوية من الزهورات والنبيذ. فأغرق معلمه في الضحك. وسعل جاك لربع ساعة بشكل متواصل. فأخرج معلمه ساعته وعلبة نشوقه، وواصل قصته التي سأقطعها، إن كان يلائمك ذلك، ولو كان لفترة تكفي لإغاظة جاك، بإثباته له أنه ليس مكتوباً فوق، على نحو ما يعتقد، أنّ حديثه هو ينقطع على الدوام ولا ينقطع حديث معلمه أبداً.

المعلم- *يقول للفارس*- آمل، من بعد ما قلته لي عليهم، أنك لن تراهم أبداً.

الفارس- أنا، أراهم مجدداً! ..لكن ما يثير قنوطي، أن نذهب من غير أن نثأر. لقد غشّوا رجلاً لطيف المعشر وتلاعبوا به، وسخروا منه وابتزّوا ماله. كما أساءوا استغلال العاطفة والضعف لدى رجل آخر رقيق الحاشية، فأنا ما أزال أعتبر نفسي كذلك، ليورّطوه في سلسلة من الأفعال الرهيبة. ولقد عرّضوا صديقين لتبادل الكراهية، بل ربما للتذابح، فأنت يا عزيزي ستوافقني على أنك لو اكتشفت فعلتي المشينة بنفسك، مع ما تتمتع به من شجاعة، لربما انتابك مثل ذلك الإحساس .

-كلا، فما كان للأمور أن تبلغ ذلك الحد. ولم إذن؟ وفي سبيل من؟ أمن أجل غلطة لا يستطيع أحد أن يتعهّد بعدم ارتكابها؟ وهل هي زوجتي؟ ومتى ستغدو زوجتي؟ وهل هي ابنتي؟ كلا، إنها صعلوكة ضئيلة. فهل تظن أني من أجل صعلوكة ضئيلة. . هيا، يا صديقي، دعك من ذلك ولنشرب. إن آغات لفتية متوقّدة، بيضاء وسمينة وممتلئة. إنّها الجسد

الأكثر صلابة، أليس كذلك؟ والبشرة الأكثر نعومة؟ لا بدّ أن يكون الاستمتاع بها لذيذاً، وأتخيلك كيف كنت بين ذراعيها تطفح سعادة تمنعك منعاً باتاً من التفكير بأصدقائك.

-إذا كان من شأن مفاتنها الشخصية ومن شأن المتعة، التخفيف من الخطيئة، فمن المؤكّد أن لا يكون تحت السماء من هو أقل ذنباً مني.

-إيه، أيها الفارس، ها أنا أعود أدراجي، فأسحب تسامحي، لأني أريد أن أضع شرطاً على تناسي خيانتك.

-تكلّم، يا صديقي، مُرْ، قل، هل أرمي بنفسي من النافذة، أم أشنق نفسي، أم أغرق، أم أغرس في صدري هذا الخنجر؟...

وتناول الفارس من فوره خنجراً كان على المنضدة، فنزع طوقه وفتح قميصه، ووضع وهو رائغ العينين، رأس الحنجر الذي كان يقبض عليه بيده اليمنى، على تجويف الترقوة اليسرى، وبدا كأنه لا ينتظر سوى أمري ليميت نفسه على طريقة القدماء.

"ليس ذلك هو المقصود، أيها الفارس، فدع الخنجر جانباً.

-لن أدعه. فذلك ما أستحقّه. أعطني إشارة.

-قلت لك دع هذا الخنجر اللعين جانباً، فلست أضع حياتك مقابل ذلك الثمن. " غير أن رأس الخنجر ظلّ مرتكزاً على تجويف الترقوة اليسرى. فقبضت على يده، وانتزعت منه الخنجر فرميت به بعيداً، ثم قلت له وأنا أقرّب الزجاجة من كأسه فأترعها: "لنشرب أولاً، فتعرف من بعد ما هو الشرط الرهيب الذي أعلّق الصفح عليه. قلتَ إنّ آغات عذبة جداً، وشهية جداً؟

-إيه، يا صديقي، ليتك تعرف ذلك مثلما أعرفه أنا.

-لكن حسبك، ينبغي أن يأتونا بزجاجة شمبانيا، وبعدها تقص عليّ حكاية واحدة من لياليك. أيها الخائن الفارس، ستنال غفرانك لدى نهاية تلك الحكاية، هيا، ابدأ: ألست تسمعني؟

-أسمعك.

-هل يبدو لك قراري مفرطاً في قسوته؟

-كلا.

-أنت تمعن التفكير؟

-أمعن التفكير.

-في أنني سألتك؟

-حكاية واحدة من لياليّ مع آغات.

-ذلك ما أريده."

أخذ الفارس في تلك الأثناء يقيسني من رأسي حتى قدميّ فيحدّث نفسه قائلاً :"القامة هي القامة والسنّ نفسها تقريباً. وإذا ما ظهر فارق ما، فليس هنالك من نور، أما التخيّل المسبق بأنني أنا، فلن يدعها تشك في شيء...

-ولكن، بم عساك تفكر، أيها الفارس؟ فكأسك ما زالت ملأى وأنت لمّا تبدأ!

-أفكر، يا صديقي، بل فكّرتُ في الأمر فانجلى كل شيء: عانقني، فسوف نثأر، بلى، سوف نفعل. إنه سلوك فاسق من جانبي. وإذا لم يكن لائقاً بي، فهو ليس كذلك بالماكرة الصغيرة. لقد طلبتَ إليّ حكاية واحدة من لياليّ؟

-أجل: فهل هو إفراط في الطلب؟

-كلا، ولكن ماذا ترى لو أبدلت لك الحكاية بليلة؟

-سيكون ذلك أفضل قليلاً." (*ينسرع جاك في الصفير.*)

وأخرج الفارس على أثر ذلك مفتاحين من جيبه، أحدهما صغير والآخر كبير. وقال لي :"الصغير هو مفتاح باب الشارع، أما الكبير فمفتاح مدخل الجناح إلى عند آغات. هاك الاثنين، فهما تحت تصرفك. وإليك خطتي كل يوم، منذ ما يقارب الستة أشهر. فنظّم حركتك وفقاً لها. نوافدها هي الأمامية كما تعلم. فأتجوّل في الشارع، ما دمتُ أراها مضاءة. أما الإشارة المتفق عليها، فإناء من الحبق يوضع خارجاً. عندئذٍ اقترب من باب الدخول، فأفتحه فأدخل فأغلقه فأصعد بأقصى ما أستطيع

من الهدوء. فأنحرف عبر الدهليز الصغير إلى اليمين. وأول باب على اليسار في الدهليز هو بابها كما تعلم. فأفتح ذلك الباب بالمفتاح الكبير، وادخل إلى غرفة الملابس الصغيرة على اليمين، فأجد فيها شمعة صغيرة، فأخلع ملابسي على ضوئها بكل راحة. وتدع آغات باب غرفتها نصف مفتوح، فأدخل فأمضي لألقاها في سريرها. هل أدركت ذلك؟

-كل الإدراك.

-أما ونحن محاطان فنلتزم الصمت.

-كما أعتقد أن الفعل خير لكما من الهذر.

-وإذا ما طرأ طارئ فبوسعي أن أثب من سريرها لألجأ إلى غرفة الملابس، غير أن دلك لم يحدث البتة. والمألوف لدينا أن نتفارق في حدود الرابعة صباحاً. أما حين تمضي بنا المتعة أو الراحة إلى أبعد من ذلك، فنغادر السرير معاً. فتنزل هي وأمكث أنا في عرفة الملابس، فأرتدي ثيابي وأقرأ وأستريح وأنتظر أن تحين ساعة الظهور. فأنزل فألقي التحية فأعانق كأني واصل لتوّي.

-وهل أنت مُنْتَظَرٌ في هذه الليلة؟

-أنا أُنْتَظَرُ في كل ليلة.

-وتتخلّى عن مكانك لي؟

-من كل قلبي. فلا يضيرني في شيء أن تفضّل الليلة على الحكاية. غير أن ما كنت أتمنّاه، هو أن...

-أعرب عما في نفسك. فليس من شيء يحول دون إقدامي على فعل ما يخدمك.

-أن تظلّ بين ذراعيها حتى طلوع النهار. فأصلُ فأباغتكما.

-آه، كلا، أيها الفارس، ستكون تلك إساءة مفرطة.

-إساءة مفرطة؟ لست على نحو ما تعتقد. لأني سأخلع ملابسي أولاً في حجرة الملابس.

-ويحك، أيها الفارس، فأنت شديد الاهتياج. لكن ذلك غير ممكن: إذا ما أعطيتني المفاتيح، فلن تظل معك.

-آه، يا صديقي، كم أنت غبي!

-لست مفرط الغباء، على ما يبدو لي.

-ولِمَ لا ندخل نحن الاثنين معاً؟ فتمضي أنت إلى آغات وألبث أنا في حجرة الملابس، لحين صدور إشارة منك، نتفق عليها.

-أقسم على أنها فكرة ممتعة جداً وجنونية جداً، حتى أكاد أوافق عليها. لكني أرى، بعد كل حساب أيها الفارس، إن من الأفضل تأجيل هذه الدعابة حتى إحدى الليالي التالية.

-آه، فهمت، فأنت تنوي أن تثأر أكثر من مرة.

-إذا ما قبلت بذلك؟

-القبول تام."

جاك- صديقك الفارس يقلب أفكاري رأساً على عقب. فقد تخيلتُ.

المعلم- تخيّلتَ؟

جاك- كلا، يا سيدي، فبوسعك أن تواصل.

المعلم- شربنا وقلنا حماقات لا تحصى، سواء حول الليلة التي تقترب أو الليالي القادمة، والليلة التي سنجد آغات نفسها فيها بين الفارس وبيني. واستعاد الفارس مرحه الرائع، وابتعدنا في حديثنا عن كل ما يشجي. فشرع يملي عليّ مبادئ السلوك الليلي، ولم يكن من السهولة إتباعها كلها، أما من بعد سلسلة من الليالي المتواصلة التي أُتقِنت عملاً، فسوف يغدو بوسعي أن أبزّ الفارس في الرهان، مهما أظهر من تباه. وتلت من بعد تفاصيل لا تنتهي حول مواهب آغات وكمالاتها ووسائل الراحة لديها. وأضاف الفارس بمهارة لا تضاهى نشوة الهوى إلى نشوة الخمر. وبدا لنا موعد المغامرة أو الثأر وهو يقترب متمهّلاً. ونهضنا عن المائدة. فبادر الفارس إلى دفع الكلفة وكانت تلك أول مرة يقوم فيها بتلك

المبادرة. وركبنا في عربتنا. وكنا ثملين وكان حوذينا وخدمنا أكثر سكراً منا.

هل ما يمنعني، أيها القارئ، من أن أقوم هنا بإلقاء الحوذي والخيول والعربة والسيدين والخدم في بركة موحلة؟ وإذا كانت البركة الموحلة تخيفك، فهل ما يمنعني من أن أقودهم سالمين معافين إلى المدينة، لأجعل عربتهم تعلق بعربة أخرى تقل مجموعة من الشبان الآخرين السكارى؟ سوف تسمع عندها كلمات نابية فمشاجرة فاستلال سيوف وفوضى لا يعرف لها أول من آخر. وما يمنعني، إذا كنت لا تهوى المشاجرات، من أن استبدل بأولئك الشبان الآنسة آغات وواحدة من خالاتها؟ لكن لم يحصل شيء من ذلك. لقد وصل الفارس ومعلم جاك إلى باريس. فأخذ هذا الأخير ملابس الفارس. وانتصف الليل وهما تحت نوافذ آغات. وأطفئ النور وكان إناء الحبق في موضعه. فقاما بجولة أخيرة من طرف الشارع إلى نهايته، والفارس يكرر على صديقه أمثولته. اقتربا من الباب، ففتحه الفارس وأدخل معلم جاك، واحتفظ لنفسه بمفتاح باب الشارع، بينما أعطى صديقه مفتاح الدهليز، ثم أغلق الباب وابتعد، وبعد ذلك التفصيل الصغير الذي جرى باقتضاب، استأنف معلم جاك الكلام فقال:

"كان المكان معروفاً لدي. صعدت على رأس قدميّ، فتحت باب الدهليز ثم أغلقته ودخلت إلى حجرة الملابس حيث وجدت الفانوس الصغير. خلعت ملابسي وكان باب الغرفة نصف مفتوح فدخلت. قصدت المخدع فلم أجد آغات نائمة. سحبت الستارة لأشعر على الفور بذراعين عاريتين تطوّقاني فتجتذباني، استسلمت ورقدت لأجد نفسي غارقاً بالملاطفات التي قابلتها بمثلها. وها أنا الإنسان الأكثر سعادة في العالم. وكنت ما أزال كذلك حين.. "

حين لاحظ المعلم أن جاك كان نائماً أو يتظاهر بالنوم قال له: "لقد نمت، لقد نمت أيها السافل في أمتع لحظة من قصتي ! .." وفي تلك اللحظة نفسها كان جاك ينتظر معلمه ."هل ستستيقظ؟

-لا أظن ذلك.

-ولماذا؟

-ذلك أني إذا ما استيقظت، استيقظ ألم حلقي أيضاً، فأرى من الخير أن نخلد للراحة نحن الاثنين..."

وترك جاك رأسه يسقط إلى أمام.

-سوف يُدَق عنقك.

-بكل تأكيد، إن كان ذلك مكتوباً فوق. ألست بين ذراعي الآنسة آغات؟

-بلى.

-ألست هنالك على أحسن ما يرام؟

-في أحسن حال.

-ابق في مكانك.

-يروقك أن تقول أن أبقى في مكاني.

-إلى حين أن أعرف حكاية لزقة ديغلان على الأقل.

المعلم- أنت تثأر مني، أيها الغادر.

جاك- وحين يأتي ذلك، يا معلمي، بعد أن قطعت قصة غرامياتي بآلاف الأسئلة، وآلاف الخواطر العابرة، دون أي تذمّر من جانبي، ألا يسعني أن أتوسّل إليك أن تقطع قصتك، لتخبرني بحكاية اللزقة لذلك الرجل الصالح ديغلان، الذي أدينُ له بالكثير، والذي أنقذني من منزل الجراح، حين أعوزني المال فما عدت أدري إلى أين أنا صائر، والذي عرفت عنده دينيز، دينيز التي لولاها ما فتحت فمي بكلمة واحدة طول سفرنا؟ يا معلمي، يا معلمي الغالي، هات قصة لزقة ديغلان. أوجزها على قدر ما يروقك. وفي أثناء ذلك يتبدّد الخدر الذي يستولي علي، من غير أن أقوى على التحكّم به، ويمكنك الاعتماد على انتباهي التام.

المعلم- نهز بكتفيه فقال- كانت تقيم بجوار قصر ديعلان أرملة فاتنة، ذات مناقب عديدة ومشتركة مع غانية شهيرة من القرن الماضي. حكيمة بعقلها متهتكة بطبعها، ينتابها الأسى في الغد على حماقة ارتكبتها بالأمس، فأمضت حياتها كلها وهي تنتقل من المتعة إلى الندامة ومن الندامة إلى المتعة، من غير أن تقوى عادة المتعة على خنق الندامة، أو تقوى عادة الندامة على خنق المتعة. وعرفتها أنا في مراحلها الأخيرة. كانت تقول إنها أفلتت من عدوّين كبيرين في نهاية الأمر. أما زوجها المتساهل حيالها بشأن العيب الوحيد الذي يسعه أن يأخذه عليها، فكان يرقّ لحالها وهي على قيد الحياة، وحزن عليها طويلاً بعد موتها. وكان يدعي أنه لو منع زوجته من العشق لأتى عملاً مثيراً للاستهزاء كما لو منعها من الشراب. وكان يعذرها على تعدّد غزواتها سعياً وراء حسن الاختيار الذي كانت تبديه. فما كانت تقبل قط بإطراء يأتيها من أحمق أو لئيم: فتغدق آيات حبّها على الدوام مكافأة على الموهبة أو النزاهة. وإذا قلتَ عن رجل إنه عشيقها أو كان عشيقاً لها، فذلك تأكيد منك على أنه رجل ذو فضل أو قيمة. أمّا وأنها تعي ما هي عليه من طيش، فلم تتعهد يوماً بالوفاء لأحد. فتقول :"لم أقسم يميناً كاذباً في حياتي سوى مرة واحدة، إنّه اليمين الأول." وإما أن تكون العاطفة الغامرة نحوها قد هدأت، أو أنها فقدت العاطفة التي ألهموها إياها، فظلت روابط الصداقة قائمة. ولم يتوفر يوماً من مثال صارخ مثلها على الفارق ما بين الشهامة والأخلاق.فليس بوسع أحد أن يتكلم عن الأخلاق لديها، لكن الكل يقرّ بصعوبة العثور على امرأة تفوقها شهامة. فقلّما كان الكاهن يراها جاثية أمام الهيكل. لكنه يجد كيس نقودها مفتوحاً دوماً للفقراء فتهب دون حساب. وتتكلم عن الدين والقوانين مازحة فتقول إنهما عكازان ينبغي ألا تُنزعا من أيدي ذوي السيقان الضعيفة. وإذا كانت النساء يخشين على أزواجهن من مخالطتها فهن يرغبن فيها لخير أطفالهن.

جاك– من بعد أن جمجم قائلاً:"لا بد أن أنتقم منك بسبب تلك الصورة اللعينة" أضاف قائلاً– ولقد جُنِنْتَ أنت في هوى تلك المرأة؟

المعلم– كان ذلك سيقع دون شك، لولا أن ديغلان كان أسرع مني. فقد وقع ديغلان في هواها...

جاك– سيدي، هل حكاية لزقته وحكاية غرامه على درجة من الارتباط، حتى لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى؟

المعلم– يمكن الفصل بينهما. فاللزقة واقعة طارئة، أما الحكاية فتسرد كل ما جرى طيلة فترة عشقهما.

جاك– وهل جرت أشياء كثيرة؟

المعلم– كثيرة جداً.

جاك– إذا أعطيت في هذه الحال، لكل واقعة، نفس المدى الذي أعطيته لصورة البطلة، فلن نخرج منها حتى عيد العنصرة، ولنقرئ قصة غرامياتك وغرامياتي السلام.

المعلم– إذن يا جاك، لِمَ قمت بتشتيت ذهني؟... ألم تقع عينك عند ديغلان على ولد صغير؟

جاك– شرير، عنيد، وقح وسقيم؟ بلى، رأيته.

المعلم– إنه الابن الطبيعي لكل من ديغلان والأرملة الحسناء.

جاك– لقد سبب له ذلك الولد عناءً كبيراً. فهو ولد وحيد، وتلك عِلّة كافية لأن يصير تافهاً ليس إلاّ. وهو يعرف أنه سيغدو غنياً، وتلك علة أخرى كافية لأن يصير تافهاً ليس إلاّ.

المعلم– أما وأنه سقيم، فلم يعلّموه شيئاً. ولا ضايقوه في شيء، ولا عارضوه في أمر، وتلك علة ثالثة كافية لأن يصير تافهاً ليس إلاّ.

جاك– في إحدى الليالي شرع المجنون الصغير يطلق صرخات لا إنسانية. فاستُنفِر كل من في المنزل فهرعوا إليه. كان يريد أن ينهض أبوه.

–أبوك نائم.

–لا يهمني، أريده أن ينهض، أريده، أريده...

-إنه مريض.

-لا يهمني، يجب أن ينهض، أريده، أريده...

وأيقظوا ديغلان فألقى بمبذله على كتفيه وجاءه.

-طيب ! يا حبيبي، ها أنذا، فماذا تريد؟

-أريد أن تجعلوهم يأتون.

-من هم؟

-جميع من هم في القصر.

فأحضروهم جميعاً من حرفيين وخدم وغرباء وندامى. وجان ودينيز وأنا بركبتي المصابة، الجميع باستثناء بوابة مسنّة عاجزة اعتزلت العمل فأعطوها كوخاً للإقامة على بعد ربع فرسخ من القصر. فأراد أن يذهبوا لإحضارها.

-ولكن يا بني، الليل قد انتصف.

-أريد حضورها، أريدها.

-أنت تعرف أنها تقيم بعيداً جداً.

-وأنها مسنّة وعاجزة عن المشي.

-أريد ذلك، أريدها.

كان ينبغي على البوّابة المسكينة أن تحضر. وقد أتوا بها. ولو تركت لتأتي وحدها لنهبت الدرب نهباً. وحين صرنا كلنا مجتمعين طلب أن ينهضوه فيلبسوه. وها هو ناهض لابس. فأراد أن ننتقل جميعاً إلى الصالة الكبرى وأن يجلسوه في الصدر على الكنبة الكبرى التي يجلس عليها أبوه. وقد نفذوا ما طلب. فأراد أن نمسك جميعاً بأيدي بعضنا بعضاً. فأراد أن نرقص جميعاً رقصة دائرية، وشرعنا كلنا نرقص في حلقة رقص كبرى. وأمّا الباقي فلا يُصدّق...

المعلم- آمل أن تعفيني من الباقي.

جاك- كلا، كلا، يا سيدي، فسوف تصغي للباقي... فهو يظن أنه رسم لي صورة للأم طولها أربع قامات من غير أن أقتصّ منه.

المعلم- يا جاك، أنا أدلّلك.

جاك- إنها غلطتك.

المعلم- أنت ما تزال مغتماً من الصورة الطويلة والمملة التي رسمتها للأرملة. لكنك كِلْتَ لي، على ما أرى، الصاع صاعين بالحكاية الطويلة والمملّة على نزوة الولد.

جاك- إن كان رأيك، فاستأنف قصة الأب. لكن تحاشَ الصور يا معلمي. فأنا أمقت الصور مقتاً شديداً.

المعلم- ولم تمقت الصور؟

جاك- ذلك أن شبهها ضئيل جداً، حتى إذا ما صدف ولقيتَ الأصل، ما عرفتّه. اسردْ لي الوقائع. انقلْ ليَ الأحاديث بأمانة، أعرف من بعد من الرجل الذي أتصلُ به. فكلمة واحدة أو إشارة أعلمتاني أحياناً أكثر من ثرثرة مدينة بحالها.

المعلم- قام ديغلان ذات يوم...

جاك- حين تكون غائباً، أدخلُ مكتبتك، فأتناول كتاباً ما، هو في الغالب أحد كتب التاريخ.

المعلم- قام ديغلان دات يوم...

جاك- فاقرأ بسرعة كافة الصور.

المعلم- قام ديغلان ذات يوم...

جاك- معذرة، يا معلمي، فالماكنة كانت دائرة ولا بد لها من أن تستكمل دورانها.

المعلم- وهل بَلَغَتِ النهاية؟

جاك- بلغتْها.

المعلم- قام ديغلان ذات يوم بدعوة الأرملة الحسناء على الغداء ومعها بعض النبلاء المقيمين في الجوار. وأما علاقة ديغلان بها ففي أواخر عهدها. وكان من بين المدعوّين واحد بدأ طبعها المتقلّب يميل إليه. فجلس ديغلان وخصمه جنباً إلى جنب والأرملة الحسناء بمواجهتهما. واستخدم

ديغلان كل ما لديه من فطنة لإثارة الحديث. فأخذ يوجه للأرملة أرقّ العبارات. لكن عيناها، وهي شاردة عنه، تحدّقان بخصمه. كان ديغلان يمسك بيضة طازجة بيده. وفي ومضة تشنج جاءته، بسبب الغيرة، شدّ قبضتيه، فاندلقت البيضة خارج قشرتها لتلطّخ وجه جاره. فقام هذا الأخير بحركة من يده. فقبض ديغلان بيده على معصمه فأوقعه وهمس في أذنه قائلاً: "يا سيد، أعتبرُه قد وصل[1]. " فخيّم صمت عميق. وأوشك أن يغمى على السيدة. وأضحى الطعام كئيباً وقصيراً. ولدى النهوض عن المائدة استدعت ديغلان وغريمه إلى جناح منفرد، وفعلت كل ما يسع امرأة أن تفعله بحشمة ولياقة للصلح بينهما. فتوسّلت فبكت ففقدت وعيها بشكل حقيقي. كانت تشدّ على يدَي ديعلان فتحوّل عينيها نحو الآخر. فتقول لهذا: "وأنت تحبني ! ..." وتقول لذاك: "وأنت أحببتني !..." وللاثنين معاً :"أنتما تريدان القضاء عليّ، وتنويان أن تجعلا مني حكاية المقاطعة كلها وموضوع حقدها وازدرائها! فأياً كان الذي سيحرم عدوّه الحياة، فلن أراه أبداً. ولا يمكنه أن يكون صديقي أو حبيبي، بل سأحمل له حقداً لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي.. " ثم وقعت مغشياً عليها وهي تقول أثناء سقوطها "أيها القساة، فليستل كل منكما سيفه فيشك به صدري. وإذا ما رأيتكما وأنا ألفظ أنفاسي تتعانقان فسوف أقضي غير آسفة!.. " وظل ديعلان وغريمه ساكنين أو أسعفاها، وأعينهما تذرف بعض الدموع. وكان لا بد- في تلك الأثناء من أن يعترقا. فأوصلوا الأرملة إلى بيتها وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

جاك- طيب، يا سيدي، ما كانت حاجتي للصورة التي رسمتها لي عن تلك المرأة؟ ألست أعرف الآن ما قلته عنها؟

(1) المقصود هو الطلب للمبارزة: كانت كل حركة أو إيماءة أو حتى نظرة، تعتبر لدى السلاء تحدياً وطلباً للمبارزة ولا يبقى بعد قبول الطرف الآخر سوى الاتفاق على المكان والزمان، واختيار السلاح، الذي يتركه البادئ بالتحدي عادة لخصمه .م.

المعلم– توجه ديغلان لزيارة فاتنته المتقلّبة فلقي غريمه عندها. فمن الذي اعترته الدهشة. لقد اعترت هذا وتلك لرؤيتهما ديغلان وخده الأيمن مغطى بدائرة كبيرة من قماش التّفتا الأسود. فقال الأرملة:

–ما هذا؟

ديغلان– لا شيء.

غريمه– شيء من الاحتقان؟

ديغلان– مسألة عابرة.

وخرج ديغلان بعد حديث قصير، وأومأ إلى غريمه، وهو خارج، بإشارة فهمت على أحسن ما يكون الفهم. ونزل هذا الأخير، فتوجه أحدهما نحو أحد طرفي الشارع وتوجه الآخر نحو الطرف المعاكس. فتلاقيا خلف حدائق الأرملة الحسناء فتبارزا. وظل عريم ديعلان ممدداً على الأرض، مصاباً بجرح بليغ لكنه غير مميت. وفيما كانوا ينقلونه إلى بيته، رجع ديغلان للقاء صاحبته الأرملة، فجلس وتحادثا في واقعة الأمس. فسألته عن مغزى تلك الشامة الكبيرة والقبيحة التى تغطّي خده. فنهض ونظر في المرآة، ثم قال لها :"أجدها في الواقع كبيرة أكثر مما ينبغي..." وأخذ مقص السيدة، وانتزع لزقة التّفتا، وقصّها بشكل مقوس من حوافها ثم أعادها فقال للأرملة:

–وكيف تجدينني الآن؟

–أقل قبحاً من السابق بقليل.

–لا بأس على كل حال.

وتعافى غريم ديغلان. فكانت مبارزة ثانية ظل النصر فيها معقوداً لديغلان: وهكذا على التوالي خمس مرات أو ست. وبعد كل مبارزة يقوم ديغلان بتضييق دائرة بقعة التّفتا السوداء فيعيد لصقها على خده.

جاك– وكيف كانت خاتمة تلك المعامرة؟ إذ يبدو لي أنهم حين نقلوني إلى القصر لم يكن من دائرة سوداء على خد ديغلان.

المعلم- كلا. فنهاية تلك المغامرة ارتبطت بنهاية الأرملة الحسناء. فقد أضنى صحتها المتداعية الحزن الطويل الذي انتابها من جرائها.

جاك- وديغلان؟

المعلم- كنا نتجول معاً ذات يوم، فجاءته بطاقة، ففتحها فقال :"كان رجلاً جسوراً جداً، غير أن موته لن يصيبني بالغمّ." وانتزع على الفور ما تبقى على خده من اللزقة المستديرة السوداء، التي تناقصت من كثرة ما اقتطع من حوافيها حتى صارت بحجم ذبابة عادية. وتلك هي قصة ديغلان. فهل جاك راضٍ؟ وهل يسعني أن آمل أن يصغي لقصة غرامياتي أو أن يستأنف قصة غرامياته؟

جاك- لا هذه ولا تلك.المعلم- والسبب؟

جاك- ذلك أن الطقس حار وأنا مرهق، وهذا المكان رائع وأننا سنجلس في ظل تلك الأشجار وأننا إذا نعمنا بالنداوة عند ضفة تلك الساقية فسوف نرتاح.

المعلم- أوافق على ذلك. لكن ماذا بشأن زكامك؟

جاك- إنه من الحرارة. ويقول الأطباء إنّ الضدَّ يشفي داءه الضدُّ.

المعلم- ذلك صحيح بالمجرد كما بالمحسوس. فأنا لاحظت شيئاً فريداً. إذ ليس من حكمة أخلاقية إلا وضعوا لها قولاً مأثوراً في الطب. وقلما تجد بالمقابل من قول مأثور في الطب إلا وتقابله حكمة أخلاقية.

جاك- ذلك واقع.

وترجلا، فتمدّدا على العشب. فقال جاك لمعلمه: أتستيقظ؟ أم تنام؟ إن تبقَ مستيقظاً أنَمْ. وإن تَنَمْ أبقَ مستيقظاً.

فقال له معلمه: نَمْ، نَمْ.

جاك- هل يمكنني الاعتماد على أنك ستبقى مستيقظاً؟ ذلك أننا هذه المرة قد نفقد هنا حصانين اثنين.

وأخرج المعلم ساعته وعلبة نشوقه. واتخذ جاك وضعية الرقاد. لكنه كان ينهض مجفلاً بين لحظة وأخرى وهو يصفق كفاً بكف. فقال له معلمه:

-وممن أنت مغتاظ بحق الله؟

جاك- إني مغتاظ من الذباب والبعوض. ألا كم أودّ أن يقال لي ما نفع تلك البهائم المزعجة؟

المعلم- ولأنك تجهل دلك فأنت تعتقد أنها لا تفيد في شيء؟ فالطبيعة لم تصنع من شيء دونما طائل.

جاك- أعتقد دلك. فما دام الشيء قد كان فينبغي أن يكون.

المعلم- حين تشعر أن لديك شيئاً من الدم الزائد أو الفاسد فماذا تفعل؟ إنك تستدعي جراحاً يفصدك فيستخرج لك ما يملأ حوجلتين أو ثلاث. لا بأس! إن هذا البعوص الذي تشكو منه لهو أرجالٌ من الجراحين الصغار المجنحين الذين يأتون فيلسعونك بمفاصدهم الصغيرة ويستخرحون من دمك قطرة إثر قطرة.

جاك- أجل، لكنهم يفعلون ذلك دونما تمييز، ومن غير أن يعرفوا إن كان لدي فائض أو نقص. هات إلي هنا سقيماً مهزولاً، وانظر إذا كان الجراحون الصغار المجنحون لا يخزونه. إنهم يفكرون بأنفسهم. وكل ما في الطبيعة يفكّر بنفسه ولا يفكّر إلا بنفسه. وإذا ما أساء ذلك للآخرين فما همّه؟ حسبه أن يكون هو على ما يرام؟...

وصفق بعدئذٍ كفاً بكف في الهواء قائلاً: فيلدهب الشيطان بالجراحين الصغار المجنحين.

المعلم- هل تعرف حكاية غارو[1] الخرافية؟

جاك- أجل.

المعلم- كيف تجدها؟

جاك- رديئة.

المعلم- هدا ما يسهل قوله.

[1] من أمثال لافونتين (1621-1695)وحكاياته قصة غارو، الذي حلس تحت سنديانة صحمة ينظر باستهجان،ويفكّر كيف تحمل ثماراً صغيرة كالإصبع،بينما ستة نخيلة تحمل قرعة صحمة كالقربة ثم يغفو فتسقط بلوطة على أنفه فتدميه.فيهبّ مذعوراً ليتساءل عن مصيره، لو سقطت قرعة على رأسه بدلاً من البلوطة فيسبّح بحمد الخالق وحسن صنيعه ـم ـ

جاك- ويسهل البرهان عليه. فلو كانت السنديانة تحمل قرعاً بدلاً من البلوط، هل كانت نفس ذلك الغبيّ غارو تسوّل له النوم تحت السنديانة؟ ولو لم ينم تحت السنديانة، فما الفارق لديه في أن يسقط منها قرع أو بلوط؟ أعطِ ذلك لأولادك كي يقرؤوه.

المعلم- لكن فيلسوفاً اسمه مثل اسمك لا يريد ذلك.

جاك- لكل امرئ رأيه الخاص، وجان جاك[1] ليس جاك.

المعلم- وجاك على خطأ.

جاك- من يدري بذلك قبل بلوغ الكلمة الأخيرة من السطر الأخير في الصفحة التي تُكتبُ في الملف الكبير؟

المعلم- بم تفكّر؟

جاك- أفكر في أنك وأنت تكلمني وأنا أجيبك، كنت تكلمني من غير أن تشاء وكنت أجيبك من غير أن أشاء.

المعلم- ومن بعد؟

جاك-من بعد أننا ماكِنَتان حقيقيتان حيّتان ومفكّرتان.

المعلم- لكن ما الذي تريده الآن؟

جاك- الواقع أننا لا نزال كذلك رغم كل شيء. فليس في الماكنتين سوى نابض إضافي واحد يستخدم.

المعلم- وذلك النابض...؟

جاك- ألا فليأخذ الشيطان إن كنت أدرك أنه، يستطيع الحركة دون سبب. فرئيسي كان يقول :"ضع عِلّة يَتْلُها معلول. من علّة ضئيلة معلول ضئيل. من علة عرضيّة معلول عارض. من علّة متناوبة معلول متناوب. من علة مناوئة معلول متباطئ. من علّة معطّلة معلول معدوم."

المعلم- لكن يبدو لي أني أحِسّ داخل نفسي أني حرّ، مثلما أحسّ أن أفكّر.

جاك- رئيسي كان يقول :"بلى، فالآن وأنت لا تريد شيئاً، هاتِ انزلْ عن ظهر جوادك؟"

[1] جان جاك روسو،م

المعلم- طيب، أنزل.

جاك- وتنزل مبتهجاً، ودونما نفور، ومن عير جهد، كما يروقك تماماً أن تنزل أمام باب نزل ما؟

المعلم- ليس تماماً. ولكنّ ما الفارق، بشرط أن أنزل وأن أبرهن على أني حر؟

جاك- رئيسي كان يقول: "عجباً! ألم تلحظ أنك لولا معاكستي، ما خطر ببالك قط أن تتدهور فتدقّ عنقك؟ إذن أنا الذي أمسكت بقدمك فقلبتك من على سرجك. وإذا كان لسقوطك أن يبرهن على شيء، فليس إذن على أنك حرّ، بل على أنك أحمق." وكان رئيسي يقول أيضاً إنّ الاستمتاع بحريةٍ يمكن أن تمارَس دون باعث، لهو الطبع الحقيقي للمهووس.

المعلم- ذلك ما يفوق قدراتي. لكني سأظل أعتقد، رغماً عن رئيسك وعنك أنت، أني أريد حينما أريد-.

جاك- لكن إذا كنتَ الآن كما كنتَ في كل أوانٍ سيّد إرادتك، لِمَ لا تشاء الآن أن تهوى قِرْدة. ولِمَ لم تكف عن عشق آغات كلما رغبت في ذلك؟ يا معلمي، يمضي المرء ثلاثة أرباع حياته مسلوب الإرادة.

المعلم- ذلك صحيح.

جاك- ويفعل دون أن يريد.

المعلم- وسوف تبرهن لي على تلك الحال؟

جاك- إذا ما وافقت.

المعلم- أنا موافق.

جاك- ذلك ما هو آت، ولنتكلم عن شيء آخر..."

من بعد ذلك الهذر كله، وبعض الأقوال الأخرى على الشاكلة ذاتها، لزم الاثنان جانب الصمت. ورفع جاك قبعته الهائلة التي تقوم مقام الممطرة في الطقس الرديء، ومقام الشمسية في أوقات الحر، وهي

غطاء للرأس في كافة الأوقات، والمعبد المعتم الذي يقوم تحت سقفه دماغ من أروع الأدمغة التي عرفها الوجود، باستشارة القدر في المناسبات العظمى. أما وجناحا القبعة مرفوعان فيجعلان وجهه في منتصف جسمه تقريباً. وحين يرخيهما لا يعود يرى لأبعد من عشر خطى أمامه: وذلك ما جعله يعتاد على أن يتحسّس بأنفه الريح. وعندها يصح أن نقول على قبعته:

وهَبَ الإنسان وجهاً مستديراً نحو الأعلى، وأمره أن
ينظر إلى السماء وأن يرفع عينيه لتحدّقا بالنجوم.[1]

إذن بعد أن رفع جاك قبعته الهائلة، جال بناظريه بعيداً، فلمح زارعاً وقد انهال ضرباً على أحد الحصانين المشدودين إلى محراثه، من غير جدوى. فقد ربض ذلك الحصان الغبي والقوي في الثلّم، وذهبت محاولات الزّارع أدراج الرياح وهو يهزّ لجامه فيرجوه فيلاطفه فيتهدّده فيشتمه، فيضربه، فالحيوان ظل جامداً، يرفض النهوض بكل عناد.

وبعد أن تفكّر جاك في المشهد بعض الوقت، قال لمعلمه وقد اجتذب المشهد انتباهه أيضاً :"أتدري يا سيدي، ما الذي يجري هناك؟

المعلم– وماذا تريد أن يجري بالإضافة إلى ما أراه؟

جاك– ألا تتبيّن شيئاً؟

المعلم– كلا. وأنت، ما تتبيّن؟

جاك– أتبيّن أن ذلك الحيوان الأحمق والمتعجرف والكسول هو أحد سكان المدينة، وبما أنه مزهو من وضعه السابق كحصان يسرج، فهو يزدري المحراث. ولكي أوجز لك كل شيء بكلمة واحدة، أقول إنه حصانك، ورمز جاك الذي تراه، وآخرين عديدين من أمثاله الأنذال، الذين غادروا الأرياف ليأتوا فيعملوا في المدينة، والذين يفضّلون أن يتسولّوا كِسْرَةَ خبز في الشوارع أو الموت جوعاً على العودة للعمل في الزراعة، في المهنة الأكثر نفعاً والأكثر نبلاً من كافة المهن."

[1] بيتان باللاتينية من شعر أوفيديوس (43 ق م – 18 م)

وأغرق المعلم في الضحك، أما جاك فوجه خطابه للزّارع، الذي كان لا يسمعه، قائلاً: "أيها المسكين، اضرب، اضرب على قدر ما تشاء، فسوف تستهلك اكثر من قطعةٍ من سوطك قبل أن توحي لذلك الحقير بشيء من الكرامة الحقيقية وحب العمل..." وظل المعلم يضحك. أما جاك الذي تقاسمه نفاد الصبر والشفقة، فتقدّم صوب الزارع. ولم يقطع مئتي خطوة حتى التفت صوب معلمه وأخذ يصيح: "تعال، يا سيدي، تعال، إنه حصانك، إنّه حصانك."

وكان ذلك في الواقع. فما كاد الحيوان يتبين جاك ومعلمه حتى نهض من تلقاء نفسه، فهزّ عُرْفه وصهل وشبّ وقرّب خطمه من خطم رفيقه بكل رقة. بينما كان جاك، الذي استبدّ به الغيظ، يجمجم قائلاً: أيها الحقير والكسول والخامل، ماذا يمنعني من أن أوجّه لك عشرين رفسة بحذائي؟..." لكن معلمه، بخلاف ذلك، كان يعانقه، ويمسّد أعطافه بيدٍ ليربّت بالأخرى على كفله، وهو يوشك أن يبكي من الفرح قائلاً :"يا جوادي، يا جوادي المسكين، أنا عثرت عليك إذن !"

لكن الزارع كان في وادٍ آخر، فقال لهما :"أرى أيها السادة، أن هذا الحصان كان يوماً ملكاً لكم. غير أني أقتنيه على نحو مشروع. فقد اشتريته يوم آخر سوق. وإذا ما شئتم استرداده بثلثي ما دفعت فيه، أديتم لي خدمة عظمى. فساعة إخراجه من الاصطبل تراه كالعفريت. وساعة إسراجه تجده أشدّ أيضاً. لكن ما إن يصل إلى الحقل حتى يربض، ويستسلم للضرب على أن يجرّ المحراث قليلاً أو يحمل كيساً على ظهره. فهل ترحموني أيها السادة فتريحوني من هذا الحيوان اللعين؟ إنه جميل المنظر لكن لا نفع فيه سوى حركته السريعة تحت فارسه وليس ذلك غرضي أنا..." فعرضا عليه مبادلته بواحد من الحصانين الآخرين، والذي يلائمه أكثر. فقبل بذلك. وعاد مسافرانا

يسيران الهوينا إلى مكان استراحتهما، ليشاهدا من هناك، بكثير من الرضى، إن الحصان الذي تنازلا عنه للزارع قد قبل بوضعه الجديد دون أي نفور.

جاك- وماذا بعد، يا سيدي؟

المعلم- أما بعد، فليس من شك في أنك ملهم. فهل هذا من الله أم من الشيطان؟ إني أجهل ذلك. جاك، يا صديقي العزيز، أخشى أن يكون الشيطان يسكن فيك.

جاك- ولم الشيطان؟

المعلم- ذلكم أنك تصنع المعجزات. ومذهبك مشبوه جداً.

جاك- وما الناظم المشترك بين المذهب الذي يجاهر به المرء والمعجزات التي يصنعها؟

المعلم- أرى أنك لم تقرأ دوم لاتاست.

جاك- وماذا يقول دوم لاتاست ذاك، الذي لم أقرأه؟

المعلم- يقول إن الله والشيطان يصنعان المعجزات على حدّ سواء.

جاك- وكيف تتبيّن له معجزات الله من معجزات الشيطان؟

المعلم- من المذهب. إن كان المذهب صالحاً كانت المعجزات من الله. وإن كان شريراً كانت المعجزات من الشيطان.

هنا شرع جاك يصفر ثم أضاف:

-وما يدريني، وأنا الجاهل المسكين، إن كان مذهب صانع المعجزات حسناً أم خبيثاً؟ هلمّ، يا سيدي، نركب مطايانا. وما همك أن يكون عثورك على جواد من صنع الله أو فعل بعل زبول[1]؟ وهل يضيره ذلك في شيء؟

المعلم- كلا. ولكن، يا جاك، إذا كنت مسكوناً...

جاك- ما العلاج الناجع لذلك؟

[1] أحد أسماء رئيس الشياطين.

المعلم- سيتمثّل العلاج بانتظار التعزيم[1]... سيتمثّل في أن تقتصر على الماء المقدس كشراب وحيد.

جاك- أنا، يا سيدي، على الماء! جاك على الماء المقدس ! أفضّل أن تلبث ألف جوقة[2] من الشياطين ساكنة في جسدي على أن أشرب قطرة واحدة من الماء، مقدّساً كان أم غير مقدس. ألم تلحظ أنّي هيدروفوب[3]؟..."

رويدك! *هيدروفوب*! جاك قال *هيدروفوب*؟. . كلا، أيها القارئ كلا. اعترف أن الكلمة ليست منه. لكني أتحداك، وأنت على هذه القسوة في النقد، أن تقرأ مشهداً واحداً من ملهاة أو مأساة، أو حوارية واحدة، أيّاً كانت جودتها، من غير أن تقع على كلمة الكاتب من فم أحد شخوصه. فجاك قد قال: "سيدي، ألم تلاحظ حتى الآن أني حين أرى الماء أغدو مسعوراً؟. ." طيب؟ حين ذكرتُ قوله بشكل مغاير كنت أقلّ واقعية، لكن أكثر إيجازاً.

وركبا جواديهما فقال جاك لمعلمه :"كنت من قصة غرامياتك، في الوقت الذي بعد أن سعدت مرتين، ربما بدأت تستعد لمرّة ثالثة.

المعلم- حين انفتح باب الدهليز على نحو مباغت، امتلأت الغرفة بحشد من الناس يمشون في هرج ومرج. فلمحت أنواراً وسمعت أصوات رجال ونساء يتكلمون جميعاً في آن واحد. وأُزيحت الستائر بعنف. فلمحت الأب والأم والخالات وبناتهن وأبناء العمومة، ومفوّض قال لهم برصانة : "سادتي، سيداتي، لا حاجة لأي صخب. فالجرم

[1] تعزيم أو رُقْية: دعاء يقرأ لإبعاد الشياطين عن الإنسان أو طردها من جسده.

[2] إشارة إلى واقعة وردت في الإنجيل حين يسأل المسيح رجلاً تسكنه الأرواح النجسة عن اسمه فيجيب "جوقة" لأن شياطين كثيرين قد دخلوا فيه. (لوقا- 8 -30) المترجم.

[3] كارِه للماء.

مشهود. والسيد رجل غزل وإغواء: وليس غير وسيلة واحدة لإصلاح الضرر. وسوف يبادر السيد إلى ذلك من تلقاءنفسه، بدلاً من أن يأتيه مرغماً بالقانون..."

وما كان ينطق بكلمة ألا ويقاطعه الأب والأم بعبارات اللوم الموجّهة إليّ. أما الخالات وبناتهنّ فيوجّهن نعوتاً أقل تحفظاً لآغات التى غطّت رأسها بالشراشف. كنت في حال ذهول فلا أدري ما أقول. وتوجه المفوّض بالحديث إلي فقال لي ساخرا: "يا سيد، أنت على خير ما يوام. لكن ينبغي رغم كل شيء أن تكلّف نفسك عناء النهوض وارتداء ملابسك. ." وذلك ما فعلته، لكني ارتديت ملابسي أنا التي استبدلت بملابس الفارس. وجاءوا بمنصدة، فشرع المفوض يحرّر محضراً. وقد تطلّبت الأم في تلك الأثناء أربعة يمسكون بها ليحولوا بينها وبين أن توسع بنتها ضرباً. أما الأب فيقول لها: "رويدك، يا امرأتي، على رسلك. فضربك لابنتك لا يقدّم في شيء ولا يؤخر. فلا بدّ لكل شيء من أن يؤول نحو الأفضل " وتوزّع الأشخاص الآخرون على الكراسي متخذين أوضاعاً مختلفة من الألم والسخط والغضب. ويؤنب الأب امرأته بين وقت وآخر فيقول لها :"هاك النتيجة حين لا تسهرين على سلوك ابنتك..." فتجيبه قائلة :"ومن كان يتوقّع مثل ذلك من السيد مع ما هو عليه من سيمات طيبة ومروءة؟..." فيلوذ الآخرون بالصمت. وانتهت كتابة المحضر فقرئ علي. ولما لم يكن يتضمّن سوى الحقيقة فقد وقّعته وهبطت بصحبة المفوض الذي رجاني بمنتهى الكياسة أن أصعد في عربة أمام الباب، حيث اقتادوني بموكب كبير حتى فورليفيك.

جاك- حتى فورليفيك ! إلى السجن!

المعلم- إلى السجن. وكانت قضية مخزية. لم يكن المراد أقلّ من الزواج من الآنسة آغات. ولم يكن الأهل على استعداد للإصغاء لأية تسوية. ومنذ الصباح جاءني الفارس إلى عزلتي. وهو مطلع على كل شيء. فآغات في حالة حزن شديد. والأهل في حالة سخط وغضب.

وتعرض هو لأشدّ أنواع التوبيخ على التعارف الغادر الذي تسبّب لـــهم به. فهو العلة الأولى لمصيبتهم والعار الذي لحق بابنتـــهم. وإن حالـــة أولئك الناس المساكين لتستدرّ الشفقة؟ وقد سعى لأن يتحدث إلى آغـــات على انفراد فلم يتوصل إلى ذلك إلا بشق النفس. كان بود آغات لو تفقأ له عينيه وقد وصفته بنعوت مخرية. وقد أفسح لها المجال لتصب عليـه جام غضبها لأنه كان يتوقع ذلك منها.أما بعد ذلك فدعاها إلى مناقشـــة المسألة بشيء من التعقّل، لكن تلك الفتاة كانت تتقدم بحجة، حسب قـول الفارس، أحار في الردّ عليها: "لقد باغتني أبي وأمي وأنا مع صديقـك. فهل عليّ أن أقول لهما إني وأنا نائمة معه كنت أظـــن نفســي نائمـة معك؟.. ." فيرد عليها قائلاً :"لكن هل تعتقدين بكل صراحة أن بوســـع صديقي أن يتزوجك؟... فتجيب: كلا، ولكن أنت أيها الدنيء، أنت أيـــها السافل، أنت تستحق الإدانة."

فقلت للفارس: "إن تبرئتي من هذه القضية لا تتعلق إلا بك أنت.

-وكيف ذلك؟

-كيف؟ بالتصريح بالحقيقة مثلما هي.

-لقد هددت آغات بذلك، لكن لن أفعله ذلك بكل تأكيد. وإذا كـان لتلـك الوسيلة أن تخدمنا يقيناً، فمن اليقين أكثر أنها ستلحق بنا العـــار. زد أن الغلطة غلطتك.

-غلطتي أنا؟

-أجل غلطتك. ولو أنك وافقت على العملية الخبيثة التي اقترحتها عليك، لجاءت مباغتة آغات بين رجلين اثنين، وكل ذلك كان سينتهي بمهزلـة. لكن ذلك لم يحصل، والمقصود الآن الخروج من تلك الكبوة.

-ولكن هل يسعك أيها الفارس أن تفسّر لي واقعة صغيرة؟ إنها واقعـــة ثيابي المأخوذة وثيابك الموضوعة في حجرة الملابس. والواقـــع أنـــي تفكرت بالأمر من غير طائل فذلك سرّ غامض يربكني. وقد جعل ذلـك

آغات مشبوهة في نظري. وخطر ببالي أنها كشفت الخديعة، وأنّ في المسألة تواطؤاً ما بينها وبين أهلها.

-ربما شاهدوك وأنت تصعد. لكن الأمر المؤكد أنك ما كدت تخلع ملابسك حتى أرسلوها لي وطلبوا مني ملابسك.

-سوف يتضح ذلك مع مرور الوقت .

وفيما كنا نتحسر أنا والفارس ويواسي أحدنا الآخر ونتبادل التهم، ونتشاتم فنتصالح، دخل علينا المفوض. فشحب لون الفارس وخرج على نحو مباغت. وكان ذلك المفوض رجلاً نزيهاً، مثل بعض الذين لا يزال المرء يلقاهم. وفيما كان يعيد قراءة محضري تذكر رفيقاً له على مقعد الدراسة يحمل كنيتي. فخطر بباله أن من الممكن أن تربطني به قرابة ما، بل أن أكون ابن رفيقه في المدرسة، وكان الواقع صحيحاً. فكان أول سؤال يطرحه علي عن الرجل الذي ولى هارباً إثر دخوله. فقلت له:

-لم يولّ هارباً. بل خرج. وذلك هو صديقي الحميم، الفارس دوسان وان.

-صديقك ! ألا إنّ لك صديقاً يبهج القلب ! أتدري، يا سيد، أنه هو الذي جاء يخطرني؟ وكان يصحبه الأب وقريب آخر.

-هو !

-هو نفسه.

-هل أنت واثق من حقيقة الواقعة؟

-واثق كل الثقة. ولكن كيف دعوته؟

-الفارس دوسان وان.

-آه، الفارس دوسان وان. لقد بلغنا مرامنا. أتدري ما حقيقة صديقك، صديقك الحميم الفارس دوسان وان؟ إنه محتال، وموصوم بمئات الحيل الخبيثة. ولا تدع الشرطة حرية الحركة لذلك الصنف من الناس، إلا بسبب الفوائد التي تجنيها منهم أحياناً. هم لصوص ووشاة على اللصوص، فيجدونهم على ما يبدو أكثر نفعاً عبر الشرور التي يستبقونها أو يكشفون عنها، من ضرر الشرور التي يرتكبونها. .

فرويت للمفوض مغامرتي الكئيبة، على نحو ما جرت. فلم ينظر إليها نظرة أكثر رضى. لأن كل ما من شأنه تبرئتي، لا يمكن سوق دليل عليه أو إثباته أمام المحكمة. ومع ذلك فقد تطوّع لاستدعاء الأب والأم، وانتهر الفتاة، وأوضح المسألة للقاضي، ولم يدّخر كل ما من شأنه تبرئة ساحتي. لكنه أنذرني على كل حال، بأن أولئك الناس إذا ما حصلوا على مشورة حسنة، فليس أمام السلطة ما تفعله حيالي.

–ماذا، سيدي المفوض، هل أكون مرغماً على الزواج؟

–الزواج؟ سيكون ذلك بالغ القسوة، لذا فأنا لا أتوقعه. لكن ستكون هنالك تعويضات، وهي في تلك الحال باهظة..." لكن، أعتقد أن لديك ما تقوله لي يا جاك.

جاك– أجل، بودّي أن أقول لك إنك في الواقع كنت أكثر شقاء مني، أنا الذي دفعت القيمة من غير أن أنام. لكنني مع ذلك كنت على ما أعتقد سأسمع قصتك تتخذ منحى آخر، لو أن آغات قد حملت.

المعلم– لا تستبعد تخمينك. فقد أعلمني المفوض، بعد اعتقالي بوقت قصير، أنها جاءت لتقدّم إليه تصريحاً بأنها حبلى.

جاك– وها أنت أب لطفل...

المعلم– لم أرتكب نحوه أية إساءة.

جاك– غير أنك لم تصنعه.

المعلم– ولم تَحُلْ حماية القاضي ولا كافة المساعي التي قام بها المفوض، دون أن تأخذ تلك القضية مجرى المحاكمة. أما وأن الفتاة وأهلها من ذوي السمعة السيئة فلم يعلنوا عن قراني بين جلسة وأخرى. فحكم عليّ بغرامة باهظة، ومصاريف المحاكمة، والقيام بنفقات الولادة والتربية لطفل نجم عن أفعال صديقيّ دوسان وان ومساعيه، وكان في الواقع صورة عنه لكن بحجم مصغّر. كان صبياً كبير الحجم، وقد وضعته الآنسة آغات بكل سعادة بين الشهرين السابع والثامن، وقد

عهدوا به لمرضع ومربية ممتازة، ما زلت أدفع لها أجراً شهرياً حتى هذا التاريخ.

جاك- وكم يبلغ تقريباً عمر السيد ولدكم؟

المعلم- سيبلغ العاشرة عما قريب. وقد تركته طول هذه الفترة في الريف، حيث لقنه معلم المدرسة القراءة والكتابة والحساب. وليس موقعه بعيداً عن المكان الذي نقصده. وسوف أستفيد من الظرف لأدفع لأولئك الناس أجرهم وأمضي به لأجعله يتعلم مهنة.

وأمضى جاك ومعلمه ليلة أخرى في الطريق. ولقد أصبحنا قريبين من نهاية سفرهما قرباً أكبر من أن يستأنف معه جاك قصة غرامياته. وهيهات أن يكون ألم حلقه قد زال. ووصلا في اليوم التالي...

-إلى أين؟

-أقول قول شرف إني لا أدري -وماذا سيفعلان في المكان الذي يقصدانه؟

-كل ما يروقك أنت. فهل من عادة معلم جاك أن يتكلم في شؤونه إلى كلّ من هبّ ودبّ؟ ومهما يكن من أمر فهي لن تستغرق أكثر من خمسة عشر يوماً. فهل ستنتهي نهاية حسنة أم أنها ستؤول إلى فشل؟ ذلك ما لا أزال أجهله.

قال المعلم لخادمه ذات صباح :"يا جاك، أَلْجِم الخيلِ واسرِجْها واملأ مطرتك، فعلينا أن نمضي إلى حيث تعرف." وما قيل نفذ على الفور. وها هما يسلكان الدرب نحو المكان الذي ما يزال يُرَبّى فيه منذ عشر سنين، ابن الفارس دوسان وان على نفقة معلم جاك. وحين أصبحا على مسافة من النزل الذي غادراه، توجه المعلم إلى جاك بالكلمات التالية: "ما رأيك، يا جاك، بغرامياتي؟

جاك- هناك أشياء غريبة مكتوبة فوق. فذاك ولد قد صُنع، ويعلم الله كيف! من يدري حقيقة الدور الذي سيقوم به ابن الزنا هذا في العالم؟ من يدري! إن كان ولِد لإشاعة السعادة أو لإحلال الخراب في إمبراطورية بحالها؟

المعلم- أجيبك بالنفي. فأنا سأجعل منه خراطاً ماهراً أو صانع ساعات ممتاز. سوف يتزوج. ويرزق بأولاد يقومون على نحو دائم بخراطة عوارض للكراسي في هذه الدنيا.

جاك- أجل، إذا كان ذلك مكتوباً فوق. ولكن لم لا يخرج واحد مثل كروموبل[1] من دكان خراط؟ ألم يخرج داك الذي قطع رأس مليكهِ من دكان بائع جعة؟ ألا يقولون اليوم؟...

المعلم- دعنا من هذا. أنت اليوم على ما يرام وبتّ تعرف غرامياتي. ولا تستطيع بصراحة أن تستعفي من استئناف قصة غرامياتك.

جاك- كل شيء يحول دون ذلك. هنالك أولا الدرب القصير الذي بقي علينا أن نقطعه. وثانياً نسيان أين كنت منها. وثالثاً إحساس لعين يعتمل هنا... أن ليس لتلك القصة أن تنتهي، وأن حكايتها مصدر شؤم علينا، وأني ما أكاد أستأنفها حتى تقطعها علينا كارثة، سعداً أو نحساً.

المعلم- إذا كانت سعيدة، فلا بأس.

جاك- أنا معك. لكني أحسّ هنا.. أنها ستكون مشؤومة.

المعلم- مشؤومة ! فلتكن. لكن سواء تكلمت أم لذت بالصمت. هل سيحول ذلك دون وقوعها؟

جاك- من يعلم ذلك؟

المعلم- لقد وُلدت متأخراً قرنين أو ثلاثة قرون.

جاك- كلا، يا سيدي، بل ولدت في زماني مثل كافة الناس.

المعلم- وكان لك أن تغدو عرّافاً عظيماً.

جاك- لست أدري على وجه الدقة ما حقيقة العراف، ولا يهمني أن أعرف ذلك.

المعلم- إنه واحد من الفصول الهامة من بحثك في التنبّؤ.

[1] اوليفر كروموبل (1599-1658) لورد إنكليزي ونائب في البرلمان، ثار على الاستبداد الملكي فانتصر على جيش الملك شارل الأول وحكم عليه بالإعدام (1649).

جاك- هذا صحيح. غير أنه مكتوب من زمن طويل حتى لا أذكر منه كلمة واحدة. لكن، إليك يا سيدي، فهاك من يعرف أكثر من كافة العرافين، والبُلْه الذين يكشفون الغيب وشرطة الجمهورية الخبثاء. إنها القربة. فلنسأل القربة."

وأمسك جاك بقربته فاستشارها مطوّلاً. وأخرج معلمه ساعته وعلبة نشوقه، فنظر كم الساعة وتناول قبصته من النشوق. قال جاك: "يبدو لي الآن أني أرى القدر أقل ظلمة. فقل لي أين كنت منها.

المعلم- في قصر ديغلان، وقد تحسنت ركبتك قليلاً، ودينيز مكلفة من أمها بأن ترعاك.

جاك- كانت دينيز مطيعة. والجرح في ركبتي اندمل تقريباً. بل استطعت حتى أن أرقص في الحلقة ليلة الولد. غير أني كنت أعاني على فترات من أوجاع لا تصدق. وخطرت ببال جراح القصر الذي كان أطول باعاً في المهنة من زميله، أن تلك الأوجاع بتكرارها المعاند، لا يمكن أن تنجم إلا عن وجود جسم غريب ظل داخل الجسد من بعد استخراج الرصاصة. وعليه فقد جاء إلى غرفتي منذ الصباح الباكر فقرّب طاولة من سريري. وحين أزيحت الستائر، رأيت الطاولة تعجّ بالأدوات القاطعة. جلست دينيز عند رأسي تبكي بدموع حارة. وأمها واقفة مكتوفة اليدين، شديدة الوجوم. أما الجراح فقد نزع سترته وشمر كمّي قميصه ويده اليمنى تشهر المشرط.

المعلم- أنت تخيفني.

جاك-وأنا كنت خائفاً. فقال لي الجراح:"أيها الصديق، هل تعبت من الأوجاع؟

-كل التعب.

-وهل تريد لكل ذلك أن ينتهي وأن تحافظ على ساقك؟

-بكل تأكيد.

-ضعها إذن خارج السرير ودعني أعالجها كما أشاء.

فأخرجت ساقي. فوضع الجراح قبضة المشرط بين أسنانه، وأخذ ساقي تحت ذراعه الأيسر فشد عليها بقوة، وأمسك بالمشرط فأدخل رأسه في فتحة جرحي فأحدث شقاً طويلاً وعميقاً. ولم أرتعش، لكن جان أشاحت بوجهها، وأما دينيز فأطلقت صرخة حادة وأغمي عليها..

أوقف جاك قصته هنا، لينال من قربته مجدداً. وكان نواله يتكرر كلما كانت المسافات أقصر، أو بتناسب عكسي مع المسافات، كما يقول المساحون. بل كان على درجة من الدقة في قياساته، حتى أن القربة الملأى لدى الانطلاق كانت دوماً فارغة تماماً لدى الوصول. وكان بوسع السادة المسؤولين عن الطرق والجسور أن يجعلوا منها عدّادا رائعاً للمسافات، ولكل نوال بشكل عام سببه الكافي. فالسبب هنا إنعاش دينيز من إغماءاتها واستعادتها رشدها، وتماسكه هو من ألم الجرح الذي أحدثه الجراح في ركبته. أما وقد ثابت دينيز إلى رشدها، وعاد هو إليه تماسكه فقد واصل حكايته.

جاك-لقد كشف ذلك الشق الكبير أعماق جرحي، فاستخرج منه الجراح بملقطه قطعة صغيرة جداً من قماش بنطالي، وقد استقرّت فيه، فكان وجودها يتسبّب لي بتلك الأوجاع ويحول دون اندمال الجرح بشكل تام. ومنذ تلك العملية وحالتي في تحسن متواصل، بفضل عناية دينيز. فالأوجاع انقطعت نهائياً ومعها الحمى. وكانت دينيز تضمدني بكل دقّة وبرقّة متناهية. ليتك شاهدت شدة حذرها وخفة يدها وهي تنزع الضماد، وخشيتها من أن تسبّب لي أدنى ألم، والطريقة التي تنظّف بها جرحي. كنت أجلس على حافة سريري. وتكون قبالتي وركبتها على الأرض. فأضع ساقي على فخذها، وأضغط عليه بعض الشيء أحياناً: وأعتمد بيدي على كتفها. وأنظر إليها وهي تعمل، بحنان تشاطرني إياه حسب

حسب ظني. وحين ينتهي ضمادي أمسك بيديها فأشكرها، ولا أدري ما أقول لها، ولا أعرف كيف أعرب لها عن امتناني. وهي واقفة، تغض الطرف وتصغي إليّ فلا تتفوّه بكلمة. وما مرَّ في القصر من بائع جوّال إلا واشتريت لها شيئاً ما. كان مرة منديلاً، ومرة بضعة أذرع من الحرير الهندي أو الموسلين، فصليباً ذهبياً فجوارب قطنية ثم خاتماً فعقداً بجادياً. وحين تنتهي عملية شرائي الصغيرة، يتمثّل ارتباكي في تقديم ما اشتريته وارتباكها هي في قبوله. كنت في البداية أعرض الشيء عليها، فإن تجده حسناً أقل لها: "إنما اشتريته لك يا دينيز..." وحين تقبله ترتجف يدي وأنا أقدمه لها، ويدها وهي تأخذه مني. ذات يوم، وأنا لا أدري أي شيء أقدمه لها، اشتريت لها ربّاطتيْ ساق. كانتا من الحرير، مزينتين بالأبيض والأحمر والأزرق، وعليهما شعار. وقبل أن تأتي صباحاً، وضعتهما على مسند الكرسي بجانب سريري. وما إن وقع نظر دينيز عليهما حتى قالت: يا للرباطات جميلة ! فأجبتها قائلاً:

-إنهما لحبيبتي.

-ألديك حبيبة إذاً، يا سيد جاك؟

-بكل تأكيد. ألم أقل لك ذلك بعد؟

-كلا. إنها لطيفة حقاًن دون شك؟

-في غاية اللطف.

-وتحبها؟

-من كل قلبي.

-وتحبك هن كذلك؟

-لست أدري. فهاتان الرباطتان لها. وقد وعدتني بحظوة ستذهب بعقلي، حسب ظني، إذا ما منحتني إياها.

-وما هي تلك الحظوة؟

-ذلك أني سأقوم بربط واحدة من هاتين الرباطتين بيدي.

فاحمر وجه دينيز وأساءت الظن بحديثي، فحسبت أن الرباطتين لواحدة أخرى، فغدت حزينة وصارت تخرج من كبوة لتقع في أخرى، فتبحث عن شيء لضمادي وهو تحت نظرها فلا تراه. وقلبت كأس النبيذ الذي سخنته، ثم قبضت على ساقي بيد مرتعشة، فحلّت الأربطة بشكل مقلوب، وحين لزم وضع الكمّادات الدافئة على الجرح نسيت كل ما هو ضروري. ثم أحضرت الضماد وضمدتني. وفيما كانت تضمدني لمحتها تبكي.

-دينيز، أعتقد أنك تبكين، فما بك؟

-لا شيء.

-هل أساء أحد إليك؟

-أجل.

-ومن هو ذلك الكريه الذي أساء إليك؟

-ذلك أنت.

-أنا؟

-نعم.

-وكيف جرى ذلك.

وبدلاً من أن تجيبني، حولّت نظرها إلى الرباطتين. فقلت لها:

-عجبا ! أذلك ما يجعلك تبكين؟

-أجل.

-إيه، يا دينيز، لا تبكي، إنما اشتريتهما لك أنت.

-أتقول الحقيقة، يا سيد جاك؟

-كل الحقيقة. الحقيقة المطلقة، فهاك، خذيهما.

وقدمت لها الرباطتين، لكني استبقيت واحدة. وانطلقت على الفور ابتسامة من بين دموعها. فأمسكت بذراعها وقرّبتها من سريري، وأخذت إحدى قدميها فوضعتها على حافة السرير. ورفعت تنورتها حتى

الركبة، حيث شدت أطرافها بيديها معاً. ففبلت ساقها ووضعت لها الرباطة التي اسنبقيتها. وما كدت أنتهي حتى دخلت حان.

المعلم- يا لها من زيارة مزعجة.

جاك- ربما نعم وربما لا.

لكنها بدلاً من أن تلمح ارتباكنا، ركّزت نظرها على الرباطة بين يدي ابنتها. فقالت:"يا لها من رباطة جميلة:فأين الأخرى؟ فأجابتها دينيز: -على ساقي. ففد أخبرني أنه اشتراهما لحبيبته، فأقسمت أنهما لي. أليس صحيحاً يا أمي، أني ما دمت وضعت الأولى فينبغي أن أحتفظ بالأخرى؟

-آه، يا سيد جاك. إن دينيز لعلى حق. فليس لرباطة واحدة أن تعمل دون الأخرى، ولا أظنك ستسترد التي معها.

-ولم لا؟

-لأن دينيز لا ترغب في ذلك، ولا أنا أيضاً.

-لكم لنتفق. سوف أربط لها الثانية بحضورك.

-كلا، كلا، فذلك غير ممكن.

-إذن فلتردّ إليّ الاثنتين معاً.

-وذلك غير ممكن أيضاً.

لكن جاك ومعلمه بلغا مدخل القرية حيث سيشاهدان ابن الفارس دوسان وان، والذين يتولون تربيته. وصمت جاك. فقال له معلمه:

-فلننزل ونتوقف قليلاً.

-لماذا؟

-لأنك، وفقاً للظواهر، بلغت خاتمة غرامياتك.

-ليس تماماً.

-حين يبلغ المرء الركبة لا يبقى أمامه من درب طويل يقطعه.

-يا معلمي- إن الفخذ لدى دينيز لأطول منه لدى غيرها.

-فلننزل على كل حال.

فترجلا وكان جاك أولاً، فتقدم بسرعة صوب معلمه الذي لم يكد يرخي بثقله على الركاب حتى انقطعت سيورها وانقلب الخيّال إلى الخلف، وكاد يرتمي بعنف على الأرض لولا أن تلقّاه خادمه بين دراعيه.

المعلم- طيب، يا جاك، فعلى هذا النحو ترعاني. كنت على وشك أن يُكْسَر لي ضلع أو ذراع أو يُشجّ رأسي وربما أُقْتل.

جاك- يا للمصيبة العظمى!

المعلم- ماذا تقول، يا سافل؟ انتظر، انتظر، سأعلمك فن القول...

وبعد أن لفّ المعلم- جديلة سوطه حول معصمه لفتين، لحق بجاك الذي أخذ يدور حول الحصان وهو مغرق في الضحك. ومعلمه يشتم ويرغي ويزبد مغتاظاً ويصب على جاك سيلاً من اللعنات. ودام ذلك الجري حتى أخذ النعب من الاثنين مأخذه وتصبّبا عرقاً فتوقفا، وكان أحدهما في هذا الجانب من الحصان والثاني في ذاك. فجاك يلهث ويواصل الضحك ومعلمه يلهث ويرميه بنظرات غاضبة. وحين بدأا يلتقطان أنفاسهما قال جاك لمعلمه:

-يا سيدي ومعلمي، هل ستوافقني الآن؟

المعلم- وعلام تريدني أن أوافقك أيها الكلب السافل الدسيء، إلا على أنك الأسوأ من بين كافة الخدم وأني الأكثر شقاء من بين كافة المعلمين؟

جاك- أليس البرهان الحتمي على أننا نتصرّف في معظم الأوقات دون إرادة منا؟ هاك، أجبني بكل صراحة: هل كنت راغباً في كل ما قلتَه أو فعلتَه منذ نصف ساعة؟ ألم تكن دمية متحركة في يدي، أما كنتَ ستظل ألعوبة طيلة شهر لو أني رغبت في ذلك؟

المعلم- ماذا ! أكانت تلك ألعوبة؟

جاك- ألعوبة.

المعلم- وكنت تتوقع انقطاع سيور الركاب؟

جاك- بل أنا دبرته.

المعلم- وكان جوابك الوقح معداً سلفاً؟.

جاك- سلفاً.

المعلم- وكان ذلك خيط الدمية المتحركة الذي ربطته فوق رأسي لتحركني كما يروقك؟

جاك- وبمهارة خارقة.

المعلم- أنت تافه خطير.

جاك- بل قل، إنّ الفضل لرئيسي الذي جعل من نفسه يوماً ألعوبة مماثلة لحسابي، فصرت معلّلاً مرهفاً.

المعلم- وماذا بعد ذلك لو أني جُرِحت؟

جاك- كان مكتوباً فوق وفي أهبتي أن ذلك لن يقع.

المعلم- تعال نجلس. نحن بحاجة للراحة.

فجلسا، فقال جاك:

-اللعنة على الأحمق !

المعلم- أنت على ما يظهر تقصد نفسك.

جاك- أجل، نفسي، لأني لم أحتفظ بجرعة إضافية في العربة.

المعلم- لا تأسف على ذلك، لأني كنت سأشربها، لأني أموت عطشاً.

جاك- اللعنة على الأحمق أيضاً لأني لم أحتفظ بجرعتين.

وأخذ معلمه يتوسّل إليه أن يواصل قصته، عساهما ينسيان ما هما عليه من نصب وعطش، فيرفض جاك. ويستاء منه معلمه فيدعه جاك على استيائه. وبعد أن أحتجّ جاك بالمصائب التي قد تنجم عن ذلك، استأنف قصة غرامياته فقال:

"في يوم أحد الأعياد، وكان سيد القصر في الصيد..." من بعد تلـــك الكلمات توقف على نحو مباغت ليقول :"لا أستطيع، يستحيل علـــي أن أواصل. يتراءى لي مجدداً أن يد القدر على عنقي وأشعر بها تشدّ عليّ. فأستحلفك بالله، يا سيدي، أن تسمح لي بالتزام الصمت.

–طيب، اصمت. امضِ فاسأل في أول كوخ هناك عن مسكن المربي "

كان ذلك عند الباب في الأسفل. فتوجّها إليه وكل واحد يقتاد حصانه من لجامه. وفي نفس اللحظة انفتح باب المربي ليخـــرج رجـــل منـــه. فصدرت عن معلم جاك صيحة ومد يده إلـــى ســـيفه، وفعـــل الرجـــل المقصود كذلك. وأجفل الحصانان لقعقعة الأسلحة، فقطع حصان جـــاك لجامه وأفلت، وفي اللحظة نفسها كان الرجل الذي يتبارز معلـــم جـــاك وإياه قد سقط على الأرض ميتاً. وهرع فلاحو القرية. فـــامتطى معلـــم جاك الحصان بخفة وانطلق مسرعاً. فقبض على جاك وقيّدت يداه، وأخذ إلى القاضي الذي أمر بإيداعه السجن. كان الرجل القتيل هـــو الفـــارس دوسان وان، الذي ساقه القدر تحديداً في ذلك النهار ليأتي بصحبة آغات إلى مربية ولدهما. كانت آغات تعول وتشد شعرها فوق جثة عشـــيقها. وأضحى معلم جاك بعيداً حتى توارى عن الأنظار. وكان جـــاك يقـــول وهو يتوجه من دار القاضي إلى السجن: "كان ينبغي لذلـــك أن يكـــون، فذلك كان مكتوباً فوق..."

وأنا أتوقف، لأني قلت لك عن هذين الشخصين كل ما أعرفه عنهما.

–وغراميات جاك؟ قال جاك مئات المرات إنه مكتوب فوق أنه لن ينهي قصته، وأنا أرى أن جاك على حق. وأرى، أيـــها القـــارئ، أن ذلـــك يغيظك. لا بأس، استأنف حكايته من حيث تركها وواصلها وفق هـــواك، وإلا فقم بزيارة للآنسة آغات، تعرف اسم القرية التي يُسْجن فيها جـــاك. قابل جاك واسأله: ولن يتردّد طويلاً قبل أن يستجيب لرغبتك. ولســـوف يخفّف ذلك شيئاً من عنائه. لكنّي قد أستطيع، وأنا أستند إلى مذكـــرات، لديّ الأسباب الوجيهة الكافية لاعتبارها مشبوهة، تلافي ما هو نـــاقص

هنا. لكن ما نفع ذلك؟ فليس بوسع المرء أن يولي اهتماماً إلا لما يحبسه حقاً. أما وأنه من نوع المخاطرة أن يدلي المرء برأيه، من غير تمحيص دقيق في أحاديث جاك المؤمن بالقدر ومعلمه، وهو أهم مؤلَّف ظهر منذ "*بانتاغروييل*" الأستاذ فرانسوا رابليه، وحياة *العراب ماتيو*" ومغامراته، فسوف أقرأ تلك المذكرات، بكل ما يتوفر لدي من تركيز انتباه ذهني وما أتحلى به من تجرّد. وسوف أوافيك بحكمي النهائي في بحر أسبوع، ما لم أستدرك قولي إذا ما جاء من هو أكثر ذكاء مني، فأثبت لي أني أخطأت.

ويضيف الناشر: انقضى الأسبوع فقرأت المذكرات المشار إليها. فوقعت فيها على مقاطع ثلاثة زيادة على المخطوط الذي هو ملك لي. وبدا لي الأول والأخير مبتكرَيْن. أما الوسط فمحرّف ومدسوس بكل تأكيد. وها هو المقطع الأول الذي يفرض وجود ثغرة ثانية في حديث جاك مع معلمه.

في يوم أحد الأعياد، وقد خرج سيد القصر إلى الصيد، وتوجّه باقي ندمائه وبطانته لحضور القداس في الكنيسة التي تبعد عن القصر ما يربو على ربع فرسخ، ونهض جاك من نومه، كانت دينيز جالسة بجانبه. كان الاثنان يلوذان بالصمت، وعليهما مسحة من الاستياء، لأن كلاً منهما مستاء من صاحبه في واقع الأمر. فقد بذلك قصارى جهده لإقناع دينيز بأن تنعم عليه بنوالها، وظلت دينيز لا تريم. فقال جاك، بعد ذلك الصمت الطويل، بلهجة قاسية ومريرة، وهو يبكي بحرقة :"ذلك أنك لا تحبينني.. " فنهضت دينيز مَغيظة، فأمسكت به من دراعه فاقتادته على نحو مباغت إلى حافة السرير فجلست فقالت له :"لا بأس، يا سيد جاك، أنا لا أحبك إذن؟ طيب، يا سيد جاك، افعل بدينيز الشقيّة كل ما يروقك .." تلفظت بتلك الكلمات فأجهشت بالبكاء وهي تكاد تختنق بنشيج عنيف.

قل لي، أيها القارئ، ماذا كنت ستفعل لو أنك مكان جاك؟ لا شيء. طيب، وذلك ما فعله هو. فأعاد دينيز إلى كرسيها، فجثا عند قدميها، ومسح الدموع المترقرقة من عينيها، وقبّل يديها، وخفّف عنها وطمأنها، وأيقن أنها تحبه بحنان، فركن إلى عطفها حول الموعد الذي يروقها لتنعم عليه بنوالها. فخلّف ذلك التصرف أعمق الأثر في نفس دينيز.

قد يقول قائل إن جاك لا يستطيع وهو عند قدمي دينيز أن يمسح دموعها... ما لم يكن الكرسيّ واطئاً جداً. فالمخطوط لا يشير إلى ذلك.

فيبقى أن نفرضه فرضاً.

وإليكم المقطع الثاني، المنسوح من حياة تريسترام شاندي، ما لم يكن حوار جاك المؤمن بالقدر ومعلمه سابقاً لذلك المؤلّف، وأن يكون الوزير ستيرن هو المنتحل، غير أني لا أعتقد ذلك، بدافع من تقدير خاص للسيد ستيرن الذي أميزه عن أكثرية رجالات الأدب من بني وطنه، الذين دأبوا على سرقتنا وتوجيه الشتائم لنا.

في إحدى المرات، وكان الوقت صباحاً، جاءت دينيز لتضميد جرح جاك. وكان جميع من في القصر نياماً. اقتربت دينيز وهي ترتعد. وحين أضحت لدى باب جاك، توقفت لا تدري هل تدخل أم لا؟ ثم دخلت ترتجف. ولبثت طويلاً قرب سرير جاك وهي لا تجرؤ على إزاحة الستائر. ثم أزاحتها بكل هدوء. وقالت لجاك: عِمْ صباحاً، وهي ترتعد. فقال لها جاك إنه لم يغمض له جفن، وإنه ما يزال يتوجّع من حِكّة عنيفة في ركبته. فأقبلت دينيز للتخفيف عنه. أخذت قطعة صغيرة من قماش قطني، ووضع جاك ساقه خارج السرير، وشرعت دينيز تفركها بالقماشة تحت الجرح، بإصبع واحدة بادئ الأمر، ثم باثنتين فثلاث فأربع ثم بالكفّ كلها. لكن ذلك لم يكن بكافٍ لتهدئة الحكّة تحت الركبة، وعليه، فلا بد من تهدئتها أيضاً فوقها، حيث كانت ترعاه بقوّة أكبر أيضاً. ووضعت دينيز قطعة القماش فوق الركبة وشرعت تفرك بشيء من الشدّة، بإصبع واحدة بادئ الأمر، ثم باثنتين فثلاث فأربع، ثم بالكفّ

كلها. أما هوى جاك الذي لم يكف عن النظر إليها، فقد ازداد واشتد حتى لم يعد يقوى على المقاومة، فهوى على يد دينيز... وقبلها.

لكن ما يلي لا يدع أدنى شك حول الانتحال. فالمنتحل يضيف: "إذا لم تكن أيها القارئ راضياً عما كشفته لك من غراميات جاك، فافعل ما هو أفضل، وأنا أوافق على ذلك. ومهما تكن الطريقة التي ستلجأ إليها، فإني واثق من أنك ستنتهي إلى مثل ما انتهيت إليه أنا. –أنت على ضلال، أيها المفتري العظيم، فأنا لن أنتهي إلى مثل ما انتهيت إليه أنت. فدينيز كانت عاقلة.

–ومن يقول لك خلاف ذلك؟ لقد هوى جاك على يدها وقبلها، قبّل يدها. أما أنت فذو روح فاسدة، وتسمع ما لا يقال لك. –طيب، ألم يقبّل يدها إذن؟ –بكل تأكيد: لأن جاك على درجة عالية جداً من الحس السليم، ولن يقبل بإغواء تلك التي يريد أن يجعلها امرأته، ولا بأن يثير لديها من الريبة ما من شأنه أن يسمّم بقيّة حياتها. –لكن قيل في المقطع السابق إن جاك بذل قصارى جهده لإقناع دينيز بأن تنعم عليه بنوالها. –ذلك أنه على ما يظهر لم يكن في نيته بعد أن يجعلها امرأته.

ويرينا المقطع الثالث جاك، صديقنا القدري المسكين، مقيد القدمين واليدين بالحديد، وممدّداً على حشيّة من القش في أعماق زنزانة مظلمة، وهو يستذكر كل ما حفظه من مبادئ الفلسفة عن رئيسه، وغير بعيد عن اليقين بأنه قد يأسف يوماً على ذلك المقر الرطب والمنتن والمظلم، حيث يطعمونه الخبز الأسود والماء، وحيث عليه أن يقي قدميه ويديه من هجمات الفئران والجرذان. وبينما هو مستغرق في تأملاته، علمنا أن أبواب سجنه وزنزانته خلعت. وأطلق سراحه مع قرابة عشرة من قطاع الطرق، ليجد نفسه متطوعاً في جيش مندران[1]. وفي تلك الأثناء، كان رجال الدرك الذين لاحقوا معلمه على الطريق، قد أدركوه فقبضوا عليه وأودعوه سجناً آخر. فخرج منه بفضل المساعي الحميدة للمفوض الذي قدم له مساعدة كبرى في مغامرته السابقة، وكان يعيش معتزلاً منذ

[1] لوي مندران (1724–1755) زعيم لقطاع الطرق. أعدم في فالانس جنوب شرقي فرنسا.

شهرين أو ثلاثة في قصر ديغلان حين ردّ إليه القدر خادماً ضرورياً لهنائه على قدر ضرورة ساعته وعلبة نشوقه. فلم يكن يأخذ من قبصة نشوق أو ينظر مرة في ساعته ليرى الوقت، من غير أن يقول وهو يتنهد :"ماذا حلّ بصديقي المسكين جاك؟. "وفي إحدى الليالي هوجم قصر ديغلان من قبل جماعة مندران. فتعرف جاك على مفرٍّ من أحسنَ إليه ومسكنِ معشوقته. فتدخل وحال دون نهب القصر. ونقرأ من بعد التفصيل المؤثر حول اللقاء غير المتوقّع بين جاك ومعلمه ديغلان ودينيز وجان.

–هذا أنت، يا صديقي !

–ذلكم أنتم، يا معلمي العزيز !

–ولكن، ما أنت بين هؤلاء الناس؟

–وأنتم، كيف جرى أن ألقاكم هنا؟

–وهذه أنت يا دينيز؟

–وهذا أنت يا سيد جاك؟ ألا كم أبكيتني !

كان ديغلان في تلك الأثناء يرفع صوته صائحاً: احضروا لنا كؤوساً ونبيذاً. أسرعوا، أسرعوا. فهو الذي أنقذ حياتنا جميعاً..."

بعد بضعة أيام، قضى بواب القصر العجوز نحبه. فاحتل جاك مكانه وتزوج دينيز، وبدأ معها بتنوير أتباع لزينون وسبينوزا، وكان محبوباً من ديغلان وغالياً على قلب معلمه، وتحبه زوجته حباً جماً، لأنه هكذا كان مكتوباً فوق.

أراد بعضهم حملي على الاقتناع بأن معلمه وديغلان وقعا في هوى زوجته. لست أدري حقيقة الأمر. لكني على يقين من أنه كان يقول في نفسه مساء :"إذا كان مكتوباً فوق أن تغدو زوجاً مخدوعاً يا جاك، فعبثاً تفعل، لأنك ستغدو كذلك. وإذا كان مكتوباً، بخلاف ذلك، إنك لن تصير، فعبثاً يفعلان، لأنك لن تغدو كذلك، إذن نم يا صديقي..." وأغرق في نوم عميق.

(بفلم جاك شوبيه)
بعليقات
أصالة المؤلّف.

حين كتب ديدرو إلى مايستر في أواخر أيلــول 1780 قــائلاً بشــأن روايته، الراهبة: "إنها الكفة المعادلة لـ جــاك المؤمــن بــالقدر" أعطــى توضيحاً ثميناً للطريقة التي يتمثّل بها أصالة عمله، بالتداعي مع الراهبــة والتعارض معها في آنٍ معاً. وإذا كانت الراهبة رواية الحــرم المســوّر، فرواية جاك تجري في الهواء الطلق، حسب مصادفــات الطــرق، ووفقــاً لتقديرات الملف الكبير الذي يسيّر أقدار الناس غير أنّا نجــهل عنــه كــل شيء. وتنشقّ أبواب أحد الأديرة مرة أو مرتين، لوقت يكفي فقط لأن نلمح مكائد أحد الدسّاسين وخيبات أحد الســاذجين. لكنّــا لا نطيــل الوقــوف، ويتواصل السفر، تحت رحمة المغامرات والمغامرين حتى ينتهي إلى حــل محبّر متروك لفطنة القارئ. ويخضع الأشخاص لمعطياتهم الخاصة، لكــن ليس من سلطة بشريه ترغمهم على أن يكونوا مغايرين لما هــم عليــه. فيسعنا أن نقول، من وجهة النظر هذه، ورغم العنوان، إن مؤلّف ديــدرو هذا، يبدو من بعض الجوانب كأنه رواية الحرية.

ولقد رسم له الدرب نموذج إنكليزي: حياة تريسترام شــاندي وآراؤه، من تأليف لورنس ستيرن، والذي ظهرت الكتب الستة الأولــى منــه بيــن عامي 1759 و 1761. فقرأه ديدرو بحماسة ليكتب في 26 أيلول 1762 إلى صوفي فولان قائلاً: "تورّطتُ منذ أيام بقراءة الكتاب الأكثر جنوناً والأكــثر حكمة والأكثر مرحاً من بين كافة الكتب." وعاد فقــرأ الكتــابين الســابع والثامن أيضاً، اللذين وصلا إليه بعد ثلاثة أعوام. وتمكّن خلال تلك الفــتره من لقاء الكاتب مرتين في عامي 1762 ثم 1764 وارتبط بصداقــة معــه. ويقع في الكتاب الثامن تحديداً، المقطعان اللذان استلهمهما ديدرو على نحو مباشر: فالحديث بين العم توبي والعريف تريم، إستُعيد في بدايــة جــاك، وكذلك واحد من الحلول الثلاثة التي اقترحت في النهاية. وإذا تركنا ذلــك

التأثّر المباشر جانباً، وجب علينا أن نضع في الحسبان، نتيجه ذلك اللقاء، فكر ستيرن وسخريته ورفضه للتقاليد، والتي شجعت ديدرو من غير شك على مواصلة دربه الخاصّ. أما الذي جرى من بعد فوُصِف بكل دقة من قبل بول فيرنيير: من عام 1765 حتى 1778 والرواية تكبر بالقراءات والذكريات والنوادر، إلى حين ظهور العمل على شكل تسليمات[1] متوالية في المراسلة الأدبية للأعوام 1778 وحتى 1780. ونحن نعرف بواسطة مايستر منذ عام 1771 أن الرواية أصبحت متقدمة بما فيه الكفاية لتمكن ديدرو من قراءتها طيلة ساعتين. وجاءت عناصر أخرى لتتجمّع من بعد ذلك التاريخ. فقد حمل المخطوط الذي حصّ ديدرو كنارين التابنة به إضافتين بخط يده، ما كان لهما أن تكونا إلا بين عامي 1780 و 1784. لذا نستعيد عبارة بول فيرنيير لنقول إن من الملائم نستحيل تكوين هذا العمل غير المألوف "في صيرورة تمتد قرابة عشرين عاماً، من 1765 وحتى 1784 عام وفاة ديدرو." وإن مهمة الاستعادة لتاريخ تلك الإضافات من الأمور المثيرة للاهتمام بلا شك، لكنها تكاد تفوق القدرة على إنجازها. بل إنّ من السذاجة الكلام عن إضافات بشأن عمل لا يمكن تصوّره مطلقاً إلا مثل كمية من التراكمات المتوالية. وإذا كان لنا أن نعثر له على مثيل فلا بد من المقارنة مع بانتاغرويل[2] حيث المقارنة ملائمة جداً.

وبالمقابل فليس من الإفراط في الغرور التساؤل حول سرّ تلك الحبوبة. وسوف أسترجع هنا نظرية استخدمها هربرت ديكمان للإجابة على مثل هذا التساؤل. فهو يقول إن في كل عمل من القرن الثامن عشر يوجد تناسخ إلى حد ما بين الفكرة الفلسفية والشكل الأدبي. فالفكرة الفلسفية وجودها جليّ وبديهي على نحو دائم، لكنها لا تلقى على الدوام شكلاً أدبياً يلائمها. وعلى هذا الأساس نجد كتّاباً عديدين ينطلقون دون كبير نجاح في المجاز أو في الحوار الفلسفي أو في الأدب المثقّف ليس إلاّ.

[1] التسليمة: كرّاس من كتاب يسلّم تدريجياً للمكتتبين

[2] من أهم مؤلفات رابليه.

كان الطموح لفلاسفة القرن الثامن عشر، يتمثل كلّه في العثور على الشكل الأدبي الذي يتلاءم التلاؤم الأمثل مع التعبير عن أفكارهم، على نحو يصل فيه إلى أوسع جمهور ممكن. ويحصل اللقاء أحياناً: كما هي الحال مع حكايات فولتير الفلسفية. أما عند ديدرو فلم يجر اكتشاف الشكل دفعة واحدة. إن الراهبة رواية أخّاذة لكنها تنقلب أحياناً إلى الوعظ المعادي للرهبنة. أما في جاك، فليس لأيّ وعظ من أثر. والشكل الذي عثر عليه ديدرو هو الذي يلائم تحديداً الفكرة التي تتضمنها الرواية. وتلك الفكرة هي مبدأ عدم اليقين: فالقدر يسيّرنا، لكننا نجهل كل شيء عن القدر (إلا حين يَنفذ). وإذا استعرنا تعبير جاك نقول: "نحن نسري في عتمة الليل" وحين يصيف: "تحت ما هو مكتوب فوق"، ينبغي أن نفهم أن تلك الكتابة فوق إدراكنا. فهي فوق ونحن تحت. فأي شكل اختاره ديدرو قبالة تلك الفكرة؟ إنه شكل عدم المعرفة، شكل التساؤل الدائم. فالمراد تحديداً بالنسبة له اعتماد عدم المعرفة كنمط للتعبير، والانقطاع كنمط للتأليف، والالتباس كنمط للتفسير. فيقول جاك في مكان ما: "إن القدر مراوغ"، أي أنّ دلائل القدر خدّاعة. فمن عساه يفك رموز شعار القصر المجازي من غير أن يغامر بالوقوع في تفسير مفرط؟ "لست ملكاً لأحد وأنا ملك للجميع. أنت كنت هنا من قبل أن تدخل، وسوف تظل هنا من بعد أن تخرج." وقد طُبِّق هذا الشعار على الأرض، مدعَّماً بحجج مقبولة. لكنه يمكن أن ينطبق أيضاً، مدعماً بالحجج نفسها، على الحقيقة والله والمجتمع والجمال والنص الأدبي. فالمراهنات مفتوحة. وينطبق ذلك نفسه على العربة الجنائزية، التي بدت في الذهاب وعليها الدلائل التي تشير إلى موت رئيس جاك، لتحمل في الإياب دلائل معكوسة. وهل حصان جاك جواد مطواع؟ كلا: فهو يجمح لدى رؤية أعواد المشنقة. فهل في ذلك نبوءة بواقعة مشؤومة؟ كلا: الأمر ببساطة أنه حصان الجلاد، (تفسير عقلاني.) هل يتسبّب في مصيبة؟ أجل، ما دام جاك يُشَجُّ رأسه، (شرح متطيّر؟) بفعل فريق من الرجال المسلحين بالهراوات والمذاري، وهم يسرعون نحو جاك ومعلمه. فهل سيمسكون بهما؟ كلا. "لم يكن مسافرانا متبوعين البتة." وتتبدّى

الحيرة نفسها حين يكون المراد تمييز الخير من الشر: "لأنّ المرء، في جهله بما هو مكتوب فوق، لا يعود يعرف ما يريد ولا ما يفعل." وهل نحن أكثر تقدّماً حين يكون علينا أن نحكم على الأفعال البشرية؟ "بوسعك أن تكره مدام دولابومريه. كما بوسعك أن ترهب جانبها: غير أنك لن تزدريها." هل المقصود إحقاق الحق؟ إنّا نصل إلى النتيجة نفسها: "مشيئتنا أن يأمر الواحد فيطيع الآخر، وكلٌّ على خير ما يستطيع، وأن يُترك الغموض بين ما يستطيع الواحد وما ينبغي على الآخر، على مثل ما كان مسبقاً." سيكون سفر جاك ومعلمه إذن عدم سفر، ويكون حديثهما استطراداً دائماً حول موضوع مُلِحّ، وتكون علاقاتهما مزيجاً من الخلاف والرّضى، والرواية شيئاً يتحرّر في عتمة الليل، أو إذا ما شئنا، فوقَ لوحة من الهباء.

دراسة الشخصيات.

إنهم عديدون. وقد أحصينا منهم قرابة ستين (يحملون أسماءً أو بلا أسماء) ويؤدّون دوراً صغيراً أو كبيراً، إما في القصة الرئيسة أو في واحدة من الحكايات الموازية. ومن الملائم أن نضيف إليهم شخصية مميّزة هي شخصية الكاتب، الذي يؤدي دوراً جلياً في القصة الرئيسة. وتتدخل أخيراً، ولتسع مرات، مجموعات بشرية غير محددة، بدءاً من عصابة الأشرار في الليلة الأولى في النزل وحتى جند مندران. ولن نتوقف عند أشخاص جرى التلميح إليهم بشكل عابر أو عند أعلام ذُكرت أسماؤهم كشواهد فقط. ذلك بالإيجاز، أما الرواية بكافة أبعادها فاستعادة للمجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر. ولم يُذكر الملك والبلاط فيها إلا من بعيد. لكن طبقة النبلاء، ثم رجال السيف والقضاء، تحتل فيها مكانة هامة، لا يحسدها عليها الأكليروس بوجود رئيس الدير هدسون والراهب ريشار. وأما طبقة عامة الشعب فهي حاضرة في كل مكان، بكافة الأشكال وعلى كافة المستويات. ولم يُستبعد حتى اللااجتماعيون من غير أن نتكلم عن ذلك الكائن الاستثنائي، وهو الجلاد، الذي رغب جوزيف دوميتر أن يرى فيه الشخصية الأكثر تمثيلاً لمجتمع العهد القديم.

إلا أن اللوحة التي يقدمها ديدرو ليست وصفاً سكونياً، فئة إثر فئة. إنه بضع في المقدمة مظهراً هو أكثر إمتاعاً دون شك، إنها علاقات التوتر وعلاقات التبعية المتبادلة في آن معاً، والتي تسود ما بين الفئات. فتتميّز علاقة المعلم بالخادم في المصاف الأول، مثلما ترد في العنوان: "جاك المؤمن بالقدر ومعلمه. "، "ما كان المعلم يقول شيئاً .." فالمبادرة إلى الحوار بيد جاك. لقد ولد ثرثاراً. فكانوا يضعون له وهو صغير كمّامة على فمه. وهو مقدام وجريء: في مواجهة الأشقياء الاثني عشر، ومواجهة الجمع من الرجال المسلحين بالهراوات والمذاري، وتجاه البائع الجوّال والأشقياء الذين سلبوه على قارعة الطريق وأمام الزوجين الساحرين. وهو لا يجهل الخوف فقط، بل يحتفظ بما يكفي من حرية الفكر للمزاح. ولملاحظة المعلم دلالتها كبيرة: "أي شيطان أنسي أنت!..." ولدى جاك، حسب رأي المعلم المتطيّر، شيء ما من الأبالسة. و قد قام ديدرو عامداً بتضخيم ذلك المظهر المناقض لدى رجل "قدري" وشجاع في آن معاً. والرضوخ للقدر، حسب رأي جاك، لا يستبعد الإرادة البشرية، وإنما يعمل بخلاف ذلك على تشجيعها. وليس ذلك بالتناقض الوحيد لدى جاك: فخلافاً للناس الأغنياء، بل لأنه تحديداً لا يملك شيئاً خاصاً، هو كريم. ويدفع دراهمه الأخيرة ثمناً للجرة المكسورة. ويتعرّض لكافة المخاطر بدلاً من سيده. أما التناقض الأكبر فيتمثّل في أن ديدرو يهب أولوية العنوان للمعدم أكثر اجتماعياً من بين الاثنين، والمتفوّق ذكاء وجرأة، ثم حقيقة السلطة، تتويجاً لكل شيء: "جاك يقود معلمه."

ويتبيّن المرء بكل يسر أن صورة المعلم هي النقيضة لصورة الخادم: فلا هو بربنار ولا شجاع، بل يقتصر من غير جاك على حالة إنسان آلي، ينظر في ساعته ويقبض النشوق. وهو متطيّر يؤمن بسوء الطالع، ولا مبادرة لديه سوى توجيه الضربات، فيسلم زمام القياد لخادمه في كل شيء. وحين يتعلق الأمر بمصلحته يكشف عن بعده التام عن كل شهامة. فهو ينسى، من بعد أن سُرق جواده، أن جاك قد ذاق الأمرّين وهو يجوب الطرقات لاستعادة الساعة

ومال السفر. وكانت كلمته الأولى: "يا لجوادي المسكين !" أما بعد مصرع الفارس دوسان وان، فهو يثب على أول جواد أمامه ليولي الأدبار: وكان جواد جاك، في حين أن جاك نوجّه إلى السجن بدلاً منه. ونراه يستسلم من جهة أخرى لتأثير أول غشاش يلقاه، والذي يتبجّح بذرّة من أصل نبيل فيعرفه بمخادعاته. لكن اللوحة نحمل تلطيفاً وحيداً: إنه يبدي حيال جاك حساسية تنبر الدهشة، حين تراه على سبيل المثال يسهر على جاك الجريح في سريره أو يبدأ معه حديثاً ودياً. غير أن العثور على التفسير ميسور جداً: فالمعلم من غير جاك هو الأكثر شقاء من بين كافة المعلمين، لأنه لا يعثر على أحد يرافقه. والواقعة الأخرى المناقضة، والتي تدخل تماماً ضمن تفسير جبري: إنه بخلاف جاك يعتقد بحرية الاختيار وبالمسؤولية الأخلاقية وبالأهلية الفردية. وهو موقف نافع لأسباب عديدة: إنه يعمل على ترسيخ موقعه كمعلم. فالمعلم الذي لا يؤمن بحرية الاختيار يكون في حالة تناقض مع نفسه. وعلى الطاغية أن يكون داعية لمبادئ الطغيان.

وتنشب الأزمة بين الاثنين لا يمكن تفاديه. فقد تفجرت في نزل "الوعل الكبير" مع ظهور شخصية المضيفة. وساءت العلاقات هناك، ولسبب بسيط: فقد استشم جاك في المضيفة ثرثارة، أي عدوّة. وهو غيور من السيطرة التي تمارسها على معلمه، لا سيّما أن المعلم يتولى الدفاع عن المضيفة بشكل عفوي، ملزماً جاك بالتقوقع داخل الصمت باستياء. عندئذٍ ينفجّر الحدث العنيف، الذي سيشهد النزاعات من شيء ضئيل. إنها ملاحظة من المعلم: "تفضّل واحداً مثل جاك !" فيأتي الردّ حادا بعض الشيء: "واحد مثل جاك رجل كباقي الرجال" ونبدأ العملية سيرها. فستيقظ الخلافات القديمة في برهة: من الذي يتولى القيادة؟ من الجدير بتولي القيادة؟ من على حق: أهو حامل الامتيازات أم مقدّم الخدمات؟ أما الحكم الذي تصدره المضيفة فهو عبث من وجهة نظر قانونية: "أحكمُ بإلغاء المساواة التي نشأت بينهما ردحاً من الزمن تم أعبدها على الفور". والجواب بسيط من وجهة نظر فلسفية. فهو متضمّن في ملاحظة جاك حول حاجة الفقراء

لكلب يأمرونه. فيقول جاك: "طيّب، كل واحد ولديه كلبه. فالوزير كلب الملك، والوكيل كلب الوزير، والزوجة كلب الزوج أو الزوج كلب الزوجة. إن فافوري هو كلب هذه وتيبو هي كلب الرجل عند الزاوية." وليس إلا سلطة واحدة: إنها الحاجة. فكل كائن، معلماً كان أم خادماً، هو في حالة تبعية بالنسبة لكائن آخر. جاك طاغية بالنسبة لمعلمه لكنه لا يستطيع العيش من دونه. والمعلم طاغية بالنسبة لخادمه، غير أنه لا يقوى على الاستغناء عنه.

وتستدعي مسألة التبعية الاجتماعية بشكل طبيعي جداً ملاحظة على النساء في الرواية. فهنّ يؤدين فيها دوراً استثنائياً، مثلما لعبن دوراً استثنائياً في حياة ديدرو سواء بسواء، بدءاً من "الأُخيّة" ديديز التي قال عنها في رسالة إلى صوفي فولان في 31 تموز 1759، إنها "نشيطة ومبادرة ومرحة وحازمة . فلا يتعذّر أن تكون استخدمت نموذجاً للمضيفة، التي كانت من جانبها أيضاً: "متألّقة المحيّا ونشيطة ومرحة". ولسن كلّهن على السوية نفسها، لكنّ بعضهن كنّ شخصيات من المصاف الأول: لويز هنرييت فولان، ولقبها صوفي، عرفها عام 1755 ونوفيت عام وفاته، هي في شباط وهو في تموز. وهي ملهمة عمله الرائع والشهير: رسائل إلى صوفي. ولم يكن فيهن واحدة وسطاً، بدءاً من "اوراني" شقيقة صوفي، ثم مدام دولابومريه، فمدام دومو، ومدام دوبينيه، ومدام ديسن (حماة البارون دولباخ) وكاترين الثانية إمبراطورة روسيا.

لا جرْم أن مدام دولابومريه هي المرأة ذات التأثير الأكبر من بين كافة النساء اللواتي صورهن ديدرو. وفيها ثلاثة عناصر تستحق الاهتمام: أصولها وأفعالها ثم "عرضها للمحاكمة" في نهاية القصة. إن عرض أصولها يلعب دوراً حاسماً :"كانت أرملة ذات أخلاق، وأصل نبيل، ثرية ورفيعة المقام." فليس لديها من مسوّغ يجعلها ترضخ أمام إلحاح المركيز ديزارسي الذي قيل فيه إنه "رجل ملذات، أنيس المعشر، وقليل الإيمان بفضيلة النساء". إذن متهتّك. ليس من مسوّغ باستثناء اثنين: صدق المركيز في

الظاهر، وهو الذي قطع علاقاته مع كافة النساء اللواتي يعرفهن: و"تعلّق بمدام دولابومريه، ليس إلا"، ثم النفور الذي تشعر به حيال عقد زواج ثان، ذلك أنها كانت في غاية الشقاء مع الزوج الأول. من هنا جاء قرار منفصل بالنتائج في مجتمع قائم على الحكم المسبق: القبول بالمركيز كعشيق مقابل "أكثر عهود الحب والإخلاص علنية،" وتحدي الرأي العام في الوقت نفسه. لكن المرء لا يغيّر متهتكاً، فينجم عن ذلك ما نلاه .. فيرتبط القسم الثاني بالأول وفقاً لمنطق صارم نقع عليه في حكاية ديدرو "مدام دولاكاربير"[1]: لا عيش إلا في سبيل الثأر من رجل وهبته كل شيء، فلم يهبها بالمقابل سوى الخيانة. تتجلّى هنا إحدى اللحظات الحاسمة من الأدب الفرنسي: فخلافاً لبطلات الغيرة الأخريات اللواتي لا ينتقمن إلا من بعد أن يتعرّضن للغدر، تبدأ هذه بممارسة ثأرها وهي تحرّض خيانة شريكها، حتى وهي تتظاهر بتشجيعه على ذلك. وإن في ذلك الموقف من الإفراط في التعويض للألم ما ليس له، حسب اعتقادي، من مثيل. فليس من هدف لتلك الدسيسة كلها، والتي حيكت بكل عناية، سوى أن تبرهن لنفسها على خيانة المركيز، وبالمقابل، فإن الألم المفرط الذي تعاني منه، لا يؤدي إلاّ إلى جعلها أكثر تصميماً على تنفيذ ثأرها، وبالتالي إلى الحميّة التي تبديها في معاقبة نفسها :"بعد أن هدأت ثائرتها الأولى، على أثر ما انتابها من سخط، وبعد أن غدت تستطيب غيظها بكل طمأنينة، فكرت في الانتقام، لكن على أن يكون انتقاماً قاسياً، وبطريقة كفيلة ببث الهلع في قلوب الذين تسوّل لهم أنفسهم مستقبلاً إغواء امرأة شريفة أو خداعها." وتقول كافة الظواهر إنها على حق، لكن المستقبل يقول في النهاية إنها على باطل: أما وأن المركيز خدع ثم ثاب إلى رشده، وأنّ الآنسة دوكينوا اضحت المركيزة ديزارسي حقاً، فقد وقع للمركيز ما لا يمكن لشيء أن يخمّنه، وذلك أن يكون سعيداً بزواجه، ومخلصاً مع زوجة مخلصة (يتباهى فوق ذلك بأنه صفح عنها!)

[1] ضمن مجموعة "ابن شقيق رامو"، من منشورات وزارة الثقافة وترجمتنا م.

ولكن، وهذا هو العنصر الثالث للقصية، كل شيء يشهد لصالح مدام دولابومريه، ويتطوّع الكاتب ليقول لنا ذلك: "بوسعك أن نرهب جانب مدام دولابومريه: غير أنك لن تزدريها."

ولا نحرؤ على الكلام من بعدها على شحصيات دون، لأن الأب هندسون ليس واحداً من أولئك. فهو الأب الرئيس لدير عمّ فيه الفساد، فتوصل بسلطة رائعة إلى إحلال النظام فيه من بعد أعوام من الإدراة الرديئة. وأقام في الوقت نفسه شبكة ترتكز على نفوذه الشخصي، وتهدف إلى إرواء ميوله كرجل خليع. فما عسى المرء أن يأخد عليه؟ "فأنا رجل، وقد آثرت أن أقصد امرأه متهتّكة، على أن أغرّر بامرأة شريفة." ثم نجح في جعل الفخ يطبق على الدين نصبوه له، وكان الأخ ريشار هو الدي دفع الثمن. هدا وليس لديه أية ضغينة أو تصاغر. وهو النقيض لـ "الخبيث الفاخر" بالمعنى الذي يقصده ابن شقيق رامو، ولا يتردّد ديدرو في النهاية أمام وضع هيدسون مع مدام دولابومريه على صعيد واحد. يمكن لابنهما أن يكون رجلاً شريفاً ولكن قد يكون أيضاً "نذلاً سامياً".

ثم يقع ضمن النسق نفسه من الأفكار، لكن على صعيد أدنى بقليل، أبطال من النوع الذي يدعوه ديدرو بـ "وحدة الطبع". فرئيس جاك من تلك الطينة ولبس لنا أن نهمله :"كان رئيسي يقول .." وإنه في نظر جاك لسلطة. فقسم كبير من هيبته ذو طابع عسكري: إنه مهووس بالبسالة فلا يسعه أن يتصوّر صداقة عبر حربية، فعليه بالتالي أن يتبارز مع أفضل صديق لديه. فيتدخل وزير الحربية. فيصار إلى الفصل بينهما. فيموت، أو أن جاك يظن على أقل تقدير أنه قد مات قنوطاً. ونقع على حمّى الثأر نفسها وعبادة الشرف، وقد بلغتا درجة اللامعقول لدى دبغلان. والعبث الثأري نفسه أيضاً لدى السيد دوعيرشي. وليس جاك في واقعته مع الكاهن، ولا معلمه الذي يثأر من الفارس، بمنأى عن ذلك الشغف الذي ظل في وضح عصر الأنوار، يشكل إحدى الفضائل الكبرى لفرنسا العسكرية. وتبدو شخصية واحدة قد أفلتت من

ذلك الهوس التأري، إنها مضيفة الوعل الكبير، التي بوسعها أن نعلن قائلة لجاك: "هلم، يا سيد جاك، نتصالح..." فالمضيفة التي كانت فيما مضى "حسناء كملاك"، والتي تروق، بشكل دائم، رؤيتها وسماعها، "أنيقه ومهداره." وهي على درجة من التميّز الفكري، تضعها في مصاف أسمى بكثير من وضعها كمضيفة. فقد نشأت في مدرسة سان سير، واحتفظت بشيء من الشمم في شكلها، غير أن ذلك لا يحول دون أن تكون آخر من يرقد وأول من يستيقظ.

ومن الطبيعي أن ننتقل من النزل إلى المسافرين، الذين رُسمت صورهم على عجل ضمن لوحة في غاية الجمال: "أحد الراجلون عصيّهم وحملوا أخراجهم، وسوّى آخرون قعودهم في عربات النقل أو اسفروا في عربات سفرهم. وامتطى الخيالة صهوات جيادهم وشربوا كأس الرحيل."

ويتلاقى في فرنسا آنذاك، والتي تعجّ بالحركة، أشخاص من خارج نطاق الأنماط، من أمثال المركيز ديزارسي والأخ ريشار، وكل غاد ورائح ومذكور على جناح السرعة أثناء واقعة النزل، وفيهم بطبيعة الحال النشالون والمحتالون والغشاشون، الذين يدخل جاك في نزاع معهم لدى واقعة كيس النقود والساعة-فالحمّال يريد أن يبيع جاك ساعة سيده، والخادمة تردّ كيس نقود السفر بعد أن تقبض أجرة ليلة لم تمضها مع جاك. تضاف إلى ذلك كله ظاهرة قطاع الطرق بحدّ ذاتها، في عصر "كان لسوء الإدارة فيه مع البؤس أن يضاعفا عدد اللصوص إلى ما لا نهاية. فالسجون لا تفرغ. وديدرو مندهش من تفرّد نزلائها. ففيهم مثلاً غوس، الذي ليس لديه سوى قميص واحد، إذ ليس له "سوى جسد واحد"، وهو القادر على منح كل ما يملك من أثاث، لمساعدة عاشقيْن في حالة من العوز، لكن ليس لديه من الأخلاق "أكثر مما في رأس سمكة زنجور." فهو "فريد بلا مبادئ." أما الوكيل، "وهو الرجل الذي كان يعزف اللحن الجهير" والذي نقل إلى سجن بيستر، فقد استماتت في بذل الجهود ليتخلّص من خصمه الحلواني، لكنه يرتكب خطيئة حمقاء تودي به. ويبدو على ديدرو الاعتقاد بفساد

الحس النقدي لدى كافة المنحرفين. ومستحقّ السجن، في نظره، شخص لا يعود يميّز في وقت من الأوقات ما بين الممكن والمستحيل.

عمل ا نب

يبدو *جاك المؤمن بالقدر* يردّ على سؤال طرحه نصّ *الراهبة*:

حين يفترض قيام واحد من الشخصيات بكتابة قصته الخاصة، فكيف يقوى على الجمع بين ما يملك من معرفة ساعة الكتابة، وبين ما كان عليه من جهل في المرحلة المذكورة من حكايته، دون خطر الوقوع في الاستبعادية[1] أو التناقض؟ وهذا السؤال مشروع بالنسبة للرسائل المتعلقة بالسيرة الذاتية وبالنسبة *للاعترافات* وأخيراً للروايات المكتوبة بصيغة المتكلم. لكن من الممكن أيضاً أن يمتد ليشمل الأدب الروائي بمجموعه: كيف يمكن للمرء، من غير أن يشوّه المنظورات تشويهاً تاماً، أن يكون من يعرف، (أي الروائي) وأن يكون ذا المعرفة المغلوطة، أو ذاك الذي لا يعرف أبداً (الشخصية)؟ وهل يمكن للسذاجة، بصيغة أخرى، أن تصوّر نفسها؟

الجواب الذي يقدمه ديدرو في *جاك* جواب جريء. فهو يقوم على تفكيك أوصال العلاقة التقليدية بين الروائي والشخصية، وبقول آخر على التظاهر بأن الكاتب يجهل ما سيجري جهلاً تاماً. "من المسلّم به أني لا أكتب رواية..."وهذا ما يؤدي به إلى مضاعفة التوكيدات الصادقة، باسم الحقيقة، التي يقدم نفسه على أنه خادمها الأمين: "سوف تعتبر قصة رئيس جاك حكاية، لكنك على خطأ." أما الأحداث الموغلة في الغرابة، فينبغي القبول بها على نحو ما يرويها. وليس له في الأمر يد. "ليس ما يثير شدة العجب في خيال شاعر، لا يقدم لك تجربته وملاحظته النموذج في الطبيعة." وعلى القارئ أيضاً أن يرضخ حيال جهل المؤلف. فما لا يعرفه المؤلف، لا يقوله: "ولكن، سنقول لي أيها القارئ، حقاً بالله، إلى أين هما ذاهبان؟ ولكن سأجيبك أيها القارئ، حقاً بالله، هل يعرف المرء إلى أين هو ذاهب؟ فأنت، إلى أين أنت ذاهب؟... هذا التلاعب الدائم بعدم المعرفة ذو

(1) حالة ما لا يصدّق.

فائدة مزدوجة، على نحو ما ذكرنا في المقدمة، بالمطابقة مع موضوع الرواية نفسه، ألا وهو إبانة الموضوع المركزي: "نحن نسري في عتمة الليل..."، وبوضع المؤلف في موقف قوّة حيال القارئ، برفضه إعطاء هذا الأخير أية معلومة لا تأتي، من الذي يطلق ديدرو عليه اسم "الحقيقة"، أي ما هو في حقيقة الأمر نزوة المؤلّف. وتخضع الرواية بشكل عام لعدد من التقاليد التي تنبّت قوانين المتعة الروائية، والتي يتوقع القارئ أن يجري التقيّد بها في خطوطها العريضة. وتتمثّل براعة ديدرو في حرمان القارئ من ذلك الرضى، بدافع من الالتزام بالفرضية الأولية: لا يدري المرء إلى أين هو ذاهب، فليس له بالتالي أن يقول إلاّ ما يعرفه. ومن هنا تأتي كمية من التدخلات الهادفة إلى إزاحة كافة النماذج الروائية المستخدمة في مثل تلك الحال :"... ما يمنعني من تزويج المعلم وجعله زوجاً مخدوعاً؟ وجعل جاك يبحر إلى الجزر الواقعة فيما وراء البحار؟ وأن أقتاد المعلم إلى هناك؟ ثم أعيد الاثنين معاً إلى فرنسا على ظهر المركب نفسه؟ ألا ما أسهل تأليف الحكايات!" ستكون لدينا إذن، وعلى مدى كتابة الرواية المقبولة، رواية مرفوضة، أو بالأحرى مخططات روايات مرفوضة، تكتب على نحو موازٍ للأولى. فتنجم عن ذلك انقطاعات متواترة يدخل فيها شخص يمثّل الكاتب في حوار مع شخص آخر يدعى القارئ، فيتولّى الأول الدفاع عن الحقيقة، فيما يصرّ الثاني على الدفاع عن حقوق التوهّم، ويتحرّك هذا وذاك مثلما يشاء المخرج، فهو المخادع وموزّع الأدوار ومدبّر الحركة الأكبر، والذي يرى الجميع بوضوح أنه لا يمتزج مع المؤلِّف الممثّل.

يتجلى الرأي القبلي نفسه في تنظيم قصة *جاك* التي يصفها موزي بأنها "صورة روائية ساحرة"، فيها: انقطاعات وترصيع السرد واستئناف القصص المقطوعة وحكايات متزامنة وحالات استعجال وحالات إبطاء. وتتلاشى بعض القصص، مثل قصة ابن ديغلان، في الرمال. فجاك يقول: "غير أن الباقي لا يُصدَّق..." فيجيبه المعلم :"أرجو أن تُعفيني من الباقي،"

فيصبح بذلك نهاية للقصة. ويسع القارئ المتنبّه أن يلمس على الأقل تواتر عدد من المواضيع: سفر جاك ومعلمه الذي يسمح بالتقاط شتّى التطورات ودمجها في محادثة يجري استئنافها على الدوام بين الشخصيتين الرئيستين. غراميات جاك التي لا تفيد إلا كلما انقطعت الحكاية، فدورها يتمثّل في إبقاء القارئ في حالة من السخط على الكاتب وعلى الشخصيات وعلى نفسه. القدر الذي لا تجري معالجته فقط على نحو مباشر من قبل المؤلف. والذي يذكر على سبيل الاستشهاد بأقوال شخص آخر أو عبر الأحداث التي تطرأ. مداخلات المؤلّف الهادفة إلى تحديد العناصر في جماليته الروائية. وهناك أخيراً القصص العديدة التي تسردها شخصيات الدرجة الثانية أو الدرجة الثالثة (التي يذكرها ديدرو أو تذكرها الشخصيات التي تتكلم). ومهما يكن تنوع تلك القصص، فإنها تحمل ملامح قرابة فيما بينها: فهي تعرض علينا بشكل عام حالات متطرّفة أو فريدة. هوى جامح يبلغ ذروة الحدّ، أو عادة مستهجنة تنجم عنها حركات عبثية. وتتشابك الموضوعات فيما بينها، إلا أن تقاطعها ليس متروكاً للمصادفة تماماً. فهناك تجمّعات نسقية. فبداية قصة مدام دولابومريه مثلاً تجرّ وراءها تأمّلاً فلسفياً حول موضوع التقلّب، الذي يؤدي بدوره إلى نقلة ذات أسلوب فولكلوري. وهي لعبة ليس فيها من شيء مجاني.

الكتاب وجمهوره.

جاءت ردود فعل الجمهور فوريّة. فقد ظهرت *جاك المؤمن بالقدر* في باريس، لدى الناشر بويسون، بعد ستة عشر عاماً من تسليمة *المراسلات الأدبية*. ونفهم تمام الفهم أن ينتظم فريقان، فالبعض يؤيد النظرية التي يدعو إليها جاك تأييداً حماسياً والبعض الآخر يعارضها معارضة عنيفة، فالقدرية اسم آخر للمادية. وتتكلم *الحوليات الوطنية* في 15 تشرين الأول عام 1796 عنها بإطراء على أنها :"المرآة الصافية للحقيقة الفاسية". وترى بخلاف ذلك، *رقيب الصحف* في 8 تشرين الأول 1796 تعتبر الرواية على أنها الوسيلة التي استخدمها ديدرو لنشر المنهج المادي المعروض في *منهج الطبيعة*

(لدولباخ في الواقع.) وتتخذ *المؤرخ* في 18 تشرين الأول 1796 موقفاً وسطاً حين تجعل ديدرو مسؤولاً عن كافة الويلات التي أصابت فرنسا:"إيه، لو كان لمثل تلك النتاجات أن تُستَقبَل في بلادنا، فلنقصد المتوحشين لنحسّ بالعناية الإلهية ونعبدها."

وهنالك موضع انشقاق آخر: إنه تأليف العمل (أو بالأحرى عدم تأليفه.) فالكل متفق على الاعتراف بجمال واقعة مدام دولابومريه، غير أن كليمان لا يجد في *الصحيفة الأدبية* الصادرة في 22 تشرين الأول 1796 العبارات المناسبة لنقد القصور الأدبي لدى ديدرو، الأدنى من فولتير بكثير، لأن النقد لدى فولتير "لا يسترسل، مثل *المؤمن بالقدر*، فوق الكثير من الأماكن العاديه الباهتة والأقاصيص المسفّة، المجلوبة كيفما كان، والموصول بعضها بالبعض الآخر على نحو أخرق، من أجل أن نملأ مجلدين من القطع الصغير." أما الواقع الذي يوضحه بجلاء كل من دونوي وفرير، فهو أن أنماط النقد الشكلي، في كافة التعليقات، تستخدم مبرراً لنقد المضمون. ويسعد أصحاب ذلك النقد بالعثور على "أغلاط" في *جاك* ليبرّروا الإدانة الموجهة إلى فلسفته.

إن قصة تأويلات الرسالة الفلسفية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ذات مغزى كبير جداً. بل إن نجمّعها بشكل مجموعة حسنة التنظيم. وهنالك فئتان من القراء: منهم الذين يرون أن *جاك* كُتِبت للبرهان على عدم وجود الحرية. والذين يرون، بخلاف ذلك، إن جاك كُتِبت للاستهزاء بالقدرية. ونقع في وسط هاتين الفئتين مجموعة الذين يؤيدون ومجموعة الذين يعارضون. ويُصدِر "لا هارب" على سبيل المثال، في كتابه *فلسفة القرن الثامن عشر*، الحكم التالي :"يجمع ديدرو البراهين التي قدمت لصالح حرية الاختيار، وأنا أذكر الواقعة فقط لا بيّن لكم إنه كتب *جاك المؤمن بالقدر*من أجل هدمها." غير أن المرء تتولاه الدهشة وهو يقع في معجم *لاروس الجديد المصوّر* على مقالة كلود أوجيه :"إنه عمل غريب غير منسّق وناقص، وما كان الكاتب، وفق قول نيجون، ليعطيه للجمهور من عرامبات جاك، والتي تخترقها حكايات أخرى بلا هوادة. ورغب

ديدرو من خلال ذلك الشكل المفكك في أن يستهزئ بالقدرية، مثلما استهزأ فولتير في *كانديد* بالتفاؤل." إن الانقلاب كلّي ويبين إلى أي مـــدى يمكـــن لاستقبال مؤلّف أن يعدّل وجهه.

وفيما يتعلق بتآليف *جاك*، علينا في واقع الأمر أن نحسب أكبر حســاب للرأي الذي يعبّر عنه نيجون في كتابه *المذكرات* عام 1821، لأنـــه تـــرك طابعه على تاريخ النقد كلّه في القرن التاسع عشر:"ليست المســـألة علـــى الأقل أن *جاك المؤمن بالقدر* خالية من الأشياء الجميلة جداً... لكنها طويلـــة بمقدار النصف. ففيها الكثير من الحكايات، وليست بصورة عامـــة لاذعـــة جداً، على الرغم من جرأتها المفرطة، لتستحق الإبقاء عليها." وقد خلـــص النقد الجامعي كله بتقليده الحسن إلى الاستنتاج أن ديدرو لا يجيد التـــأليف. أما "فاغيه" فيعلن بشأنه قراره الحاسم في كتابه *القرن الثامن عشر* :"حيـــث التأليف مفقود، لكني أقول بشكل قطعي، واعتبروا الأمر منتهياً بأن الابتكار نفسه مفقود." وها إن الحكم فيه نافذ.

وليس الانقلاب الراهن إلا مذهلاً أكثر. ويعود لأســـباب كثـــيرة، منـــها أسباب تقنية وأخرى أدبية أو أيديولوجية. فقد بُذِل على الصعيد التقني جـــهد هائل لإصدار طبعات أكثر دقة و أكثر توثيقاً. وقد ساهمت هـــذه الأعمـــال، وهي تضاف إلى أعمال أخرى كثيرة، في تجديد شباب الملاحظة التاريخيـــة، إلى حد كبير، بشأن ذلك المؤلّف الذي عانى الكثير لأنه كان مجهولاً.

وجرى على الصعيد الأدبي تحوّل كبير ضمن النطاق الـــذي ظـــهرت تقنية ديدرو الروائية فيه على تقارب مدهش مع تقنيات الرواية المعـــاصرة. فأضحت منافسة الرواية بالرواية مقبولة أكثر والطرائق التأليفية استطراديه أو نقدية ذاتية، وتدخل الكاتب في السرد. وبدأت تجري إعـــادة تصنيـــف للقيم، أدّت إلى اعتبار المحادلات الفكرية الكبرى، حول طروحـــات *جـــاك المؤمن بالقدر* الفلسفية، ثانوية نسبياً، تلك الطروحات التي بدا مضمونـــها أقل قابلية للانفصال عن "الشكل الأدبي" الذي يعبّر عن نفسه من خلاله. أما الآن فقد غدت أكثر أعمال ديدرو ومادة للدراسة والتعليق. فـــهنالك جـــهد يبذل على صعيد الأفكار لفهم المصطلح، ومعنى النقائض الديالكتيكية التـــي

تظهر في الرواية، فهماً أفضل. إن "القدرية" أولاً و"الملف الكبير" و "فوق"، تصورات شعبية، ترمي إلى تجسيد مفهوم الضرورة. فيما هدف التطـور الفلسفي كله لدى ديدرو بخلاف ذلك، إلى استنبطان الضرورة، عن طريـق إبراز "العلل الخاصة بالإنسان". ومن جهه أخـرى فـإن مفـهوم "حريـة الاختيار"، وهو من مفردات الفلسفة الكلاميـة، لا علاقـة لـه بالحريـة الأخلاقية، التي يسعها عند اللزوم أن نتصالح مع الضرورة الباطنية.

عبارات أساسية. أ ر رئيسة.

بوسعنا تمييز العبارات المتعلقة بفلسفة جاك على نحو مباشر أو غير مباشـر. وهي تنقسم فيما بينها إلى عبارات شواهد أو بيانات بالصيغة المباشرة.

أ-المجموعة الأولى :"جاك كان يقول إن رئيسه كان يقول..."

"كل ما أتلفّظ به أمامك هنا، أيها القارئ، أخذته عن جاك .."

"وكان رئيسه قد حشا دماغه بتلك الآراء كلها التي استقاها من سبينوزا، فقد كان يحفظه عن ظهر قلب"

ب-المجموعة الثانية: "وهل يعرف المرء إلى أين هو ذاهب؟"

-"لأن المرء، في جهله بما هو مكتوب فوق، لا يعود يعرف ما يريد ولا ما يفعل."؟

"وماذا ذهبا يفعلان في ليشبونة؟ -سعياً وراء هزّة أرضية، ما كان لها أن تحـدث من دونها، لينتهيا مسحوقَيْن مطمورين محروقَيْن، مثلما كان مكتوباً فوق."

"نحن، يا معلّمي، لا نعرفممّ نفرح ولا ممّ نحزن في الحياة. فالخير يجلب الشر، والشر يجلب الخير. فنحن نسري في الليل .."

"إن أول عهد قطعه على نفسيهما كائنان اثنان من لحم ودم, كـان قـرب صخرة انهارت فذهبت هباء منثوراً.وقد أشهدا على ثبات عهدهما سـماء لا تثبت لحظة واحدة على حال. وكان كل شيء يعتمل داخلهما ومن حولـهما، وهما يحسبان أنّ قلبيهما منعتقان من تقلّبات الزمن. فيا لهما مـن طفليـن، وسيظلان طفلين أبداً!..."

"وبدا له التمييز بين العالم الفيزيائي والعالم الأخلاقي خالياً من المعنى".

نبذة تاريخية عن حياة ديدرو

ولد ديني ديدرو DENIS DIDEROT، ابن السكاكيني ديدييه ديدرو، في 5 تشرين الأول 1713 في مدينة لانغر Langres، وولدت أخته دينيز، ولقبها "الأخيّة" عام 1715. ثم أخوه ديدييه عام 1722، والذي دخل سلك الكهنوت فصار رئيس دير، فظلّت علاقاته مع أخيه الفيلسوف عاصفة على الدوام.

دخل ديدرو كلية اليسوعيين في لانغر ثم في باريس من بعد. فنال عام 1732 شهادة تؤهله تدريس الفنون. لكنه درس اللاهوت في السوربون حتى 1735.

تزوج سرّاً عام 1741 من فتاة من عامة الشعب تعمل في الحياطة، لأنه لم ينل موافقة أبيه. ورزق بأطفال لم نكتب لهم الحياة، عدا ماري التي تزوجت قريباً لها من لانغر، وحملت فيما بعد اسم مدام فاندول.

باشر ديدرو من عام 1742 حتى 1749 أعمالاً في الترجمة عن الإنكليزية. والتقى بروسّو ومن بعده كونديّاك ودالامبير. ثم وقع مع "أصحاب المكتبات الشركاء" عقداً للبدء بنشر الموسوعة. ظهر له عام 1746 كتاب "الأفكار الفلسفية" لكنه احتجز ثم أُحْرِق. فصارت كتبه تتناقل سرّاً، ومنها "المجوهرات الفاضحة" ثم "رسالة حول العميان" التي سجن بسببها مئة يوم عام 1749.

ظهر البيان التمهيدي للموسوعة عام 1750. وبدأت تظهر بمعدل مجلد واحد كل عام. وكان العمل فيها يتعثّر بسبب ما يمارسه الموالون للكنيسة والبلاط من ضغوط على الفلاسفة. واستمر العمل فيها سرّاً بعد أن أُبْطِل ظهورها بمرسوم عام 1759.

ارتبط ديدرو بعلاقة عاطفية، بادر مثيلها، مع لويز هنرييت، التي عرفت باسم صوفي فولان، منذ عام 1755 وحتى نهاية حياته. وكان لرسائله إليها الفضل الأكبر في الكشف عن جوانب هامة من حياته وأعماله، كانت ستظل مجهولة.

تعرّض ديدرو عام 1760 لهجوم علني ومكشوف من قبل بالبسّو في مسرحية "الفلاسفة"، وهي كوميدية.

بدأ عام 1761 بكتابة "ابن شقيق رامو". وفي عام 1766 رُفِعَ الحظر عن الموسوعة فظهرت مجلداتها العشرة الأخيرة تباعاً. وكان يوالي نشر رسائله وأبحاثه في أعداد "المراسلات الأدبية". وكتب عام 1771 رواية "جاك المؤمن بالقدر" ثم "ملحق رحلة بوغنفيل".

دعي ديدرو عام 1773، من قبل الإمبراطورة كاترين النابهه، لزيارة روسيا، بعد أن عمّت شهرته بلدان أوربا كلها، من أجل أن يضع منهجاً للتعليم من المرحلة الإبتدائية حتى الجامعية. وقد بلغ سمع الإمبراطورة أنه في ضائقة مالية. فاشترت منه مكتبته الخاصه، على أن تظلّ في بيته وتحت تصرفه طول حياته. ولم تنقل محتويات المكتبة إلى روسيا حتى 1785، أي بعد وفاته بعام.

في 1777، بدأ ديدرو، بالتعاون مع الأب رينال، بوضع "تاريخ الهندَيْن"، الذي أمر البرلمان عام 1781 بحجبه.

وشهد في الأعوام الستة الأخيرة، معارفه ومعاصريه، لا سيما الذين عملوا معه في الموسوعة عشرات الأعوام، وهم يتوارون واحداً إثر واحد: روسو، فولتير، كوندياك، الفارس جوكور، دالامبير. وأخيراً صوفي فولان التي توفيت في 22 شباط 1783. وفي اليوم الأخير من تموز 1784 انطفأت شعله الحياة في جسد ديدرو، الكاتب والأديب والفيلسوف، الذي يصحّ فيه دون من عداه القول، إنه في فرنسا، وحتى يومنا هذا: شاغل الناس.





ارتنا

- فلسفة الأسطورة ــ الكسي لوسيف
- أوهام ما بعد الحداثة ــ تيري ايجلتون
- نقد الخطاب النهضوي المعاصر ــ تركي الربيعو
- الدولة والنهضة والحداثة ــ محمد جمال باروت
- أقواس في الحياة الثقافية ــ نبيل سليمان
- أطياف العرش ــ نبيل سليمان
- الإسلام الخوارجي ــ أحمد معيطة
- ممكنات النص ــ صلاح صالح
- أهالي دبلن – جيمس جويس
- النائم ــ جورج بيريك
- الاقتصاد في دول العالم القديم ــ عبد الله الحلو
- سيرة الله ــ جاك مايلز

